التفسير الوسيط
للقرآن الكريم

تفسير سورة الأعراف

لفضيلة
الدكتور محمد السيد طنطاوى
الأستاذ بكلية أصول الدين
جامعة الأزهر

(بقية الجزء السابع والجزء الثامن)

الطبعة الثانية

١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أفضل المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه وأتباعه ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين.

وبعـــد: فهذا تفسير تحليلي لسورة الأعراف، توخينا فيه أن نبرز ما اشتملت عليه السورة الكريمة من توجيهات سامية، وآداب عالية، وهدايات شاملة، وحكم جليلة...

والله نسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه، ونافعاً لعباده إنه أكرم مسئول وأعظم مأمول.

«ربنا لاتؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا، ربنا ولاتحمل علينا إصراً كما حملته على الذين من قبلنا، ربنا ولاتحملنا مالا طاقة لنا به، واعف عنا واغفر لنا وارحمنا، وأنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين».

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

القاهرة — مدينة نصر

١٤/٢/١٤٠٥ هـ — ٧/١٢/١٩٨٤ م

المؤلف

د. محمد سيد طنطاوى

«تمهيد بين يدى السورة»

١ — سورة الأعراف هى السورة السابعة فى الترتيب المصحفى ، وهى أطول سورة مكية فى القرآن الكريم ، وعدد آياتها مائتان وست آيات .

والرأى الراجح عند العلماء أنها جميعها مكية ، وقيل إن الآيات من ١٦٣-١٧٠ مدنية ، وكان نزولها بعد سورة «ص» .

٢ — ومناسبتها لسورة الأنعام التى قبلها أن سورة الأعراف تعتبر كالتفصيل لها ، فإن سورة الأنعام قد تكلمت عن أصول العقائد وكليات الدين كلاما إجماليا ، ثم جاءت سورة الأعراف فكانت كالشرح والتفصيل لذلك الإجمال ، خصوصاً فيما يتعلق بقصص الأنبياء مع أقوامهم وبعثة النبى - صلى الله عليه وسلم - .

٣ — مقاصدها ومميزاتها : وقد اشتملت سورة الأعراف على المقاصد الإجمالية التى اشتملت عليها السور المكية ، كإقامة الأدلة على وحدانية الله ، وعلى صدق رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - وعلى أن يوم القيامة حق.. إلخ .

والذى يتأمل هذه السورة الكريمة يراها تهتم بعرض الحقائق فى أسلوبين بارزين فيها ، أحدهما أسلوب التذكير بالنعم ، والآخر أسلوب التخويف من العذاب والنقم .

أما أسلوب التذكير بالنعم فتراه واضحاً فى لفتها لأنظار الناس إلى مايلمسونه ويحسونه من نعمة تمكينهم فى الأرض ، ونعمة خلقهم وتصويرهم فى أحسن تقويم ، ونعمة تمتع الإنسان بما فى هذا الكون من خيرات سخرها الله...

وأما أسلوب التخويف بالعذاب فالسورة الكريمة زاخرة به ، تلمس ذلك فى قصص نوح ، وهود ، وصالح . ولوط ، وشعيب ، وموسى مع أقوامهم . وقد استغرق هذا القصص أكثر من نصفها ، وقد ساقت لنا السورة

الكريمة مادار بين الأنبياء وبين أقوامهم ، وما آل إليه أمر أولئك الأقوام الذين لم يستجيبوا لنصائح المرسلين إليهم .

٤ — عرض إجمالى لها : ونحن عندما نستعرض سورة الأعراف نراها فى الربع الأول منها تطالعنا بالحديث عن عظمة القرآن وتأمرنا بإتباعه ، وتحذرنا من مخالفته ، وتحثنا على المسارعة إلى العمل الصالح الذى تثقل به موازيننا يوم القيامة .

قال تعالى : « كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين . اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولاتتبعوا من دونه أولياء قليلا ماتذكرون .... » .

ثم ساقت لنا بأسلوب منطقى بليغ قصة آدم مع إبليس ، وكيف أن إبليس قد خدعه بأن أغراه بالأكل من الشجرة المحرمة ، فلما أكل منها هو وزوجه.

« بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة ... » .

ثم وجهت إلى بنى آدم نداء فى أواخر هذا الربع نهتهم فيه عن الاستجابة لوسوسة الشيطان .

قال تعالى : « يابنى آدم لايفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما،إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون .... » .

وفى الربع الثانى منها نراها تأمرنا بأن نأخذ زينتنا عند كل مسجد ، وتخبرنا بأن الله — تعالى — ، قد أباح لنا أن نتمتع بالطيبات التى أحلها لنا، وتبشرنا بحسن العاقبة متى اتبعنا الرسل الذين أرسلهم الله لهدايتنا ، ثم تسوق لنا فى بضع آيات عاقبة المكذبين لرسل الله ، وكيف أن كل أمة من أمم الكفر عندما تقف بين يدى الله للحساب تلعن أختها .

قال تعالى «كلما دخلت أمة لعنت أختها ، حتى إذا اداركوا فيها جميعاً قالت أخراهم لأولاهم ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذاباً ضعفاً من النار ، قال لكل ضعف ولكن لا تعلمون . وقالت أولاهم لأخراهم فما كان لكم علينا من فضل فذوقوا العذاب بما كنتم تكسبون » .

ثم تبين السورة بعد ذلك عاقبة المؤمنين فتقول : « والذين آمنوا وعملوا الصالحات لا نكلف نفسا إلا وسعها أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ... »

وفى أواخر هذا الربع وفى أوائل الربع الثالث منها نراها تسوق لنا تلك المحاورات التى تدور بين أصحاب الجنة وأصحاب النار ، وتحكى لنا مايحصل بينهم من نداءات ومجادلات ، تنتهى بأن يقول أصحاب النار لأصحاب الجنة على سبيل التذلل والتوسل : « أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله » .

فيجيبهم أصحاب الجنة: «إن الله حرمهما على الكافرين. الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعباً وغرتهم الحياة الدنيا .... »

ثم تسوق لنا السورة بعد ذلك جانبا من مظاهر نعم الله على خلقه ، وتدعونا إلى شكره عليها لكى يزيدنا من فضله .

وفى الربع الرابع منها وكذلك فى أواخر الثالث ، تحدثنا السورة الكريمة عن قصة نوح مع قومه ، ثم عن قصة هود مع قومه ، ثم عن قصة صالح مع قومه ، ثم عن قصه لوط مع قومه ، ثم عن قصة شعيب مع قومه ... ولقد ساقت لنا خلال حديثها عن هؤلاء الأنبياء مع أقوامهم من العبر والعظات مايهدى القلوب ، ويشفى الصدور ويحمل العقلاء على الاستجابة لهدى الأنبياء والمرسلين .

أما فى الرابع الخامس منها فقد بينت لنا سنن الله فى خلقه ، ومن مظاهر هذه — السنن أنه — سبحانه — لا يعاقب قوما إلا بعد الابتلاء والاختبار،

وأن الناس لو آمنوا واتقوا لفتح — سبحانه — عليهم بركات من السماء والأرض وأن الذين يأمنون مكر خالقهم هم القوم الخاسرون .

قال تعالى : « تلك القرى نقص عليك من أنبائها ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا من قبل ، كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين . وماوجدنا لأكثرهم من عهد ، وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين » .

ثم عقب على ذلك ببيان أن الله — تعالى — قد ساق قصص السابقين للعظة والاعتبار .

ثم أسهبت السورة فى الحديث عن قصة موسى — عليه السلام — فقصت علينا فى زهاء سبعين آية — استغرقت الربع السادس والسابع والثامن — ما دار بينه وبين فرعون من محاورات ومناقشات ، وما حصل بينه وبين السحرة من مجادلات ومساجلات انتهت بأن قال السحرة: « آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون » .

ثم حكت لنا مالقيه موسى من قومه بنى إسرائيل من تكذيب وجهالات، مما يدل على أصالتهم فى التمرد والعصيان ، وعراقتهم فى الكفر والطغيان .

وفى الربع التاسع منها حدثتنا عن العهد الذى أخذه الله على البشر بأن يعبدوه ولايشركوا به شيئاً ، ثم حضتنا على التفكر والتدبر فى ملكوت السموات والأرض ، وبينت لنا أن موعد قيام الساعة لايعلمه سوى علام الغيوب ، وأن الرسل الكرام وظيفتهم تبليغ رسالات الله ، ثم هم بعد ذلك لايملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً .

أما فى الربع العاشر والأخير فقد اهتمت السورة الكريمة بإقامة الأدلة على وحدانية الله ، ووبخت المشركين على شركهم ، ودعت الناس إلى مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين » وأمرتهم بأن يكثروا من التضرع والدعاء .

« واذكر ربك فى نفسك تضرعاً وخيفة ودون الجهر من القول بالغدو والآصال ولاتكن من الغافلين . إن الذين عند ربك لايستكبرون عن عبادته ويسبحونه وله يسجدون » .

وبعد : فهذا عرض سريع لما اشتملت عليه سورة الأعراف من توجيهات حكيمة ، وآداب عاليه ، وعظات سامية ، ولعلنا بذلك نكون قد أعطينا القارىء الكريم فكرة مجملة عنها قال أن نفسرها تفسيراً تحليلياً مفصلا . والله نسأل أن يلهمنا جميعاً الرشد والسداد فيما نقول ونعمل .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم ؟

«أَلمَّصَ (١) كِتَابٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلاَ يَكُنْ فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِنْهُ لِتُنْذِرَ بِهِ وِذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ (٢) اتَّبِعُوا ما أُنزِلَ إِلَيْكُم مِنْ رَبِّكُم ولاَ تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَولِيَاءَ قَلِيلاً ما تَذَكَّرُونَ (٣) وكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهاَ فَجَاءها بَأْسُنَا بَيَاتًا أَو هُم قَائِلونَ (٤) فما كانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَنْ قالوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٥) فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ولَنَسْأَلَنَّ المُرْسَلِينَ (٦) فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ ومَا كُنَّا غَائِبِينَ (٧) والوزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ (٨) ومَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِما كانُوا بآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ (٩)».

سورة الأعراف من السور التى ابتدأت ببعض حروف التهجى «ألمص». ولم يسبقها فى النزول من هذا النوع من السور سوى ثلاثة وهى سور: (ن، ق، ص) ويبلغ عدد السور القرآنية التى ابتدئت بالحروف المقطعة تسعاً وعشرين سورة.

هذا، وقد وقع خلاف بين العلماء فى المعنى المقصود من حرف التهجى التى افتتحت بها بعض السور القرآنية، ويمكن إجمال اختلافهم فى رأيين:

الرأى الأول: أن المعنى المقصود منها غير معروف، فهى من المتشابه الذى استأثر الله بعلمه وإلى هذا الرأى ذهب ابن عباس ـ فى إحدى الروايات

عنه ـ كما ذهب إليه الشعبي ، وسفيان الثوري ، وغيرهما من العلماء ؛ فقد أخرج ابن المنذر وغيره عن الشعبي أنه سئل عن فواتح السور فقال : « إن لكل كتاب إمرا ، وإن سر هذا القرآن فواتح السور » وروى عن ابن عباس أنه قال : « عجزت العلماء عن إدراكها » وعن علي ـ رضي الله عنه ـ أنه قال : « إن لكل كتاب صفوة ، وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي » وفي رواية أخرى للشعبي أنه قال : « سر الله فلا تطلبوه » .

ومن الاعتراضات التي وجهت إلى هذا الرأي أنه إذا كان الخطاب بهذه الفواتح غير مفهوم للناس لأنه من المتشابه فإنه يترتب على ذلك أنه كالخطاب بالمهمل ، أو مثل ذلك كمثل التكلم بلغة أعجمية مع أناس عرب لا يفهمونها .

وقد أجيب عن ذلك بأن هذه الألفاظ لم ينتف الإفهام عنها عند كل الناس فالرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ كان يفهم المراد منها ، وكذلك بعض أصحابه المقربين ، ولكن الذي ننفيه أن يكون الناس جميعا فاهمين لمعنى هذه الحروف المقطعة في أوائل بعض السور . وهناك مناقشات للعلماء حول هـــذا الرأي لا مجال لذكرها هنا .

أما الرأي الثاني : فيرى أصحابه أن المعنى المقصود منها معلوم ، وأنها ليست من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه ، وأصحاب هذا الرأي قد اختلفوا فيما بينهم في تعيين هذا المعنى المقصود على أقوال كثيرة من أهمها ما يأتي :

١ ـــ أن هذه الحروف أسماء للسور ، بدليل قول النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « من قرأ حم السجدة ، حفظ إلى أن يصبح » ، وبدليل اشتهار بعض السور بالتسمية بها ، كسورة « ص » وسورة « يس » إلخ .

ولا يخلو هذا القول من الضعف ، لأن كثيرا من السور قد افتتحت بلفظ واحد من هذه الفواتح ، فلو كانت أسماء للسور لم تتكرر لمعان مختلفة ، لأن الغرض من التسمية رفع الاشتباه . وأيضا فالتسمية بها أمر عارض لا يتنافى مع المراد منها في ذاتها .

٢ - وقيل إن هذه الحروف قد جاءت هكذا فاصلة للدلالة على انقضاء سورة وابتداء أخرى .

٣ - وقيل انها حروف مقطعة بعضها من أسماء الله تعالى ، وبعضها من صفاته ، فمثلا : « الم » أصلها أنا الله أعلم .

٨ - وقيل إنها اسم الله الأعظم ، إلى غير ذلك من الأقوال التى لا تخلو من مقال ، والتى أوصلها الإمام السيوطى فى كتابه « الإتقان » ، إلى أكثر من عشرين قولا ،

٥ - ولعل أقرب الأقوال إلى الصواب أن هذه الحروف المقطعة قد وردت فى بعض سور القرآن على سبيل الإيقاظ والتنبيه للذين تحداهم القرآن، فكأن الله - تعالى - يقول لأولئك المعارضين فى أن القرآن من عند الله : ها كم القرآن ترونه مؤلفا من كلام هو جنس ماتؤلفون منه كلامكم ، ومنظوما من حروف هى من جنس الحروف الهجائية التى تنظمون منها حروفكم ، فإن كنتم فى شك من كونه منزلا من عندالله فهاتوا مثله، أو ادعوا من شئتم من الخلق لكى يعاونكم فى ذلك .

ومما يشهد بصحة هذا الرأى أن الآيات التى تلى هذه الأحرف المقطعة تتحدث عن الكتاب المنزل وكونه معجزة للرسول - صلى الله عليه وسلم - وكثيراً ماتبدأ هذه الآيات باسم الإشارة صراحة ، مثل قوله تعالى : « الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه » ، أو ضمنا مثـــل قوله - تعالى - فى أول سورة الأعراف «المص . كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به، وأيضا فإن هذه السور تجعل هدفها الأول منذ بدئها إلى نهايتها اثبات الرسالة عن طريق هذا الكتاب المنزل .

هذه خلاصة موجزة لآراء العلماء فى الحروف المقطعة التى افتتحت بها بعض

السور القرآنية ، ومن أراد مزيدا لذلك فليرجع - مثلا - إلى كتاب « البرهان » للزركشي ، وإلى كتاب « الإتقان » للسيوطي[١].

ثم مدح - سبحانه - الكتاب الذي أنزله على نبيه - صلى الله عليه وسلم - فقال : « كتاب أنزلناه إليك فلا يكن في صدرك حرج منه » .

المراد بالكتاب جملة القرآن الكريم ، وقيل : المراد به هنا السورة . وحرج الصدر ضيقه وغمه ، مأخوذ من الحرجة التي هي مجتمع الشجر المشتبك الملتف الذي لا يجد السالك فيه طريقا يخرج منه .

والمعنى ، هذا كتاب كريم أنزلناه إليك يا محمد فيه هداية الثقلين ، فبلغ تعاليمه للناس ، ولا تحزن أو تضجر إذا وجدت من بعضهم صدوداً عنه ، فأنت عليك البلاغ ونحن علينا الحساب .

ولقد حكى لنا القرآن أن المشركين وصفوا النبي - صلى الله عليه وسلم - بأنه ساحر . أو مجنون ، كما وصفوا القرآن بأنه ليس من عند الله ، فكان - صلى الله عليه وسلم - يضيق صدره لذلك .

قال تعالى : « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون » .

فالمقصود بقوله - تعالى - « كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه » تقوية قلب النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وتثبيت فؤاده ، وتسليته عما يتقوله المشركون من أكاذيب وأباطيل ، وإفهام الداعي إلى الله في كل زمان ومكان أن من الواجب عليه أن يكون قوي القلب في تحمل مهمته ، مطمئن البال على حسن عاقبته ، لا يتأثر بالمخالفة ، ولا يضيق صدره بالإنكار ...

وقد فسر صاحب الكشاف الحرج بالشك فقال : « فلا يكن في صدرك حرج منه » أي شك منه كقوله : « فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك »

---

(١) راجع الإتقان في علوم القرآن ج ٢ ص ١ للإمام السيوطي . طبعة مكتبة المشهد الحسيني .

وسمى الشك حرجا لأن الشاك ضيق الصدر حرجه ، كما أن المتيقن منشرح الصدر منفسحه . أى : لا شك فى أنه منزل من الله ، ولا تتحرج من تبليغه ، لأنه كان يخاف قومه وتكذيبهم له وإعراضهم عنه وأذاهم . فكان يضيق صدره من الأداء ولا ينبسط له فأمنه الله ونهاه عن المبالاة بهم »[١] .

وعلى أية حال فإن من فسر الحرج بالضيق راعى مدلول الكلمة الأصلى ومن فسره بالشك راعى الاستعمال المجازى ولذا قال الآلوسى :

قوله - تعالى - : « فلا يكن فى صدرك حرج منه » أى : شك . وأصله الضيق ، واستعماله فى الشك مجاز علاقته اللزوم ، فإن الشاك يعتريه ضيق الصدر ، كما أن المتقين يعتريه انشراحه وانفساحه »[٢] .

ولفظ « كتاب » يكون مبتدأ إذا جعلنا « ألمص » اسما للسورة ، وإلا كان خبراً لمبتدأ محذوف والتقدير : هذا كتاب . وتنكيره للتفخيم والتعظيم وجملة « أنزل إليك » صفة له دالة على كمال تعظيم قدره وقدر من أنزل عليه .

وإنما قيل « أنزل » ولم يقل أنزله الله وأنزلناه ، للإيذان بأن المنزل مستغن عن التعريف لشرفه وغاية ظهوره .

ثم بين - سبحانه - العلة فى إنزال الكتاب فقال : « لتنذر به وذكرى للمؤمنين » .

الإنذار : هو الإعلام المقترن بالتخويف من سوء عاقبة المخالفة .

أى : أنزلنا إليك الكتاب لتنذر به قومك وسائر الناس ، وتذكر به أهل الإيمان والطاعة ذكرى نافعة مؤثرة ، لأنهم هم المستعدون لذلك ، وهم المنتفعون بإرشادك .

قال تعالى : « وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين » .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٨٦ ، طبعة دار العربى ببيروت .

(٢) تفسير الآلوسى ج ٨ ص ٧٤ منير الدمشقى .

وقال تعالى : « تبصرة وذكرى لكل عبد منيب » .

وقال تعالى : « إنما يتذكر أولوا الألباب » .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فما محل ذكرى؟ قلت يحتمل الحركات الثلاث . النصب بإضمار فعلها . كأنه قيل : لتنذر به وتذكر تذكيرا ، لأن الذكرى اسم بمعنى التذكير ، والرفع عطفا على كتاب ، أو لأنه خبر مبتدأ محذوف . والجر للعطف على محل لتنذر ، أي : الإنذار وللذكر »[1] .

ثم أمر القرآن الناس باتباع تعاليم الإسلام التي جاء بها محمد - صلى الله عليه وسلم - فقال : اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء، قليلا ما تذكرون » .

أي : اتبعوا أيها الناس ملة الإسلام وأحلوا حلاله ، وحرموا حرامه ، وامتثلوا أوامره ، واجتنبوا نواهيه ، لأن الذي أنزل عليكم هذه الشريعة هو ربكم الذي هو خالقكم ومربيكم ومدبر أموركم والعليم بما فيه مصلحتكم وحذار من أن تتركوا شريعة الإسلام التي تدعوكم إلى إفراد الله بالعبودية ، وتتخذوا معه شركاء يزينون لكم الأباطيل ، ويصرفونكم عن دينه القويم . فالآية الكريمة كلام مستأنف خوطب به كافة المكلفين لحضهم على أفراد الله بالعبودية ، ونهيهم عن إتباع أحد من الخلق فيما يتعلق بالأمور الدينية التي وضحتها الشريعة الإسلامية .

وقوله : - تعالى - « قليلا ما تذكرون ، معناه : تذكراً قليلا تتذكرون ، أو زمناً قليلا تتذكرون فهو منصوب على أنه نعت لمصدر محذوف أو لظرف زمان محذوف . وما مزيدة لتأكيد القلة .

ثم ساق لهم بعد ذلك على سبيل الإنذار والتخويف جانبا من العذاب الذي نزل بمن سبقوهم بسبب ظلمهم وعنادهم فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٨٦ .

وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أوهم قائلون . فما كان دعواهم إذا جاءهم بأسنا إلا أن قالوا إنا كنا ظالمين » .

كم هنا خبرية بمعنى كثير . وهى فى محل رفع على الابتداء والجملة بعدها خبرها ، (ومن قرية) تمييز .

والقرية تطلق على مكان اجتماع الناس . وبأسنا : أى عذابنا وعقابنا . وبياتا : أى ليلا ومنه البيت لأنه يبات فيه . يقال : بات يبيت بيتا وبياتا . وقائلون من القائلة وهى القيلولة وهى نوم نصف النهار . وقيل : هى الاستراحة نصف النهار إذا اشتد الحر وإن لم يكن معها نوم . ودعواهم ، أى : دعاؤهم واستغاثتهم بربهم أو قولهم .

والمعنى : وكثيراً من القرى الظالمة أردنا إهلاكها ، فنزل على بعضها عذابنا فى وقت نوم أهلها بالليل كما حصل لقوم لوط ، ونزل على بعضها فى وقت استراحة أهلها بالنهار كما حصـــل لقوم شعيب ، فما كان منهم عندما باغتهم العذاب فى وقت اطمئنانهم وراحتهم إلا أن اعترفوا بذنوبهم وقالوا على سبيل التحسر والندم وطمعا فى الخلاص : إنا كنا ظالمين .

فهاتان الآيتان الكريمتان توضحان بأجلى بيان أن هلاك الأمم سببه بغيها وفسادها وانحرافها عن الطريق المستقيم ، وتلك سنة الله التى لا تتخلف فى أى زمان أو مكان . وأن الظالمين عندما يفاجأون بالعقوبة يتحسرون ولا يستطيعون إنكار ما ارتكبوه من جرائم ومنكرات ولكن ذلك لن ينفعهم لأن ندمهم وتحسرهم قد فات وقته ، وكان الأجدر بهم أن يتوبوا من ذنوبهم عندما جاءتهم النذر ، وقبل حلول العذاب .

ولذا قال ابن كثير : قال ابن جرير « فى هذه الآية الدلالة الواضحة

فى صحة ما جاءت به الرواية عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ من قوله : « ماهلك قوم حتى يعذروا عن أنفسهم[١] » .

و « أو » فى قوله « فجاءها بأسنا بياتاً أو هم قائلون » للتنويع ، أى أن بعضهم جاءهم عذابنا ليلا وبعضهم جاءهم نهاراً عند استراحتهم . وإنما خص هذا الوقتان بنزول العذاب ، لأنهما وقتا غفلة ودعه واستراحة ، فيكون نزول العذاب فيهما أشد وأوجع .

ومن العبر التى نأخذها من هاتين الآيتين أن العاقل هو الذى يحافظ على أداء الأوامر واجتناب النواهى ، ولا يأمن صفو الليالى ، ورخاء الأيام ، بل يعيش حياته وصلته بربه مبنية على الخوف والرجاء فإنه « لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » .

وبعد أن بين القرآن ما أصاب الظالمين من عذاب دنيوى . عقبه ببيان ما سيحل بهم من عذاب أخروى ، فقال :

« فلنسألن الذين أرسل إليهم ولنسألن المرسلين : فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين » .

والمراد بالذين أرسل إليهم جميع الأمم التى بلغتها دعوة الرسل ، يسأل كل فرد منها عن رسوله إليه وعن تبليغه لدعوة الله ، ويسأل المرسلون عن التبليغ منهم وعن إجابة أقوامهم لهم ، وقد ورد ذلك فى كثير من آيات القرآن . قال ــ تعالى ــ : « يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم ؟ قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب » .

وقال تعالى : « ويوم يناديهم فيقول ماذا اجبتم المرسلين » ؟

والمعنى : فلنسألن المرسل إليهم عما أجابوا به رسلهم الذين جاءوا لهدايتهم ، ولنسألن المرسلين عما أجيبوا به من أقوامهم وعن تبليغهم لرسالات

(١) تفسير ابن كثير حـ ٢ ص ٢٠١

الله ، ولنقصن على الرسل والمرسل إليهم كل ما وقع منهم عن علم دقيق وإحصاء شامل ، لأننا لا يغيب عنا شيء من أحوالهم .

وعطفت جملة « فلنسألن ... » على ما قبلها بالفاء ، لأن هذا السؤال سيكون في الآخرة ، وما ذكر قبل ذلك من عقوبات دو آخر أمرهم في الدنيا . فالآية الكريمة بيان لعذابهم الأخروي إثر بيان عذابهم الدنيوي .

وأكد الخبر بلام القسم ونون التوكيد ، لأن المخاطبين كانوا ينكرون البعث والجزاء .

فإن قيل : قد أخبر الله عنهم قبل ذلك أنهم قالوا عند نزول العذاب بهم « إنا كنا ظالمين » فلماذا يسألون يوم القيامة مع أنهم اعترفوا بظلمهم في الدنيا ؟

فالجواب : أنهم لما اعترفوا سئلوا بعد ذلك عن سبب هذا الظلم ، والمقصود من هذا السؤال تقريعهم وتوبيخهم لكفرهم وعنادهم .

فإن قيل : فما فائدة سؤال الرسل مع العلم بأنهم قد بلغوا الأمانة ونصحوا للأمة ؟

فالجواب من فوائده الرد على من أنكر من المشركين أن الرسل قد بلغوهم ، فقد حكى القرآن أن بعضهم قال : « ما جاءنا من بشير ولا نذير » ومن فوائده — أيضا — مضاعفة الثواب لهؤلاء الرسل الكرام حيث إنهم قد بذلوا قصارى جهدهم في التبشير والإنذار ، ولم يصدر عنهم تقصير قط . فسؤال المرسل إليهم إنما هو سؤال توبيخ وإفضاح ، وسؤال المرسلين إنما هو سؤال استشهاد بهم وإفصاح .

فإن قيل : هناك بعض الآيات تثبت أن المجرمين لن يسألوا يوم القيامة كما في قوله تعالى : « ولا يسأل عن ذنوبهم المجرمون » وكما في قوله تعالى « فيومئذ لا يسأل عن ذنبه إنس ولا جان » فكيف نجمع بين هذه الآيات التي تنفي السؤال والآيات التي تثبته كما في قوله « فلنسألن الذين أرسل إليهم ... » ؟

فالجواب ، أن فى يوم القيامة مواقف متعددة ، فقد يسألون فى موقف الحساب ولا يسألون فى موقف العقاب . أو أن المراد بالسؤال فى قوله «فلنسألن الذين . . » التوبيخ والتقريع . والمنفى فى قوله «فيومئذ لا يسأل عن ذنبه . . . » سؤال الاستعلام ، أى أن المذنب لا يسأل يوم القيامة هل أذنبت أولا ، لأن الله لا تخفى عليه خافية ، وإنما يسأل: لم فعلت كذا ؟ بعد أن يعرفه — سبحانه — بما فعله ، ويؤيد هذا القول قوله — تعالى — «فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين» أى : فلنخبرنهم بما فعلوا إخبارا ناشئا عن علم منا .

قال بعض العلماء : «والذى يهمنا هنا ، أن نقرر أن هذا السؤال لم يكن سؤال استفهام ولا استخبار ، وإنما هو سؤال تبكيت وتنديد ، فليس فى السائل مظنة أن يجهل ، ولا فى المسئول مظنة أن ينكر : ، وهو تصوير لما يكون من شعور المكذبين بتكذيبهم ، وشعور المرسلين بتبليغهم ، وهو نوع من تسجيل الحجة على من أنكرها وأعرض عنها فى الوقت الذى كان يجديه الإقبال عليها والإيمان بها ، وهو نوع من زيادة الحسرة ، وقطع الآمال فى النجاة بوضع يد المجرم على جسم جريمته ، وهو فى الوقت نفسه نوع من زيادة الأمن والطمأنينة للرسل فى القيام بدعوتهم وتبليغهم ما أمروا بتبليغه ، ولعل كل ذلك يرشد إليه قوله — تعالى — «فلنقصن عليهم بعلم وما كنا غائبين»[1] .

ثم بين — سبحانه — مظاهر عدله مع عباده يوم القيامة فقال :

«والوزن يومئذ الحق ، فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم بما كانوا بآياتنا يظلمون» .

الوزن : عمل يعرف به قدر الشىء ، يقال : وزنته وزنا وزنة . وهو

---

(١) تفسير القرآن الكريم ص ٢٠٤ لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت — رحمه الله — .

مبتدأ ، ويومئذ متعلق بمحذوف خبره . والحق صفته . أى : والوزن الحق يوم القيامة .

ومعنى الآيتين الكريمتين : والوزن الحق ثابت فى ذلك اليوم الذى يسأل الله فيه الرسل والمرسل إليهم . ويخبرهم جميعا بما كان منهم فى الدنيا ، فمن رجحت موازين أعماله بالإيمان والعمل الصالح ، فأولئك هم الفائزون بالثواب والنعيم ، ومن خفت موازين أعماله بالكفر والمعاصى فأولئك الذين خسروا أنفسهم بسبب ما اقترفوا من سيئات أدت بهم إلى سوء العقاب .

قال تعالى : « ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا ، وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين » .

وقد اختلف العلماء فى كيفية الوزن فقال بعضهم : إن التى توزن هى صحائف الأعمال التى كتبت فيها الحسنات والسيئات تأكيداً للحجة وإظهاراً للنصفة ، وقطعاً للمعذرة . قال ابن عمر : « توزن صحائف أعمال العباد يوم القيامة » .

وقيل : إن الوزن هنا كناية عن القضاء السوى ، والعدل التام فى تقدير ما يمكن به الجزاء من الأعمال ، وذكر الوزن إنما هو ضرب مثل كما تقول : هذا الكلام فى وزن هذا وفى وزانه . أى يعادله ويساويه وإن لم يكن هناك وزن .

والذى نراه أن من الواجب علينا أن نؤمن بأن فى الآخرة وزنا للأعمال ، وأنه على مقدار ما يظهر يكون الجزاء ، وأنه وزن أو ميزان يليق بما يجرى فى ذلك اليوم الهائل الشديد ، أما كيفية هذا الوزن فرده إلى الله ، لأنه شىء استأثر الله بعلمه ، وعلينا أن نعفى أنفسنا من محاولة الكشف عن أمر غيبى لم يرد فى حقيقته خبر قاطع فى كتاب الله أو سنة رسوله .

قال الجمل فى حاشيته على الجلالين : ... فإن قلت : أليس الله — تعالى — يعلم مقادير أعمال العباد ، فما الحكمة فى وزنها ؟ قلت فيه حكم : منها ، إظهار

العدل وأن الله — تعالى — لايظلم عباده، ومنها : امتحان الخلق بالإيمان بذلك فى الدنيا وإقامة الحجة عليهم فى العقبى. ومنها تعريف العباد بما لهم من خير أو شر وحسنة أو سيئة، ومنها إظهار علامة السعادة والشقاوة ونظيره أنه — سبحانه — أثبت أعمال العباد فى اللوح المحفوظ وفى صحائف الحفظة الموكلين ببنى آدم من غير جواز النسيان عليه »[1].

وقوله — تعالى — « . . . فمن ثقلت موازينه » تفصيل للأحكام المترتبة على الوزن، وثقل الموازين المراد به رجحان الأعمال الحسنة على غيرها، كما أن خفة الموازين المراد بها رجحان الأعمال القبيحة على ماسواها .

وقوله — تعالى — « بما كانوا بآياتنا يظلمون » متعلق بخسروا ؛ أى : أن خسرانهم لأنفسهم فى الآخرة كان سببه جحودهم لآيات الله واستهزاءهم بها فى الدنيا .

ثم حكى القرآن جانباً من مظاهر نعم الله على خلقه فقال — تعالى — :

« ولَقَدْ مَكَّنَّاكُم فى الأرضِ وجَعَلنا لَكُم فِيها مَعَايِشَ، قَليلاً ما تَشْكُرُونَ (١٠) ولقَدْ خَلَقْنَاكُم ثُمَّ صَوَّرْنَاكُم ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدوا إلاَّ إبلِيسَ لَمْ يَكُن مِنَ السَّاجِدِينَ (١١) ».

مكناكم : من التمكين بمعنى التمليك أو معناه . جعلنا لكم فيها مكانا وقراراً وأقدرناكم على التصرف فيها ومعايش : جمع معيشة وهى مايعاش به من المطاعم والمشارب وماتكون به الحياة .

والمعنى : ولقد جعلنا لكم — يابنى آدم — مكانا وقرارا فى الأرض،

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ١٢٢ .

وأقدرناكم على التصرف فيها ، وأنشأنا لكم فيها أنواعا شتى من المطاعم والمشارب التي تتعايشون بها عيشة راضية ، ولكن كثيراً منكم لم يقابلو هذه النعم بالشكر ، بل قابلوها بالجحود والكفران . وفضلا عن ذلك فنحن الذين خلقنا أباكم آدم من طين غير مصور ، ثم صورناه بعد ذلك .

أو المعنى نحن الذين خلقناكم فى ظهر آدم . ثم صورناكم حين أخذ عليكم الميثاق ، ثم أمرنا بعد ذلك ملائكتنا بالسجود لآدم فسجدوا إلا إبليس فإنه لم يكن من الساجدين .

والسجود : لغة ، التذلل والخضوع مع انخفاض بانحناء وغيره ، وخص فى الشرع بوضع الجبهة على الأرض بقصد العبادة .

وللعلماء أقوال فى كيفية السجود الذى أمر الله به الملائكة لآدم وأرجح هذه الأقوال . أن السجود المأمور به فى الآية يحمل على المعنى المعروف فى اللغة . أى : أن الله - تعالى - أمرهم بفعل تجاه آدم يكون مظهراً من مظاهر التواضع والخضوع له تحية وتعظيما ، وإقراراً له بالفضل دون وضع الجبهة على الأرض الذى هو عبادة ، إذ عبادة غير الله شرك يتنزه الملائكة عنه، وعلى هذا الرأى سار علماء أهل السنة .

وقيل إن السجود كان لله . وآدم إنما كان كالقبلة يتوجه إليه الساجدون تحية له . وإلى هذا الرأى اتجه علماء المعتزلة ، وقد قالوا ذلك هربا من أن تكون الآية الكريمة حجة عليهم ، إذ أن أهل السنة قالوا : إبليس من الملائكة والصالحون من البشر أفضل من الملائكة . واحتجوا بسجود الملائكة لآدم وخالفت المعتزلة فى ذلك ، وقالت الملائكة أفضل من البشر ، وسجود الملائكة لآدم كان كالقبلة .

والذى نراه أن ما سار عليه أهل السنة أرجح لأن ما ذهب إليه المعتز يبعده أن المقام مقام لإظهار فضل ادم على الملائكة ، وإظهار فضله عليهم

لا يتحقق بمجرد كونه قبلة للسجود : وأمر الله الملائكة بالسجود لآدم ، هو لون من الابتلاء والاختبار ، ليميز الله الخبيث من الطيب ، وينفذ ما سبق به العلم واقتضته المشيئة والحكم .

وإبليس : اسم مشتق من الإبلاس ، وهو الحزن الناشيء عن شدة اليأس وفعله بلس . والراجح أنه اسم أعجمي ، ومنعه من الصرف للعلمية والعجمة وهو كائن حي ، وقد أخطأ من حمله على معنى داعي الشر الذي يخطر في النفوس ، إذ ليس من المعقول أن يكون ذلك مع أن القرآن أخبرنا بأنه يرى الناس ولا يرونه . قال — تعالى — « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم » .

وللعلماء في كون إبليس من الملائكة أولا قولان : أحدهما أنه كان منهم ، لأنه — سبحانه — أمرهم بالسجود لآدم ، ولولا أنه كان منهم لما توجه إليه الأمر بالسجود ، ولو لم يتوجه إليه الأمر بالسجود لم يكن عاصياً ولما استحق الخزي والنكال ، ولأن الأصل في المستثنى أن يكون داخلا تحت اسم المستثنى منه حتى يقوم دليل على أنه خارج عنه .

والثاني : أنه ليس منهم لقوله — تعالى — « إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » ، فهو أصل الجن ، كما أن آدم أصل الإنس ، ولأنه خلق من نار ، والملائكة خلقوا من نور ، ولأن له ذرية ولا ذرية للملائكة .

ففي هاتين الآيتين بيان لنعمتين عظيمتين من نعم الله على عباده : أولاهما : نعمة التمكين في الأرض واتخاذهم إياها وطنا مزوداً بضروب شتى مما يحتاجون إليه في معايشهم وما به قوام حياتهم وكمالها ، وثانيهما : نعمة خلقهم من أب واحد ، تجمعهم به رحم واحدة ، وبسببها كانوا خلفاء في الأرض وفي عمارة الكون ، وفضلوا على كثير من الخلق ، فكان الواجب عليهم أن يقابلوهما بالشكر والإيمان .

ثم حكى القرآن الكريم الأسباب التى حملت إبليس على عدم السجود لآدم فقال :

« قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلاَّ تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ ، قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ (١٢) » .

أى : قال الله — تعالى — لإبليس : ما ألزمك واضطرك إلى أن لاتسجد لآدم ؟ فالمنع مجاز عن الإلجاء والاضطرار . أو ما حملك ودعاك إلى ألا تسجد ؟ فالمنع مجاز عن الحمل . والاستفهام للتوبيخ والتقريع .

و« لا » فى قوله « ألا تسجد » مزيدة للتنبيه على أن الموبخ عليه ترك السجود . وتوكيد لمعنى الفعل الذى دخلت عليه وتحقيقه ، كأنه قيل : مامنعك أن تحقق السجود وتلزمه نفسك.

وقد حكى القرآن ما أجاب به إبليس فقال : « قال أنا خير منه خلقتنى من نار وخلقته من طين » أى : قال إبليس أنا خير من آدم ، لأنى مخلوق من عنصر النار الذى هو أشرف من عنصر الطين ، والأشرف لايليق به الانقياد لمن هو دونه ،

قال ابن كثير : « وقول إبليس — لعنه الله — « أنا خير منه .. إلخ من العذر الذى هو أكبر من الذنب ، إذ بين بأنه خير من آدم لأنه خلق من النار وآدم خلق من الطين ، فنظر اللعين إلى أصل العنصر ولم ينظر إلى التشريف العظيم ، وهو أن الله — تعالى — خلق آدم بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وقاس قياساً فاسداً فى مقابلة نص ، وهو قوله — تعالى — «فقعوا له ساجدين » فشذ من بين الملائكة لترك السجود فأبعده الله عن رحمته ، وكان قياسه فاسداً لأن النار ليست أشرف من الطين ، فإن الطين من شأنه الرزانة والأناة والتثبت ، وهو محل النبات والنمو والزيادة والإصلاح ، والنار من شأنها

الإحراق والطيش والسرعة ، ولهذا خان إبليس عنصره ، ونفع آدم عنصره بالرجوع والإنابه والاستكانة والانقياد والاستسلام لأمر الله . وفى صحيح مسلم عن عائشة قالت :

« قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — « خلقت الملائكة من نور ، وخلق إبليس من مارج من نار ، وخلق آدم مما وصف لكم »[1] .

وقد حكى القرآن ما رد الله به على إبليس بقوله :

« قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَنْ تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ (١٣) » .

أى : قال الله — تعالى — لإبليس فاهبط من الجنة بسبب عصيانك لأمرى وخروجك عن طاعتى .

وقيل إن الضمير فى « منها » يعود على المنزلة التى كان فيها قبل أن يطرده الله من رحمته . أى : فاهبط من رتبة الملكية التى كنت فيها إلى رتبة العناصر الشريرة .

وقيل : إن الضمير يعود على روضة كانت على مرتفع من الأرض خلق فيها آدم — عليه السلام — .

وقوله : « فما يكون لك أن تتكبر فيها » معناه : فما يصح ولا يستقيم ولا يليق بشأنك أن تتكبر فيها ، لأنها ليست مكانا للمتكبرين وإنما هى مكان للمطيعين الخاشعين المتواضعين .

وقوله « فاخرج » تأكيد للأمر بالهبوط ومتفرع عليه .

وقوله : « إنك من الصاغرين » تعليل للأمر بالخروج . أى : فاخرج منها فأنت من أهل الصغار والهوان على الله وعلى أوليائه لتكبرك وغرورك .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٠٣ بتصرف وتلخيص .

ثم حكى القرآن ماطلبه إبليس من الله ـ تعالى ـ وما أجاب الله به عليه

« قَالَ أَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٤) قَالَ إِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (١٥) قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ (١٦) ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ (١٧) قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَكَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنْكُمْ أَجْمَعِينَ (١٨) » .

أى : قال إبليس لله ـ تعالى ـ أخـرنى ولا تمتنى إلى يوم بعث آدم وذريته من القبور ، وهو وقت النفخة الثانية عند قيام الساعة . وقد أراد بذلك النجاة من الموت : إذ لاموت بعد البعث . كما أراد بذلك أن يجد فسحة من الإغواء لبنى آدم .

وقوله : « أنظرنى » مأخوذ من الإنظار بمعنى الإمهال والتأخير . تقول أنظرته بحق أنظره إنظارا أى : أمهلته .

وقوله : « قال إنك من المنظرين » معناه : قال الله ـ تعالى ـ له : إنك من المؤخرين إلى يوم الوقت المعلوم كما جاء ذلك فى قوله ـ تعالى ـ « قال رب فأنظرنى إلى يوم يبعثون . قال فإنك من المنظرين . إلى يوم الوقت المعلوم » وهو ـ على الراجح ـ وقت النفخة الأولى فيموت كما يموت غيره . وقيل : المراد به الوقت المعلوم فى علم الله أنه يموت فيه .

قال ابن كثير : أجابه الله ـ تعالى ـ إلى ما سأل . لما له فى ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التى لاتخالف ولاتمانع ولامعقب لحكمه وهو سريع الحساب .

ثم حكى القرآن ماتوعد به إبليس آدم وذريته من كيد وأذى فقال : « قال فبما أغويتنى لأقعدن لهم صراطك المستقيم . . . »

الباء للقسم أو للسببية أي : فأقسم بإغوائك إياى ، أو بسبب إغوائك إياى ، لأترصدن لآدم وبنيه على طريق الحق وسبيل النجاة ، كما يترصد قطاع الطرق للسائرين فيها فأصدنهم عنها وأحاول بكل السبل أن أصرفهم عن صراطك المستقيم ، وان أتكاسل عن العمل على إفسادهم وإضلالهم .

والإغواء : خلق الغى بمعنى الضلال . وأصل الغى الفساد ، ومنه غوى الفصيل - كرضى - غوى ، إذا بشم من اللبن ففسدت معدته ، أو منع الرضاع فهزل وكاد يهلك ، ثم استعمل فى الضلال ، يقال : غوى يغوى غياً وغواية فهو غاو وغوى إذا وضل . وأغواه غيره : أضله .

وقوله « ثم لآتينهم من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم » زيادة بيان لحرص الشيطان على إضلال بنى آدم بشتى الوسائل ، أى : آتيهم من الجهات الأربع التى إعتاد العدو أن يهاجم عدوه منها . والمراد لأسولن لهم ولأضلنهم بحيث لا أفتر عن ذلك ولا أيأس .

وقيل إن معنى « ثم لآتينهم ومن بين أيديهم » أى : من قبل الآخرة لأنها مستقبلة آتية ، وما هو كذلك فكأنه بين الأيدى . « ومن خلفهم » أى من قبل الدنيا لأنها ماضية بالنسبة إلى الاخرة ولأنها فانية متروكة «وعن أيمانهم وعن شمائلهم » أى : من جهة حسناتهم وسيئاتهم بحيث أزين لهم السيئات وأزهدهم فى الحسنات .

وقوله « ولا تجد أكثرهم شاكرين » أى : مطيعين مستعملين لقوامهم وجوارحهم وما أنعم الله به عليهم فى طريق الطاعة والتقرب إلى الله .

وإنما قال ذلك لما رآه من الأمارات على طريق الظن كقوله — تعالى — : « ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه الا فريقاً من المؤمنين » .

ولقد وردت آيات كثيرة وأحاديث متعددة فى التحذير من الشيطان وكيده ، ومن ذلك قوله — تعالى — : « ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً

إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » . وجاء فى الحديث الشريف الذى رواه الإمام أحمد عن سبرة بن الفاكه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم — يقول — : ان الشيطان قعد لابن آدم بأطرقه ، فقعد له بطريق الإسلام، فقال : أتسلم وتذر دينك ودين آبائك وآباء أبيك ؟ قال : فعصاه فأسلم . ثم قعد له بطريق الهجرة فقال : أتهاجر وتدع أرضك وسماءك وإنما مثل المهاجر كالفرس فى الطول — أى كالفرس المربوطة بالحبل — قال : فعصاه فهاجر . قال : ثم قعد له بطريق الجهاد فقال له : هو جهاد النفس والمال . فتقاتل فتقتل فتنكح المرأة ويقسم المال ؟ قال فعصاه فجاهد : فقال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فمن فعل ذلك منهم فمات ، كان حقا على الله أن يدخله الجنة ، أو قتل كان حقا على الله أن يدخله الجنة ، وان غرق كان حقا على الله أن يدخله الجنة ، أو وقصته دابة كان حقا على الله أن يدخله الجنة » .

وروى الإمام أحمد وأبو داود والنسائى وغيرهم عن عبدالله بن عمر قال لم يكن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — يترك هؤلاء الدعوات حين يصبح وحين يمسى . يقول . اللهم انى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى . اللهم استر عورتى وآمن روعاتى . اللهم احفظنى من بين يدى ومن خلفى وعن يمينى وعن شمالى ومن فوقى ، وأعوذ بعظمتك ان اغتال من تحتى .

ثم حكى القرآن ماتوعد الله به الشيطان واتباعه فقال : «قال اخرج منها مذءوما » أى . اخرج من الجنة او من تلك الروضة مهانا محقرا .

يقال . ذأمه يذامه ذأماً اذا عاقبه وحقره فهو مذءوم ، وقوله . «مدحورا» أى . مطرودا مبعدا . يقال . دحره دحرا ودحورا طرده وأبعده .

« لمن تبعك منهم لاملأن جهنم منكم أجمعين » أى . لمن أطاعك من الجن والإنس لأملأن جهنم من كفاركم . كقوله — تعالى — « قال اذهب فمن تبعك منهم فان جهنم جزاؤكم جزاء موفورا » .

واللام فى قوله (لمن) لتوطئة القسم والجواب (لأملأن جهنم منكم أجمعين) ثم حكى القرآن ما أمر الله ـ تعالى ـ به آدم فقال .

« وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ (١٩) » .

صدر الكلام بالنداء للتنبيه على الاهتمام بالمأمور به ، وتخصيص الخطاب بآدم ـ عليه السلام ـ الإيذان بأصالته بالتلقى وتعاطى المأمور به .

وقوله (اسكن) من السكنى وهو اللبث والاقامة والاستقرار ، دون السكون الذى هو ضد الحركة .

والزوج . يطلق على الرجل والمرأة . والمراد به هنا حواء ،حيث تقول العرب للمرأة زوج ولا تكاد تقول زوجة .

والجنة . هى كل بستان ذى شجر متكاثف ملتف الأغصان ، يظلل ماتحته ويستره من الجن وهو ستر الشىء عن الحواس .

وجمهور أهل السنة على أن المراد بها هنا دار الثواب التى اعدها الله للمؤمنين يوم القيامة ، لأن هذا هو المتبادر الى الذهن عند الاطلاق .

ويرى جمهور علماء المعتزلة ان المراد بها هنا بستان بمكان مرتفع من الأرض ، خلقه الله لاسكان آدم وزوجته . واختلفوا فى مكانه ، فقيل انه بفلسطين ، وقيل بغيرها .

وقد ساق ابن القيم فى كتابه « حادى الأرواح » أدلة الفريقين دون ان يرجح شيئا منها .

والذى نراه ان الأحوط والأسلم « الكف عن تعيينها وعن القطع به ، واليه ذهب ابو حنيفة وابو منصور الماتريدى فى التأويلات ، إذ ليس لهذه المسألة تأثير فى العقيدة .

وتوجيه الخطاب اليهما فى قوله (فكلا من حيث شئتما لتعميم التشريف والايذان بتساويهما فى مباشرة المأمور به . أى . كلا من مطاعم الجنة وثمارها أكلا واسعا من أى مكان أردتم .

ثم بين ـ سبحانه ـ أنه نهاهم عن الأكل من شجرة معينة فقال :ـ « ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين ».

القرب : الدنو والمنهى عنه هو الأكل من ثمار الشجرة . وتعليق النهى على القرب منها القصد منه المبالغة فى النهى عن الأكل ، إذ فى النهى عن القرب من الشيء نهى عن فعله من باب أولى . وأكد النهى بأن جعل عدم اجتناب الأكل من الشجرة ظلما . فقال « فتكونا من الظالمين » وقد ظلما أنفسهما إذ أكلا منها ، فقد ترتب على أكلهما منها أن أخرجا من الجنة التى كانا يعيشان فيها عيشة راضية.

وقد تكلم العلماء كثيرا عن إسم هذه الشجرة ونوعها فقيل هى التينة ، وقيل هى السنبلة ، وقيل هى الكرمة . . . ألخ الا أن القرآن لم يذكر نوعها على عادته فى عدم التعرض لذكر ما لم يدع المقصود من سياق القصة الى بيانه .

وقد أحسن ابن جرير فى التعبير عن هذا المعنى فقال: « والصواب فى ذلك ان يقال : ان الله ـ تعالى ـ نهى آدم وزوجه عن الأكل عن شجرة بعينها من أشجار الجنه دون سائر اشجارها فأكلا منها ، ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين ، لأن الله لم يضع لعبادة دليلا على ذلك فى القرآن ولا من السنة الصحيحة ، وقد قيل كانت شجرة البر ، وقيل شجرة العنب ، وذلك علم إذا علم لم ينفع العالم به علمه ، وان جهله جاهل لم يضره جهله به »(١)

ثم بين القرآن بعد ذلك ما وقع فيه آدم من خطأ فقال :

« فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِنْ سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَنْ تَكُونَا

(١) تفسير ابن جرير جـ ١ ص ٥٢١

مَلَكَيْنِ أو تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ (٢٠) وَقَاسَمَهُما إِنِّى لَكُمَا لَمِن النَّاصِحِينَ (٢١) فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ ونَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ (٢٢) قَالاَ رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (٢٣) قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ، وَلَكُمْ فِى الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ (٢٤) قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وفِيهَا تَمُوتُونَ ومِنْهَا تُخْرَجُونَ (٢٥) » .

قوله — تعالى — « فوسوس لهما الشيطان » أى : ألقى إليهما إبليس الوسوسة ، والوسوسة فى الأصل الصوت الخفى ، ومنه قيل لصوت الحلى . وسواس . والمراد بها هنا : الحديث الخفى الذى يلقيه الشيطان فى قلب الإنسان ليقارف الذنب .

وقوله « ليبدى لهما ماوورى عنهما من سوءاتهما » . « وورى » من المواراة وهى الستر . والسوءة . فرج الرجل والمرأة ، من السوء . وسميت بذلك ، لأن انكشافها يسوء صاحبها . وقيل الكلام كناية عن إزالة الحرمة وإسقاط الجاه .

والمعنى : أن إبليس وسوس إلى آدم وحواء بأن يأكلا من الشجرة المحرمة لتكون عاقبة ذلك أن يظهر لهما ماستر عنهما من عوراتهما ، وكانا لايريانها من أنفسهما ولا أحدهما من الآخر . وفى هذا التعبير تصريح بأن كشف العورة من أقبح الفواحش التى نهى الله — تعالى — عنها .

وقد حكى القرآن أن إبليس لم يكتف بالوسوسة ، وإنما خدعهما بقوله :

« ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين » .

أى قال لهما : ما نهاكما ربكما عن الأكل من هذه الشجرة إلا كراهية أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين الذين لا يموتون ويبقون فى الجنة ساكنين .

وقوله : « إلا أن تكونا ملكين » استثناء مفرغ من المفعول لأجله بتقدير مضاف أو حذف حرف النفى ليكون علة . أى كراهية أن تكونا ملكين .

ثم حكى القرآن أن إبليس لم يكتف بالوسوسة أو بالقول المجرد، وإنما أضاف إلى ذلك القسم المؤكد فقال : « وقاسمهما إنى لكما لمن الناصحين » أى : أقسم لهما بالله إنه لهما لمن الناصحين المخلصين الذين يسعون لما فيه منفعتهما .

قال الآلوسى : إنما عبر بصيغة المفاعلة للمبالغة ، لأن من يبارى أحداً فى فعل يجد فيه . وقيل المفاعلة على بابها ، والقسم وقع من الجانبين ، لكنه اختلف متعلقه ، فهو أقسم لهما على النصح وهما أقسما له على القبول[1] .

ثم حكى القرآن كيف نجح إبليس فى خداع آدم وحواء فقال : « فدلاهما بغرور » . أى : فأنزلهما عن رتبة الطاعة إلى رتبة المعصية ، وأطمعهما فى غير مطمع بسبب ما غرهما به من القسم .

ودلاهما مأخوذ من التدلية ، وأصله أن الرجل العطشان يدلى فى البئر بدلوه ليشرب من مائها، فإذا ما أخرج الدلو لم يجد به ماء، فيكون مدليا فيها بغرور. والغرور إظهار النصح مع إبطال الغش ، وأصله من غررت فلانا أى أصبت غرته وغفلته ونلت منه ما أريد .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٨ ص ١٠٠

ثم بين القرآن الآثار التي ترتبت على هذه الخديعة من إبليس لهما فقال : «فلما ذاقا الشجرة بدت لهما سوءاتهما وطفقا يخصفان عليهما من ورق الجنة» .

أي : فلما خالفا أمر الله ـ تعالى ـ بأن أكلا من الشجرة التي نهاهما الله عن الأكل منها ، أخذتهما العقوبة وشؤم المعصية ، فتساقط عنهما لباسهما ، وظهرت لهما عوراتهما . وشرعا يلزقان من ورق الجنة ورقة فوق أخرى على عوراتهما لسترها .

ويخصفان : مأخوذ من الخصف ، وهو خرز طاقات النعل ونحوه بإلصاق بعضها ببعض ، وفعله من باب ضرب .

قال بعض العلماء : « ولعل المعنى ـ والله أعلم ـ أنهما لما ذاقا الشجرة وقد نهيا عن الأكل منها ظهر لهما أنهما قد زلا ، وخلعا ثوب الطاعة ، وبدت منهما سوأة المعصية ، فاستحوذ عليهما الخوف والحياء من ربهما ، فأخذا يفعلان ما يفعل الخائف الخجل عادة من الاستتار والاستخفاء حتى لا يرى ، وذلك بخصف أوراق الجنة عليهما ليستترا بها ، وما لهما إذ ذاك حيلة سوى ذلك . فلما سمعا النداء الرباني بتقريعهما ولوم ربهما ألهما أن يتوبا إلى الله ويستغفرا من ذنبهما بكلمات من فيض الرحمة الإلهية ، فتاب الله عليهما وهو التواب الرحيم ، وقال لهما فقط أو لهما ولذريتهما ، أو لهما ولإبليس : اهبطوا من الجنة إلى الأرض ، لينفذ ما أراد الله من استخلاف آدم وذريته في الأرض ، وعمارة الدنيا بهم إلى الأجل المسمى . ومنازعة عدوهم لهم فيها ، والله بالغ أمره ، قد جعل الله لكل شيء قدرا »(١) .

ثم بين القرآن ما قاله الله ـ تعالى ـ لهما بعد أن خالفا أمره . فقال : « وناداهما ربهما » بطريق العتاب والتوبيخ « ألم أنهكما عن تلكما الشجرة » .

---

(١) صفوة البيان لمعاني القرآن ص٢٥٥ . لفضيلة الأستاذ الشيخ حسنين محمد مخلوف .

أى عن الأكل منها ، وأقل لكما إن الشيطان لكما عدو مبين » أى : ظاهر العداوة لايفتر عن إيذائكما وإيقاع الشر بكما .

وهنا التمس آدم وحواء من ربهما الصفح والمغفرة « قالا ربنا ظلمنا أنفسنا » أى : أضررناها بالمعصية والمخالفة « وإن لم تغفر لنا » ما سلف من ذنوبنا « وترحمنا » بقبول توبتنا « لنكونن من الخاسرين » أى : لنصيرن من الذين خسروا أنفسهم فى الدنيا والآخرة » .

وقد حكى القرآن مارد الله به على آدم وحواء وإبليس ، فقال : قال اهبطوا » أى من الجنة إلى ما عداها . وقيل الخطاب لآدم وحواء وذريتهما . وقيل الخطاب لهما فقط لقوله ـ سبحانه ـ فى آية أخرى « قال اهبطا منها جميعا » والقصة واحدة ، وضمير الجمع لكونهما أصل البشر .

وجملة « بعضكم لبعض عدو » فى موضع الحال من فاعل اهبطوا . والمعنى اهبطوا إلى الأرض حالة كون العداوة لاتنفك بين آدم وذريته ، وبين إبليس وشيعته « ولكم فى الأرض مستقر » أى موضع استقرار « ومتاع » أى : تمتع ومعيشة « إلى حين » أى : إلى حين انقضاء آجالكم .

« قال فيها » أى فى الأرض « تحيون » تعيشون « وفيها تموتون ومنها تخرجون » أى : يوم القيامة للجزاء ، كما فى قوله ـ تعالى ـ « منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى » .

وبعد أن قص القرآن على بنى آدم قصة خلقهم وتصويرهم وما جرى بين أبيهم وبين إبليس ، وكيف أن إبليس قد خدع آدم وزوجه خداعا ترتب عليه إخراجهما من الجنة . . . بعد كل ذلك أورد القرآن أربع نداءات لبنى آدم حضهم فيها على تقوى الله وحذرهم من وسوسة الشيطان وذكرهم بنعمه عليهم ، فقال فى النداء الأول :

« يَا بَنِي آدمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاساً يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشاً ، ولِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ، ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٢٦) » .

السوءة : العورة . والريش : لباس الزينة . استعير من ريش الطائر، لأنه لباسه وزينته. وقال الجوهري: الريش والرياش بمعنى كاللبس واللباس، وهو اللباس الفاخر .

والمعنى : يابني آدم تذكروا واعتبروا واشكروا الله على ماحباكم من نعم ، فإنه ـ سبحانه ـ قد هيأ لكم سبيل الحصول على الملبس الذي تسترون به عوراتكم ، وتتزينون به في مناسبات التجمل والتعبد .

والمراد بإنزال ماذكر أنه خلق لبني آدم مادة هذا اللباس التي تتكون من القطن والصوف والحرير وما إليها ، وألهمهم بما خلق فيهم من غرائز طرق استنباتها وصناعتها بالغزل والنسج والخياطة .

والتعبير بأنزلنا يفيد خصوصية البشر باللباس الذي يستر العورة، وبالرياش التي يتزينون بها ، أي أنزلنا عليكم لباسين : لباسا يواري سوآتكم، ولباسا يزينكم ، لأن الزينة غرض صحيح وحبها من طبيعة البشر . قال ـ تعالى ـ : « والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة » .

قال الجمل : « وقوله ـ تعالى ـ « وريشا » يحتمل أن يكون من باب عطف الصفات . والمعنى : أنه وصف اللباس بوصفين : موارة السوأة، والزينة . ويحتمل أن يكون من باب عطف الشيء على غيره . أي : أنزلنا عليكم لباسا موصوفا بالمواراة ، ولباسا موصوفا بالزينة »(١).

ثم بين ـ سبحانه ـ أن هناك لباسا آخر أفضل وأكمل من كل ذلك

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ١٣٢ .

فقال : « ولباس التقوى ذلك خير » أى : أن اللباس الذى يصون النفس من الدنايا والأرجاس ، ويسترها بالإيمان والعمل الصالح هو خير من كل لباس حسى يتزين به البشر . فاسم الإشارة هنا يعود على لباس التقوى . وقد عبر القرآن هنا عن التقوى بأنها لباس ، وعـــبر عنها فى موضع آخر بأنها زاد ، مشاكلة للسياق الذى وردت فيه هنا أو هناك . وذلك من باب تجسيم المعنويات وتنسيقها مع الجو العام الذى وردت فيه ، وتلك طريقة انفرد بها القرآن الكريم .

قال صاحب الكشاف : وقوله : « ولباس التقوى » مبتدأ ، وخبره إما الجملة التى هى « ذلك خير » كأنه قيل : ولباس التقوى هى خير ؛ لأن أسماء الإشارة تقرب من الضمائر فيما يرجع إلى عود الذكر . وإما المفرد الذى هو خير ، وذلك صفة للمبتدأ ، كأنه قيل : ولباس التقوى المشار إليه خير »[1].

وقوله — تعالى — « ذلك من آيات الله لعلهم يذكرون » معناه : ذلك الذى أنزله الله على بنى آدم من النعم من دلائل قدرته وإحسانه عليهم ، لعلهم بعد ذلك لا يعودون إلى النسيان الذى أوقع أبويهم فى المعصية .

قال صاحب الكشاف : وهذه الآية واردة على سبيل الاستطراد عقب ذكر ظهور العورات وخصف الورق عليها ، إظهارا للمنة فيما خلق من اللباس ، ولما فى العرى وكشف العورة من المهانة والفضيحة ، وإشعاراً بأن الستر باب عظيم من أبواب التقوى[2] .

ثم أتبع القرآن النداء الأول بنداء آخر مبالغة فى وعظ بنى آدم وتذكيرهم بفضل الله عليهم ، فقال — تعالى — :

« يَا بَنِي آدمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءاتِهِما ، إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ

(١، ٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٩٧ :

وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ ، إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ (٢٧) » .

والمعنى : يابنى آدم لا يصرفنكم الشيطان عن طاعة الله ، بأن تمكنوه من أن يوقعكم فى المعاصى كما أوقع أبويكم من قبل فيها ، فكان ذلك سبباً فى خروجهما من الجنة التى كانا يتمتعان بنعيمها .

وقوله : « ينزع عنهما لباسهما ليريهما سوءاتهما » جملة حالية من أبويكم. أى أخرجهما من الجنة حال كونه نازعاً عنهما لباسهما . وأسند النزع إلى الشيطان لأنه كان متسبباً فيه . ثم أكد تحذيرهم من الشيطان بجملة تعليلية فقال : « إنه يراكم هو وقبيله من حيث لاترونهم » أى : إن الشيطان وجنوده يرونكم يابنى آدم وأنتم لاترونهم ، فالجملة الكريمة تعليل للنهى السابق . وهو قوله : « لايفتننكم . . » وتأكيد للتحذير ، لأن العدو إذا أتى من حيث لايرى كان أشد وأخوف ، ولذا قال مالك بن دينار : « إن عدواً يراك ولاتراه لشديد المؤونة إلا على من عصمه الله » .

وقوله « وقبيله » معطوف على الضمير المستتر فى قوله « يراكم » المؤكد بقوله « هو » .

قال الآلوسى ماملخصه: والقضية مطلقة لا دائمة ، فلا تدل على ماذهب إليه المعتزلة من أن الجن لا يرون ولايظهرون للإنس أصلا ولا يتمثلون . ويشهد لما قلنا ماصح من رؤية النبى — صلى الله عليه وسلم — لأحدهم حين رام أن يشغله عن الصلاة فامكنه الله منه ، وأراد أن يربطه فى سارية من سوارى المسجد ثم ذكر دعوة سليمان فى قوله : « رب اغفرلى وهب لى ملكا لاينبغى لأحد من بعدى » فتركه[1] .

(١) تفسير الآلوسى ج ٩ ص ١٠٥ .

ثم بين — سبحانه — سنته فى خلقه فقال : « إنا جعلنا الشياطين أولياء للذين لا يؤمنون » . أى : إنا صيرنا الشياطين قرناء للذين لا يؤمنون ، مسلطين عليهم ، متمكنين من إغوائهم ، لأن حكمتنا اقتضت أن يكون الشياطين الذين هم شرار الجن ، متجانسين مع الكافرين الذين هم شرار الإنس .

وبذلك نرى أن الآية الأولى التى ورد فيها النداء الأول قد ذكرت بنى آدم بجانب من نعم الله عليهم، ثم جاءت هذه الآية مصدرة بنداء آخر حذرتهم فيه من وسوسة الشيطان ومداخله حتى لا يقعوا فيما وقع فيه أبوهم آدم من قبل .

ثم حكى القرآن بعض القبائح التى كان يفعلها المشركون ، ورد على أكاذيبهم بما يدحضها فقال :

« وإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا واللهُ أَمَرَنَا بِهَا ، قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالفَحْشَاءِ ، أَتَقُولُونَ عَلَى اللهِ مالا تَعْلَمُون (٢٨) » .

الفاحشة : هى كل فعل قبيح يتنافى مع تعاليم الشريعة مثل الإشراك بالله، والطواف بالبيت الحرام بدون لباس يستر العورة .

قال الإمام ابن كثير : « كانت العرب ـ ماعدا قريشا ـ لا يطوفون بالبيت الحرام فى ثيابهم التى لبسوها، يتأولون فى ذلك أنهم لا يطوفون فى ثياب عصوا الله فيها ، وكانت قريش — وهم الحمس[1] — يطوفون فى ثيابهم ، ومن أعاره أحمسى ثوبا طاف فيه ، ومن معه ثوب جديد طاف فيه ثم يلقيه فلا يتملكه أحد ، ومن لم يجد ثوبا جديداً ولا أعاره أحمسى ثوبا طاف عريانا ، وربما كانت المرأة تطوف عريانة، فتجعل على فرجها شيئا ليستره بعض الستر ، وأكثر ما كان النساء يطفن عراة ليلا، وكان هذا شيئا قد ابتدعوه من تلقاء أنفسهم واتبعوا فيه آباءهم ، ويعتقدون أن فعل آبائهم مستند إلى أمر من الله فأنكر

---

(١) سموا بالحمس لأنهم تحمسوا فى دينهم أى: تشددوا . والحماسة: الشجاعة .

الله عليهم ذلك وقال : « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها[1] .... » .

فالآية الكريمة تحكى عن هؤلاء المشركين أنهم كانوا يرتكبون القبائح التى نهى الله عنها كالطواف بالكعبة عرايا ، وكالإشراك بالله ، ثم بعد ذلك يحتجون بأنهم قد وجدوا آباءهم كذلك يفعلون ، وبأن الله قد أمرهم بذلك ، ولا شك أن احتجاجهم هذا من الأكاذيب التى ما أنزل الله بها من سلطان، ولذا عاجلهم القرآن بالرد المفحم ، فقال : « قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله مالا تعلمون » .

أى : قل يا محمد لهؤلاء المفترين على الله الكذب : إن كلامكم هذا يناقضه العقل والنقل . أما أن العقل يناقضه ويكذبه . فلأنه لا خلاف بيننا وبينكم فى أن ماتفعلونه هو من أقبح القبائح بدليل أن بعضكم قد تنزه عن فعله . وأما أن النقل يناقضه ويكذبه فلأنه لم يثبت عن طريق الوحى أن الله أمر بهذا ، بل الثابت أن الله لا يأمر به ، لأن الفاحشة فى ذاتها تجاوز لحدود الله ، وانتهاك لحرماته ، فهل من المعقول أن يأمر الله بانتهاك حدوده وحرماته ؟ والاستفهام فى قوله — تعالى — « أتقولون ... » للإنكار والتوبيخ وفيه معنى النهى .

ثم بين — سبحانه — ما أمر به من طاعات عقب تكذيبه المشركين فيما افتروه فقال :

« قُلْ أَمَرَ رَبِّى بِالقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ (٢٩) فَرِيقاً هَدَى وفَرِيقاً حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلَالَةُ ، إِنَّهُمُ اتَّخَذُوا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ اللهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُهْتَدُونَ (٣٠) » .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٠٨ .

أى : قل لهم يا محمد إن الذى أمر الله به هو العدل فى الأمور كلها ، لأنه هو الوسط بين الإفراط والتفريط ، كما أنه ـ سبحانه ـ قد أمركم بأن تتوجهوا إليه وحده فى كل عبادة من عباداتكم ، وأن تكثروا من التضرع إليه بخالص الدعاء وصالحه ، فإنه مخ العبادة .

ثم ذكرهم ـ سبحانه ـ بمبدئهم ونهايتهم فقال : كما بدأكم تعودون فريقاً هدى وفريقا حق عليهم الضلالة » .

أى : أن الذى قدر على ابتدائكم وإنشائكم ولم تكونوا شيئا ، يقدر على إعادتكم ليجازيكم على أعمالكم ، فأخلصوا له العبادة والطاعة .

قال صاحب المنار : « وهذه الجملة من أبلغ الكلام الموجز المعجز ، فإنها دعوى متضمنة الدليل ، بتشبيه الإعادة بالبدء فهو يقول : كما بدأكم ربكم خلقا وتكوينا بقدرته تعودون إليه يوم القيامة حالة كونكم فريقين ، فريقا هداهم فى الدنيا فاهتدوا بإيمانهم به وإقامة وجوههم له وحده فى العبادة ودعائه مخلصين له الدين ، وفريقا حق عليهم الضلالة لإتباعهم إغراء الشيطان ، وإعراضهم عن طاعه الرحمن ، وكل فريق يموت على ما عاش عليه ويبعث على ما مات عليه ، ومعنى حقت عليهم الضلالة ، ثبتت بثبوت أسبابها الكسبية ، لأنها جعلت غريزة لهم فكانوا مجبورين عليها ، يدل على هذا تعليلها على طريق الاستئناف البيانى بقوله : « إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون » ومعنى اتخاذهم الشياطين أولياء ، أنهم أطاعوهم فى كل ما يزينونه لهم من الفواحش والمنكرات ، ويحسبون أنهم مهتدون فيما تلقنهم الشياطين إياه من الشبهات[1] » .

ثم وجه القرآن بعد ذلك نداء ثالثا إلى بنى آدم أمرهم فيه بالتمتع بالحلال ، وبزينة الله التى أخرجها لعباده بدون إسراف أو تبذير فقال ـ تعالى :

---

(١) تفسير المنار جـ ٨ ص ١٧٩ .

« يَا بَنِي آدمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كلِّ مَسْجِدٍ وكُلُوا واشْرَبُوا ولاَ تُسْرِفُوا ، إنَّهُ لا يُحِبُّ المُسْرِفِينَ (٣١) » .

والمعنى : عليكم يابنى آدم أن تتجملوا بما يستر عورتكم ، وأن تتحلوا بلباس زينتكم كلما صليتم أو طفتم، واحــذروا أن تطوفوا بالبيت الحرام وأنتم عرايا :

قال القرطبى : « يابنى آدم هو خطاب لجميع العالم ، وإن كان المقصود بها من كان يطوف من العرب بالبيت عريانا ، فإنه عام فى كل مسجد للصلاة . لأن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب[١] » .

وقال ابن عباس : « كان بعض العرب يطوفون بالبيت عراة ، الرجال بالنهار ، والنساء بالليل . يقولون : لا نطوف فى ثياب عصينا الله فيها . فأنزل الله - تعالى - « يابنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد[٢] » .

ثم أمرهم - سبحانه - أن يتمتعوا بالطيبات بدون إسراف أو تقتير فقال: « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين » .

أى : كلوا من المآكل الطيبة ، واشربوا المشارب الحلال ولا تسرفوا لا فى زينتكم ولا فى مآكلكم أو مشربكم . لأنه — سبحانه — يكره المسرفين .

قال الإمام ابن كثير : « قال بعض السلف : جمــع الله الطب فى نصف آية فى قوله « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » ، وقال البخارى : قال ابن عباس كل ما شئت والبس ما شئت ما أخطأتك خصلتان : « سرف ومخيلة »[٣] .

---

(١) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ١٧٩ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٨ ص ١٢٥ .
(٣) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢١ .

وقد كان السلف الصالح يقفون بين يدى الله فى عبادتهم وهم فى أكمل زينة ، فهذا ـ مثلا ـ الإمام الحسن بن على ، كان إذا قام إلى الصلاة لبس أحسن ثيابه فقيل له : يابن بنت رسول الله لم تلبس أجمل ثيابك ؟ فقال : إن الله جميل يحب الجمال ، فأنا أتجمل لربى ، لأنه هو القائل « خذوا زينتكم عند كل مسجد »(1) .

وقال الكلبي : « كانت بنو عامر لا يأكلون فى أيام حجهم إلا قوتا ولا يأكلون لحما ولا دسما يعظمون بذلك حجهم ، فهم المسلمون أن يفعلوا كفعلهم فأنزل ـ تعالى ـ « وكلوا واشربوا ولا تسرفوا » .

فهذه الآية الكريمة تهدى الناس إلى ما يصلح معاشهم ومعادهم ، إذ أنها أباحت للمسلم أن يتمتع بالطيبات التى أحلها الله ، ولكن بدون إسراف أو بطر ، ولذا جاء الرد على المتنطعين الذين يضيقون على أنفسهم ما وسعه الله فى قوله - تعالى ـ بعد ذلك :

« قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (٣٢) » .

أى : قل يا محمد لأولئك الذين يطوفون بالبيت عرايا ، ويمتنعون عن أكل الطيبات : من أين أتيتم بهذا الحكم الذى عن طريقه حرمتم على أنفسكم بعض ما أحله الله لعباده ؟ فالاستفهام لإنكار ما هم عليه بأبلغ وجه .

ثم أمر رسوله أن يرد عليهم بأبلغ رد فقال : « قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا : خالصة يوم القيامة » .

أى : قل أيها الرسول لأمتك : هذه الزينة والطيبات من الرزق ثابتة للذين آمنوا فى الحياة الدنيا ، ويشاركهم فيها المشركون أيضاً ، أما فى الآخرة فهى خالصة للمؤمنين ولا يشاركهم فيها أحد ممن أشرك مع الله آلهة أخرى .

(1) تفسير الآلوسى ج ٨ ص ١٠٨ .

وقوله - تعالى - « كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » معناه : مثل تفصيلنا هذا الحكم نفصل سائر الأحكام لقوم يعلمون ما فى تضاعيفها من توجيهات سامية ، وآداب عالية .

ثم بين - سبحانه - بعد ذلك ألوانا من المحرمات التى نهى عباده عن اقترافها فقال تعالى .

« قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ الفَوَاحِشَ ما ظَهَرَ وما بَطَنَ ، والإِثْمَ وَالبَغْىَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وأَنْ تُشْرِكُوا بِاللهِ مالمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا ، وأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللهِ مالاَ تَعْلَمُونَ (٣٣) » .

والمعنى : قل يامحمد لهؤلاء الذين ضيقوا على أنفسهم ماوسعه الله ، قل لهم: إن ما حرمه الله عليكم فى كتبه وعلى ألسنة رسله هو هذه الأنواع الخمس التى أولها « الفواحش ما ظهر منها وما بطن » ، أى : ماكان قبيحاً من الأقوال والأفعال سواء أكان فى السر أو العلن ، وثانيها وثالثها (الإثم والبغى بغير الحق) والإثم : هوالشىء القبيح الذى فعله يعتبرمعصية ، والبغى: هو الظلم والتطاول على الناس وتجاوز الحد .

قال الإمام ابن كثير : « وحاصل ما فسر به الإثم أنه الخطايا المتعلقة بالفاعل نفسه ، والبغى هو التعدى على الناس ، فحرم الله هذا وهذا »[1] .

وقيد البغى بكونه بغير الحق ، لأنه لايكون إلا كذلك . إذ معناه فى اللغة تجاوز الحد . يقال : بغى الجرح . إذ تجاوز الحد فى فساده .

وقيل قيده بذلك ليخرج البغى على الغير فى مقابلة بغيه ، فإنه يسمى بغيا فى الجملة ، لكنه بحق ، وهوقول ضعيف لأن دفع البغى لايسمى بغيا، وإنما يسمى انتصافا من الظالم ، ولذا قال القرآن « ولمن انتصر بعد ظلمه فأولئك ما عليهم من سبيل » .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٢٢ .

وقيل إن القيد هنا لإخراج الأمور التي ليس لهم فيها حقوق ، أو التي تطيب أنفسهم فيها عن بعض حقوقهم فيبذلونها عن رضى وارتياح لمنفعة أو مصلحة لهم يرجونها ببذلها .

ورابع الأمور التي حرمها الله أخبر عنه القرآن بقوله : « وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا » .

أي : وحرم عليكم أن تجعلوا لله شركاء في عبادته بدون حجة أو برهان . وقوله « ما لم ينزل به سلطانا » بيان للواقع من شركهم ، إذ أنهم لا حجة عندهم على شركهم : لا من العقل ولا من النقل ، فالجملة الكريمة قد اشتملت على التهكم بالمشركين وتوبيخهم على كفرهم .

وخامسها قوله - تعالى - « وأن تقولوا على الله مالا تعلمون » ، أي : حرم عليكم أن تقولوا قولا يتعلق بالعبادات أو المحللات أو المحرمات أو غيرها بدون علم منكم بصحة ما تقولون ، وبغير بينة على صدق ما تدعون ،

قال صاحب المنار : « ومن تأمل هذه الآية حق التأمل ، فإنه يجتنب أن يحرم على عباد الله شيئاً أو يوجب عليهم شيئاً في دينهم بغير نص صريح عن الله ورسوله ، بل يجتنب - أيضا - أن يقول : هذا مندوب أو مكروه في الدين بغير دليل واضح من النصوص ، وما أكثر الغافلين عن هـذا المتجرئين على التشريع ... »[1] .

وبعد أن بين القرآن ما أحله الله وما حرمه . عقب على ذلك بأن بين أن أجل الناس في هذه الدنيا محدود ، وأنهم إن آجلا أو عاجلا سوف يقفون أمام ربهم للحساب فقال :

« ولِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ ، فَإِذَا جاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ولاَ يَسْتَقْدِمُونَ (٣٤) » .

---

(١) تفسير المنار جـ ٨ ص ٣٩٩

أى : لكل أمة من الأمم ولكل جيل من الأجيال مدة من العمر محدودة فى علم الله ، فإذا ما انتهت هذه المدة انقطعت حياتهم وفارقوا هذه الدنيا بدون أى تقديم أو تأخير .

وليس المراد بالساعة هنا ما اصطلح عليه الناس من كونها ستين دقيقة ، وإنما المراد بها الوقت الذى هو فى غاية القلة .

ثم أورد القرآن بعد ذلك النداء الرابع والأخير لبنى آدم ، وحضهم فيه على اتباع الرسل ، والسير على الطريق المستقيم فقال :

« يَا بَنِى آدمَ إمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِى ، فَمَنِ اتَّقَى وأَصْلَحَ فلاَ خوفٌ عَلَيْهِم ولاَ هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٥) والَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنا واسْتَكْبَرُوا عَنْها أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهاَ خَالِدُونَ (٣٦) »

والمعنى : يابنى آدم إن يأتكم رسل من أبناء جنسكم ، يتلون عليكم آياتى التى أنزلتها عليهم لهدايتكم فآمنوا بهم وعزروهم وانصروهم ، فإن من آمن بهم واتقى مانهاه عنه ربه ، وأصلح نفسه وعمله ، فأولئك لاخوف عليهم يوم القيامة ، ولاهم يحزنون لمفارقتهم الدنيا ، أما الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

فالآيتان الكريمتان تخبران جميع بنى آدم أن رسل الله قد بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة ، فعلى المرسل إليهم أن يطيعوهم حتى يفوزوا برضاء خالقهم .

قال الجمل : « وإنما قال رسل بلفظ الجمع وإن كان المراد به واحدا وهو النبى صلى الله عليه وسلم ، لأنه خاتم الأنبياء ، وهو مرسل إلى كافة الخلق ، فذكره بلفظ الجمع على سبيل التعظيم ، فعلى هذا يكون الخطاب فى قوله « يا بنى آدم » لأهل مكة ومن يلحق بهم . وقيل أراد جميع الرسل . وعلى هذا الخطاب

فى قوله « يا بنى آدم » عام لكل بنى آدم ، وانما قال منكم أى : من جنسكم ومثلكم من بنى آدم ، لأن الرسول اذا كان من جنسهم كان أقطع لعذرهم وأثبت للحجة عليهم ، لانهم يعرفونه ويعرفون أحواله ، فإذا أتاهم بما لا يليق بقدرته أو بقدرة أمثاله علم أن ذلك الذى أتى به معجزة له ، وحجة على من خالفه »(١) .

ثم تعرض السورة الكريمة بعد ذلك لمشاهد يوم القيامة فى خمس عشرة آية فتصور لنا بأسلوبها البليغ المؤثر حال المشركين عند قبض أرواحهم ، وحالهم عند ما يقفون أمام الله للحساب يوم الدين ، وتحكى لنا ما يجرى بين رؤساء المشركين ومرءوسيهم من مجادلات وملاعنات ، ثم تعقب على ذلك ببيان ما اعده الله للمؤمنين من أجر عظيم وثواب جزيل ، ثم يختم هذه المشاهدة بالحديث عما يدور بين اصحاب الجنة واصحاب النار من محاورات ونداءات . استمع الى القرآن الكريم وهو يحكى كل ذلك بطريقته التصويرية المعجزة فيقول .

« فَمَنْ أَظْلَمَ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أو كَذَّبَ بِآيَاتِهِ ؟ أُولَئِكَ يَنَالُهُمْ نَصِيبُهُمْ مِنَ الكِتَابِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ قَالُوا أَيْنَمَا كُنْتُمْ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا ، وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ (٣٧) » .

أى . لا أحد أشد ظلما ممن افترى الكذب على الله ، بأن احل ماحرمه أو حرم ما أحله ، اوكذب بآياته المنزلة على أنبيائه، والإستفهام فى قوله « فمن اظلم . . . » للإنكار .

ثم بين - سبحانه - عاقبتهم فقال . « اولئك ينالهم نصيبهم من الكتاب »

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج٢ ص١٢٧

أي . أولئك الذين كذبوا بآيات الله سينالهم نصيبهم مما كتب لهم وقدر من رزق وأجر ، وخير وشر ، والمراد بالكتاب ، كتاب الوحي الذي أنزل على الرسل ، فإنه يتضمن ما أعده الله المؤمنين من ثواب وما أعده للكافرين من عقاب وقيل المراد به اللوح المحفوظ ، أي أولئك ينالهم نصيبهم المكتوب لهم في كتاب المقادير ، وهو : اللوح المحفوظ

ثم صور القرآن حالهم عند قبض أرواحهم فقال . « حتى إذا جاءتهم رسلنا يتوفونهم ، قالوا . أينما كنتم تدعون من دون الله ؟ قالوا . ضلوا عنا ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين » .

أي . أولئك المفترون ينالهم نصيبهم الذي كتب لهم مدة حياتهم ، حتى إذا ما انتهت آجالهم وجاءتهم ملائكة الموت لقبض أرواحهم سألتهم سؤال توبيخ وتقريع : أين الآلهه التي كنتم تعبدونها في الدنيا، وتزعمون أنها شفعاؤكم عند الله لكي تنقذكم من هذا الموقف العصيب ؟ وهنا يجيب المشركون على الملائكة بقولهم بحسرة وندامة . « ضلوا عنا » أي : غابوا عنا وصرنا لاندرى مكانهم ، ولا نرجو منهم خيرا أو نفعا، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين بعبادتهم لغير الله الواحد القهار .

وهنا يصدر عليهم قضاء الله العادل الذي صوره القرآن في قوله :

« قال ادخلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكم مِنَ الجِنّ وَالإنْسِ في النَّارِ ، كُلَّما دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَها حَتَّى إذَا ادَّارَكُوا فيها جَمِيعاً قالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأولاهُمْ رَبَّنَا هؤلاءِ أَضَلُّونا ، فآتِهِمْ عذاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ ، قال : لِكلٍّ ضِعْفٌ ولكِنْ لا تَعلَمُونَ (٣٨) » .

أي : قال الله - تعالى - لأولئك المكذبين ادخلوا في ضمن أمم من الجن والإنس قد سبقتكم في الكفر ، وشاركتكم في الضلالة .

ثم بين — سبحانه — بعض أحوالهم فقال « كلما دخلت أمة لعنت أختها » أي : كلما دخلت أمة من أمم الكفر النار لعنت أختها في الدين والملة ، فالأمة المتبوعة تلعن الأمة التابعة لأنها زادتها ضلالا ، والأمة التابعة تلعن الأمة المتبوعة لأنها كانت سببا في عذابها .

ثم قال — تعالى — « حتى إذا اداركوا فيها جميعا ... » أي : حتى إذا ما إجتمعو جميعا في النار الرؤساء والأتباع ، والأغنياء ، والفقراء ، قالت أخراهم دخولا أو منزله وهم الأتباع ، لأولاهم دخولا أو منزلة وهم الزعماء والمتبوعين « ربنا هؤلاء أضلونا فآتهم عذابا ضعفا من النار » .

أي : قال الأتباع : ياربنا هؤلاء الرؤساء هم السبب في ضلالنا وهلاكنا ، فأذقهم ضعفا من عذاب النار لإضلالهم إيانا فضلا عن أنفسهم .

وهنا يأتيهم الجواب الذي يحمل لهم التهكم والسخرية و فيقول الله لهم : « قال : لكل ضعف ولكن لاتعلمون » أي : لكل منكم ومنهم عذاب مضاعف من النار . أما أنتم فبسبب تقليدكم الأعمى ، وأما هم فبسبب إضلالهم لكم ولغيركم ، ولكنكم يامعشر المقلدين لاتعلمون ذلك لجهلكم وانطماس بصيرتكم .

« وَقَالَتْ أُولَاهُمْ لِأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُم عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ (٣٩) » .

أي : قال الزعماء لأتباعهم بعد أن سمعوا رد الله عليهم : إننا وإياكم متساوون في استحقاق العذاب ، وكلنا فيه سواء . لأننا لم نجبركم على الكفر ، ولكنكم أنتم الذين كفرتم باختياركم ، وضللتم بسبب جهلكم ، فذوقوا العذاب المضاعف مثلنا بسبب ما اكتسبتموه في الدنيا من قبائح ومنكرات :

فقوله — تعالى — « بما كنتم تكسبون » بيان لأسباب الحكم عليهم .

وأنهم ما وردوا هذا المصير الأليم إلا بسبب ، ما اكتسبوه من آثام : وما اجترحوه من سيئات .

ثم بين القرآن بعد ذلك لونا آخر من ألوان عذاب المكذبين فقال :

« إِنَّ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَابُ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ ، وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُجْرِمِينَ (٤٠) لَهُمْ مِنْ جَهَنَّمَ مِهَادٌ وَمِنْ فَوْقِهِمْ غَوَاشٍ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٤١) » .

فهاتان الآيتان تصوران أكمل تصوير استحالة دخول المشركين الجنة بسبب تكذيبهم لآيات الله واستكبارهم عنها .

وقد فسر بعض العلماء قوله — تعالى — « لا تفتح لهم أبواب السماء » بمعنى ، لا تقبل أعمالهم ولا ترفع إلى الله كما ترفع أعمال الصالحين . قال — تعالى — « إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه » .

وفسره بعضهم بمعنى أن أرواحهم لا تصعد إلى السماء بعد الموت ، لأنها قد أغلقت عليهم بسبب شركهم ، ولكنها تفتح لأرواح المؤمنين :

والمراد أن الكافرين عند موتهم وعند حسابهم يوم القيامة يكونون على غضب الله ولعنته بسبب ما ارتكبوه في الدنيا من شرك وظلم .

أما قوله — تعالى — « ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط » فمعناه : أن هؤلاء المشركين لا تفتح لأعمالهم ولا لأرواحهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يدخل ما هو مثل في الضخامة وهو الجمل الكبير ، فيما هو مثل في الضيق وهو ثقب الإبرة .

وفي قراءة « حتى يلج الجمل » — بضم الجيم وتشديد الميم وفتحها — وهو الحبل الغليظ أي : لا يدخلون الجنة حتى يدخل ذلك الحبل الغليظ الذي

تربط به السفن في ذلك الثقب الصغير للابرة ، وهيهات أن يحصل هذا ، فكما أنه غير ممكن حصول ذلك فكذلك غير ممكن دخول المشركين الجنة .

قال الجمل في حاشيته : ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط ، الولوج الدخول بشدة ، ولذلك يقال هو الدخول في ضيق فهو أخص من مطلق الدخول . والجمل معروف وهو الذكر من الإبل ، وسم الخياط ثقب الإبرة ، وإنما خص الجمل بالذكر من بين سائر الحيوانات لأنه أكبرها ، وثقب الابرة من أضيق المنافذ ، فكان ولوج الجمل مع عظم جسمه في ثقب الابرة الضيق محالا فثبت أن الموقوف على المحال محال.فوجب بهذا الاعتبار أن دخول الكفار الجنة ميئوس منه قطعا [1] » .

وقوله « وكذلك نجزى المجرمين » معناه : ومثل ذلك الجزاء الرهيب نجزى جنس المجرمين ، الذين صار الاجرام وصفا لازما لهم .

ثم بين — سبحانه — ما أعد لهم في النار فقال : لهم من جهنم مهاد ومن فوقهم غواش ، وكذلك نجزى الظالمين » .

جهنم : إسم لدار العذاب . والمهاد : الفراش .والغواشي جمع غاشية ، وهى ما يغشى الشيء أى يغطيه ويستره .

أى : أن هؤلاء المكذبين لهم نار جهنم تحيط بهم من فوقهم ومن تحتهم، فهى من تحتهم بمنزلة الفراش ، ومن فوقهم بمثابة الغطاء ، ومثل ذلك الجزاء نجزى كل ظالم ومشرك . وإلى هنا تكون الآيات الكريمة قد بينت لنا بأسلوب مؤثر مصور حال المشركين عندما تقبض أرواحهم ، وحالهم عندما يقفون أمام الله للحساب ، وحالهم عندما يلعن بعضهم بعضا ، وحالهم والعذاب من فوقهم ومن أسفل منهم ، وهى مشاهد تفزع النفوس ، وتحمل العقلاء على الاستقامة والاهتداء .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ١٤١

ثم نرى السورة بعد ذلك تسوق لنا ما أعده الله للمؤمنين بعد أن بينت فيما سبق عاقبة الكافرين فقال — تعالى — :

« وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٤٢) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ، وَقَالُوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ ، لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ، وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٤٣) ».

أي : والذين آمنوا بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، وعملوا الأعمال الصالحة التي لاعسر فيها ولا مشقة . إذ لايكلف الله نفساً إلا وسعها، أولئك الجامعون بين الإيمان والعمل الصالح، هم أصحاب الجنة هم فيها خالدون.

وجملة — لانكلف نفساً إلا وسعها — معترضة بين المبتدأ الذي هو قوله « والذين آمنو . . . » وبين الخبر الذي هو قوله « أولئك أصحاب الجنة . . . » .

قال الجمل : « وإنما حسن وقوع هذا الكلام بين المبتدأ والخبر، لأنه من جنس هذا الكلام : لأنه — سبحانه — لما ذكر عملهم الصالح، ذكر أن ذلك العمل من وسعهم وطاقتهم وغير خارج عن قدرتهم ، وفيه تنبيه للكفار على أن الجنة مع عظم قدرها ، يتوصل إليها بالعمل السهل من غير مشقة ولا صعوبة[1] » .

وقال صاحب الكشاف : « وجملة « لانكلف نفساً إلا وسعها » معترضة بين المبتدأ والخبر ، للترغيب في اكتساب مالا يكتنهه وصف الواصف من

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ١٤٣ .

النعيم الخالد مع التعظيم بما هو فى الوسع ، وهو الإمكان الواسع غير الضيق من الإيمان والعمل الصالح[1] » .

ثم بين - سبحانه - ماهم عليه فى الجنة من صفاء نفسى ونقاء قلبى فقال - تعالى - : « ونزعنا مافى صدورهم من غل تجرى من تحتهم الأنهار » أى : قلعنا مافى قلوبهم من تحاقد وعداوات فى الدنيا ، فهم يدخلون الجنة بقلوب سليمة ، زاخرة بالتواد والتعاطف حالة كونهم تجرى من تحتهم الأنهار فيرونها وهم فى غرفات قصورهم فيزداد سرورهم وحبورهم .

« وقالوا الحمد لله الذى هدانا لهذا وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله » . أى : قالوا شاكرين لله أنعمه ومننه : الحمد لله الذى هدانا فى الدنيا إلى الإيمان والعمل الصالح ، وأعطانا فى الآخرة هذا النعيم الجزيل ، وما كنا لنهتدى إلى مانحن فيه من نعيم لولا أن هدانا الله إليه بفضله وتوفيقه . وجواب لولا محذوف لدلالة ماقبله عليه ، والتقدير : ولولا هداية الله موجودة ما اهتدينا .

وقوله « لقد جاءت رسل ربنا بالحق » جملة قسمية ، أى : والله لقد جاءتنا رسل ربنا فى الدنيا بالحق ، لأن ما أخبرونا به قد وجدنا مصداقه فى الآخرة .

« ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون » أى : ونودوا من قبل الخالق - عز وجل - بأن قيل لهم : تلكم هى الجنة التى كانت الرسل تعدكم بها فى الدنيا قد أورثكم الله إياها بسبب ما قدمتوه من عمل صالح .

فالآية الكريمة صريحة فى أن الجنة قد ظفر بها المؤمنون بسبب أعمالهم الصالحة .

فإن قيل : إن هناك أحاديث صحيحة تصرح بأن دخول الجنة ليس بالعمل وإنما بفضل الله ، ومن ذلك ماجاء فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٠٤ .

الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : لن يدخل أحداً عمله الجنة ، قالوا : ولا أنت يارسول الله ؟ قال : ولا أنا إلا أن يتغمدنى الله بفضله ورحمته » .

فالجواب على ذلك أنه لاتنافى فى الحقيقة ، لأن المراد أن العمل لا يوجب دخول الجنة ، بل الدخول بمحض فضل الله ، والعمل سبب عادى ظاهرى . وتوضيحه أن الأعمال مهما عظمت فهى ثمن ضئيل بالنسبة لعظمة دخول الجنة ، فإن النعمة الأخروية سلعة غاليه جداً فمثل هذه المقابلة كمثل من يبيع قصوراً شاهقة وضياعا واسعة بدرهم واحد .

فإقبال البائع على هذه المبادلة ليس للمساواة بين العمل ونعمة الجنة ، بل لتفضله على المشترى ورحمته به ، فمن رحمته بعباده المؤمنين أن جعل بعض أعمالهم الفانية وأموالهم الزائلة ثمنا لنعيم لا يبلى ، ولذلك قال ابن عباس عندما قرأ قوله ـ تعالى ـ : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » : نعمت الصفقة ، أنفس هو خالقها وأموال هو رازقها ثم يمنحنا عليها الجنة .

على أنه ـ سبحانه ـ هو المتفضل فى الحقيقة بالثمن والمثمن جميعاً . لا جرم كان دخول الجنة بفضله ـ سبحانه ـ وهو الموفق للعمل والمعين عليه .

ويمكن أن يجاب ـ أيضاً ـ بأن الفوز بالجنة ونعيمها إنما هو بفضل الله والعمل جميعا ، فقوله : « ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون » أى : مع فضل الله ـ تعالى ـ ، وإنما لم يذكر ذلك لئلا يتكلوا . وقوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « لن يدخل أحدا عمله الجنة . . » أى مجردا من فضل الله ، وإنما اقتصر على هذا لئلا يغتروا .

هذه أصح الآراء فى الجمع بين الآية والحديث ، وهناك آراء أخرى لم نذكرها لضعفها .

وبعد هذه الموازنة بين مصير الكافرين ومصير المؤمنين ، بدأ القرآن

يسوق لنا مشهداً آخر من الحوار الذى يدور يوم القيامة بين أصحاب الجنة وأصحاب النار .

استمع إلى سورة الأعراف وهى تحكى لنا هذا المشهد المؤثر بأسلوبها العجيب فتقول :

« وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُم حَقًّا ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ (٤٤) الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجاً ، وَهُمْ بِالآخِرَةِ كَافِرُونَ (٤٥) وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ ، وَعَلَى الأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلاًّ بِسِيمَاهُمْ ، وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ سَلَامٌ عَلَيْكُم لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ (٤٦) وَإِذَا صُرِفَتْ أَبْصَارُهُمْ تِلْقَاءَ أَصْحَابِ النَّارِ قَالُوا : رَبَّنَا لَا تَجْعَلْنَا مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤٧) وَنَادَى أَصْحَابُ الأَعْرَافِ رِجَالاً يَعْرِفُونَهُمْ بِسِيمَاهُمْ ، قَالُوا : مَا أَغْنَى عَنكُمْ جَمْعُكُمْ وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ (٤٨) أَهٰؤُلَاءِ الَّذِينَ أَقْسَمْتُمْ لَا يَنَالُهُمُ اللهُ بِرَحْمَةٍ ، ادْخُلُوا الْجَنَّةَ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمْ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (٤٩) وَنَادَى أَصْحَابُ النَّارِ أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَنْ أَفِيضُوا عَلَيْنَا مِنَ الْمَاءِ أَوْ مِمَّا رَزَقَكُمُ اللهُ ، قَالُوا : إِنَّ اللهَ حَرَّمَهُمَا عَلَى الْكَافِرِينَ (٥٠) الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَهْواً وَلَعِباً وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ، فَالْيَوْمَ نَنْسَاهُمْ كَمَا نَسُوا لِقَاءَ يَوْمِهِمْ هٰذَا وَمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ (٥١) » .

والمعنى : أن أصحاب الجنة سوف يسألون أهل النار سؤال تعيير وتوبيخ يوم القيامة فيقولون لهم قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا من الثواب ومن الجزاء

فهل وجدتم أنتم ماوعدكم ربكم حقا من العقاب وسوء المصير ؟ قالوا : نعم .
أي : قال أهل النار : نعم وجدنا ما وعد ربنا على ألسنة رسله حقا .

وهذا النداء إنما يكون بعد استقرار أهل الجنة فى الجنة ، وأهل النار فى النار .

والظاهر أن هذا النداء من كل أهل الجنة لكل أهل النار لأن الجمع إذا قابل الجمع يوزع الفرد على الفرد . فكل فريق من أهل الجنة ينادى من كان يعرفه من الكفار فى دار الدنيا .

وعبر بالماضى مع أن هذا النــــداء يكون فى الآخرة لتحقق الوقوع وتأكده .

وكلمة « حقا » نصبت فى الموضعين على الحالية ، وقيل إنها مفعول ثان ويكون وجد بمعنى علم .

ثم بين ـ سبحانه ـ ماجرى بعد ذلك فقال : « فأذن مؤذن بينهم ، أن لعنه الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ... » .

التأذين : رفع الصوت بالإعلام بالشىء . واللعنة : الطرد والإبعاد مع الخزى والإهانة .

والمعنى : بعد أن قامت الحجة على الكافرين وثبت الفوز للمؤمنين . نادى مناد بين الفريقين بقوله : لعنة الله على الظالمين لأنفسهم ، ولغيرهم، الذين من صفاتهم أنهم يمنعون الناس عن اتباع شريعة الله ، ويريدون لهــا أن تكون معوجة غير مستقيمة حتى لايتبعها الناس ، وهم بالآخرة وما فيها من ثواب وعقاب جاحدون مكذبون .

وفى قوله « فأذن مؤذن بينهم . نكر المؤذن ، لأن معرفته غير مقصودة بل المقصود الإعلام بما يكون هناك من الأحكام ولم يرو عــن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيه شىء ، فهو من أمور الغيب التى لاتعلم علما صحيحا إلا

بالتوقيف المستند إلى الوحي ، وما ورد فى ذلك فهو من الآثار التى لايعتمد عليها .

قال بعض العلماء : « وفى هاتين الآيتين تعرض السورة لمرحلة أخرى من مراحل العذاب ، وهى نداء أصحاب الجنة لأصحاب النار نداء يسجل عليهم الخزى والنكال ، ويشعرهم بالحسرة والندامة ، إذ كذبوا بما يرونه الآن واقعا فى مقابلة النعيم الذى صار إليه أهل الإيمان ، وأحسوا به كذلك واقعا

وفى هذا نرى صورة من الحديث الذى يمثل الرضا والاطمئنان واللذة من جانب . ويمثل الحسرة والذلة والقلق من جانب آخر . ويصور الحكم النافذ الذى لامرد له ولا محيص عنه يؤذن به مؤذن لا يدرك كنهه ولا يعلم من هو ولا ماصوته ولا كيف يلقى أذانه ، ولا كيف يكون أثر هذا الأذان فى نفوس سامعه .

وإنه لتصوير قوى بارع ، يحرك إليه النفوس ، ويهز المشاعر ، ويبين أن النهاية الأليمة المتوقعة لهؤلاء المكذبين ، إنما هى تسجيل اللعنة عليهم ، والطرد والحرمان من رحمة الله ، مشيرا إلى أسباب ذلك الحرمان الماثلة فى ظلمهم الذى كونه صدهم عن سبيل الله ، وبغيهم إياها عوجا وانحرافا وكفرهم بدار الجزاء »[1] .

ثم ينتقل القرآن إلى الحديث عن مشهد آخر من مشاهد يوم القيامة، يحدثنا فيه عن أصحاب الأعراف وما يدور بينهم وبين أهل الجنة وأهل النار من حوار فيقول :

«وبينهما حجاب» أى : بين أهل الجنة وأهل النار حجاب يفصل بينهما، ويمنع وصول أحد الفريقين إلى الآخر ،

ويرى بعض العلماء أن هذا الحجاب هو السور الذى ذكره الله فى قوله

---

(١) تفسير القرآن الكريم ص لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت .

ـ تعالى ـ فى سورة الحديد . « يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً ، فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب » .

ثم قال ـ تعالى ـ « وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ، ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون » .

الأعراف : جمع عرف ، وهو المكان المرتفع من الأرض وغيرها . ومنه عرف الديك وعرف الفرس وهو الشعر الذى يكون فى أعلى الرقبة .

والمعنى : وبين الجنة والنار حاجز يفصل بينهما وعلى أعراف هذا الحاجز ـ أى فى أعلاه ـ رجال يرون أهل الجنة وأهل النار فيعرفون كلا منهم بسيماهم وعلاماتهم التى وصفهم الله بها فى كتابه كبياض الوجوه بالنسبة لأهل الجنة ، وسوادها بالنسبة لأهل النار ، ونادى أصحاب الأعراف أصحاب الجنة عند رؤيتهم لهم بقولهم : سلام عليكم وتحية لكم « لم يدخلوها وهم يطمعون » .

هذا ، وللعلماء أقوال فى أصحاب الأعراف أوصلها بعض المفسرين إلى اثنى عشر قولا من أشهرها قولان :

أولهما : أن أصحاب الأعراف قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم ، وقد روى هذا القول عن حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف .

وقد استشهد أصحاب هذا القول بما رواه ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال : « سئل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ عمن استوت حسناتهم وسيئاتهم فقال : « أولئك أصحاب الأعراف ، لم يدخلوها وهم يطمعون » .

وعن الشعبى عن حذيفة أنه سئل عن أصحاب الأعراف فقال : هم قوم استوت حسناتهم وسيئاتهم فقعدت بهم سيئاتهم عن الجنة ، وخلفت بهم

حسناتهم عن النار . قال : فوقفوا هناك على السور حتى يقضى الله فيهم[١] » .

وهناك آثار أخرى تقوى هـذا الرأى ذكرها الإمام ابن كثير فى تفسيره[٢] . .

أما الرأى الثانى فيرى أصحابه أن أصحاب الأعراف قوم من أشرف الخلق وعدولهم كالأنبياء والصديقين والشهداء . وينسب هذا القول إلى مجاهد وإلى أبى مجلز فقد قال مجاهد : « أصحاب الأعراف قوم صالحون فقهاء علماء » وقال أبو مجلز : أصحاب الأعراف هم رجال من الملائكة يعرفون أهل الجنة وأهل النار . ومعنى كونهم رجالا — فى قول أبى مجلز أى : فى صورتهم .

وقد رجح بعض العلماء الرأى الثانى فقال : « وليس أصحاب الأعراف من تساوت حسناتهم وسيئاتهم كما جاء فى بعض الروايات ، لأن ما نسب إليهم من أقوال لا يتفق مع انحطاط منزلتهم عن أهل الجنة ، انظر قولهم للمستكبرين :

« ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون ، فإن هذا الكلام لا يصدر إلا من أرباب المعرفة الذين اطمأنوا إلى مكانتهم . . . ولذا أرجح أن رجال الأعراف هم عدول الأمم والشهداء على النـــاس ، وفى مقدمتهم الأنبياء والرسل ...[٣] » .

والذى نراه : أن هناك حجاباً بين الجنة والنار ، الله أعلم بحقيقته ، وأن هذا الحجاب لا يمنع وصول الأصوات عن طريق المناداة ، وأن هذا الحجاب من فوقه رجال يرون أهل الجنـة وأهل النار فينادون كل فريق بما يناسبه ، يحيون أهل الجنـة ويقرعون أهل النـار ، وأن هؤلاء الرجال — يغلب على ظننا — أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم . لأن هذا القول هو قول جمهور

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢١٦

(٢) راجع تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢١٦ وما بعدها .

(٣) تفسير القرآن الكريم ج ٣ . لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت

العلماء من السلف والخلف، ولأن الآثار تؤيده ، ولذا قال ابن كثير «واختلفت عبارات المفسرين فى أصحاب الأعراف من هم ؟ وكلها قريبة ترجع إلى معنى واحد ، وهو أنهم قوم تساوت حسناتهم وسيئاتهم ، نص عليه حذيفة وابن عباس وابن مسعود وغير واحد من السلف والخلف رحمهم الله [1]» .

وقوله «لم يدخلوها وهم يطمعون» فيه وجهان : أحدهما أنه فى أصحاب الأعراف ، أى أن أصحاب الأعراف عندما راوا أهل الجنة سلموا عليهم حال كونهم - أى أصحاب الأعراف - لم يدخلوها معهم وهم طامعون فى دخولها مترقبون له .

وثانيهما : أنه فى أصحاب الجنة : أى : أنهم لم يدخلوها بعد ، وهم طامعون فى دخولها لما ظهر لهم من يسر الحساب . وكريم اللقاء .

ثم قال - تعالى - «وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا : ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين» .

أى : وإذا ما اتجهت أبصار أصحاب الأعراف إلى جهة أصحاب النار قالوا مستعيذين بالله من سوء مارأوا من أحوالهم : ياربنا لاتجعلنا مع هؤلاء القوم الظالمين ، ولاتجعلنا وإياهم فى هذا المكان المهين .

قال صاحب المنار : «وقد أفاد هذا التعبير بالفعل المبنى للمجهول أنهم يوجهون أبصارهم إلى أصحاب الجنة بالقصد والرغبة ويلقون إليهم السلام ، وأنهم يكرهون رؤية أصحاب النار ، فإذا صرفت أبصارهم تلقاءهم من غير قصد ولا رغبة ، بل بصارف يصرفهم إليها قالوا : ربنا لاتجعلنا مع القوم الظالمين .

ثم قال : والإنصاف أن هذا الدعاء أليق بحال من استوت حسناتهم

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢١٦ .

وسيئاتهم وكانوا موقوفين مجهولا مصيرهم ...(١) » .

ثم بين - سبحانه - مايقوله أهل الأعراف لرءوس الكفر فى هذا الموقف العصيب فقال : « ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا : ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون » .

أى : ونادى أصحاب الأعراف رجالا من أهل النار كانوا أصحاب وجاهة وغنى فى الدنيا ، فيقولون لهم على سبيل التوبيخ والتقريع ما أغنى عنكم جمعكم وكثرتكم واستكباركم فى الأرض بغير الحق . فقد صرتم فى الآخرة بسبب كفركم وعنادكم إلى هذا الوضع المهين .

وقد كرر - سبحانه - ذكرهم مع قرب العهد بهم ، فلم يقل « ونادوا » لزيادة التقرير ، وكون هذا النداء خاصاً فى موضوع خاص فكان مستقلا .

وقوله « يعرفونهم بسيماهم » أى : بعلاماتهم الدالة على سوء حالهم يومئذ كسواد الوجوه ، وظهور الذلة على وجوههم . أو يعرفونهم بصورهم التى كانوا يعرفونهم بها فى الدنيا .

ثم يزيدون توبيخهم وتبكيتهم فيقولون لهم « أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ، أدخلوا الجنة لاخوف عليكم ولا أنتم تحزنون » .

أى : أن أصحاب الأعراف يشيرون إلى أهل الجنة من الفقراء والذين كانوا مستضعفين فى الأرض ثم يقولون لرءوس الكفر الذين كانوا يعذبونهم : أهؤلاء الذين أقسمتم فى الدنيا أن الله - تعالى - لا ينالهم برحمة فى الآخرة لأنه لم يعطهم فى الدنيا مثل ما أعطاهم من مال وبنين وسلطان .

وهنا ينادى مناد من قبل الله - تعالى - على هؤلاء الفقراء فيقول لهم : « أدخلوا الجنة لاخوف عليكم ولا أنتم تحزنون » .

---

(١) تفسير المنار ج ٨ ص ٤٣٤ .

أى : أدخلوا الجنة لاخوف عليكم مما يكون فى المستقبل ، ولا أنتم تحزنون على ماخلفتموه فى الدنيا .

وقيل : إن قوله ـ تعالى ـ « ادخلوا .. من كلام أصحاب الأعراف ـ أيضاً ، فكأنهم التفتوا إلى أولئك المشار إليهم من أهل الجنة وقالوا لهم : أمكثوا فى الجنة غير خائفين ولامحزونين على أكمل سرور وأتم كرامة .

ثم تسوق لنا السورة الكريمة بعد ذلك مشهداً ختاميا من مشاهد يوم القيامة تدور محاوراته بين أصحاب الجنة وأصحاب النار فتقول :

« ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أومما رزقكم الله ، قالوا : إن الله حرمهما على الكافرين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ، وما كانوا بآياتنا يجحدون » .

إفاضة الماء : صبه ، ومادة الفيض فيها معنى الكثرة .

والمعنى : أن أهل النار ـ بعد أن أحاط بهم العذاب المهين ـ أخذوا يستجدون أهل الجنة بذلة وانكسار فيقولون لهم : أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله من طعام ، لكى نستعين بهما على مانحن فيه من سموم وحميم .

وهنا يرد عليهم أهل الجنة بما يقطع آمالهم بسبب أعمالهم فيقولون لهم : إن الله منع كلا منهما على الكافرين ، الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا ، أى الذين اتخذوا دينهم ـ الذى أمرهم الله باتباع أوامره واجتناب نواهيه ـ مادة للسخرية والتلهى ، وصرف الوقت فيما لايفيد ، فأصبح الدين ـ فى زعمهم ـ صورا ورسوما لاتزكى نفساً ، ولاتطهر قلباً ، ولاتهذب خلقا وهم فوق ذلك قد غرتهم الحياة الدنيا ـ أى شغلتهم بمتعها ولذائذها وزينتها عن كل مايقربهم إلى الله ، ويهديهم إلى طريقه القويم .

وقوله ـ تعالى ـ « فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا » معناه فاليوم نفعل بهم فعل الناسى بالمنسى من عدم الاعتناء بهم وتركهم فى النار تركا كليا

بسبب تركهم الاستعداد لهذا اليوم ، وبسبب جحودهم لآياتنا التى جاءتهم بها أنبياؤهم .

فالنسيان فى حق الله ـ تعالى ـ مستعمل فى لازمه ، بمعنى ، أن الله لا يجيب دعاءهم ، ولا يرحم ضعفهم وذلهم ، بل يتركهم فى النار كما تركوا الإيمان والعمل الصالح فى الدنيا .

وهكذا تسوق لنا السورة الكريمة مشاهد متنوعة لأهوال يوم القيامة ، فتحكى لنا أحوال الكافرين ، كما تصور لنا ما أعده الله للمؤمنين . كما تسوق لنا ما يدور بين الفريقين من محاورات ومناقشات فيها العبر والعظات « لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » .

ثم بين ـ سبحانه ـ منزلة القرآن الكريم فى إثباته للرسالة المحمدية عن طريق الإخبار بأحوال الأمم السابقة وبيان سوء عاقبة من كذب به ، فقال :

« وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ ، هُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٥٢) هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ ، قَدْ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٥٣) » .

قوله : « ولقد جئناهم بكتاب فصلناه ... ألخ »

التفصيل : عبارة عن جعل الحقائق والمسائل المراد بيانها مفصولا بعضها عن بعض بحيث لا يبقى فيها اشتباه أو لبس .

والمعنى : ولقد جئنا لهؤلاء الناس على لسانك يا محمد بكتاب عظيم الشأن ، كامل التبيان ، فصلنا آياته تفصيلا حكيما ، وبينا فيه ما هم فى حاجة إليه من أمور الدنيا والآخرة بيانا شافيا يؤدى إلى سعادتهم متى اتبعوه واهتدوا بهديه .

والضمير لأولئك الكافرين الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا ، وقيل هو لهم وللمؤمنين ، والمراد بالكتاب : القرآن الكريم .

وقوله « على علم » حال من فاعل « فصلناه » ، أى : فصلناه على أكمل وجه وأحسنه حالة كوننا عالمين بذلك أتم العلم .

فالمراد بهذه الجملة الكريمة بيان أن ما فى هذا القرآن من أحكام وتفصيل وهداية ، لم يحصل عبثا ، وإنما حصل مع العلم التام بكل ما اشتمل عليه من فوائد متكاثرة ، ومنافع متزايدة .

وقرأ ابن محيص « فضلناه » بالضاد المعجمة . أى : فضلناه على سائر الكتب عالمين بأنه حقيق بذلك .

وقوله «هدى ورحمة» حال من مفعول «فصلناه» وقرىء بالجر على البدلية من « علم » وبالرفع على إضمار المبتدأ ، أى . هو هدى عظيم ورحمة واسعة .

وقال : « لقوم يؤمنون » لأنهم هم المنتفعون بهديه ، والمستجيبون لتوجيهاته ثم بين ـ سبحانه ـ عاقبة هؤلاء الذين كذبوا بالقرآن الذى أنزله الله هداية ورحمة فقال : « هل ينظرون إلا تأويله » .

النظر هنا بمعنى الانتظار والتوقع لا بمعنى الرؤية . فالمراد بينظرون ينتظرون ويتوقعون ، وتأويل الشىء : مرجعه ومصيره الذى يئول إليه ذلك الشىء والاستفهام بمعنى النفى .

والمعنى : إن هؤلاء المشركين ليس أمامهم شىء ينتظرونه بعد أن أصروا على شركهم إلا مايئول إليه أمر هذا الكتاب وماتنجلى عنه عاقبته ، من تبين صدقه ، وظهور صحة ما أخبر به من الوعد والوعيد والبعث والحساب ، وانتصار المؤمنين به واندحار المعرضين عنه .

فإن قيل : كيف ينتظرون ذلك مع كفرهم به ؟

فالجواب : أنهم قبل وقوع ماهو محقق الوقوع ، صاروا كالمنتظرين له ،

لأن كل آت قريب ، فهم على شرف ملاقاة ما وعدوا به ، وسينزل بهم لا محالة .

ثم بين - سبحانه - حالهم يوم الحساب فقال : يوم يأتى تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذى كنا نعمل » .

أى : يوم يأتى يوم القيامة الذى أخبر عنه القرآن ، والذى يقف الناس فيه أمام خالقهم للحساب ، يقول هؤلاء الكافرون الذين جحدوا هذا اليوم عندما تنكشف لهم الحقائق ، قد جاءت رسل ربنا بالحق ، وتبين صدقهم ولكننا نحن الذين كذبناهم وسرنا فى طريق الضلال ، فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا فى هذه الساعة العصيبة ودفعوا عنا ما نحن فيه من كرب وبلاء ، أو نرد إلى الدنيا فنعمل عملا صالحا غير الذى كنا نعمله من الجحود واللهو واللعب .

أى : أنه لا طريق لنا إلى الخلاص مما نحن فيه من العذاب الشديد إلا أحد هذين الأمرين ، وهو أن يشفع لنا شفيع فلأجل تلك الشفاعة يزول هذا العذاب ، أو يردنا الله إلى الدنيا حتى نعمل غير ما كنا نعمل .

فالجملة الكريمة تصور حسرتهم يوم القيامة تصويرا يهز المشاعر ، ويحمل العقلاء على الإيمان والعمل الصالح .

والاستفهام فى قوله « فهل لنا من شفعاء . . . » للتمنى والتحسر ، ومن مزيدة للاستغراق والتأكيد وشفعاء مبتدأ مؤخر ولنا خبر مقدم .

ثم بين - سبحانه - نهايتهم فقال « قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون » .

أى : قد خسر هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا أنفسهم ، بسبب إشراكهم بالله ، وذهب عنهم ما كانوا يفترونه فى الدنيا من أن أصنامهم ستشفع لهم يوم الجزاء ، وأيقنوا أنهم كانوا كاذبين فى دعواهم .

ثم ذكر — سبحانه — جانبا من بديع صنعه، وجليل قدرته، لكي يدلل على أنه هو المعبود الحق فقال — تعالى :

« إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا، وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ، تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٥٤) ».

أي : إن سيدكم ومالككم الذي يجب عليكم أن تفردوه بالعبادة هو الله الذي أنشأ السموات والأرض على غير مثال سابق فى مقدار ستة أيام .

قال الشهاب : اليوم فى اللغة مطلق الوقت . فان أريد هذا فالمعنى فى ستة أوقات . وإن أريد المتعارف وهو زمان طلوع الشمس إلى غروبها فالمعنى فى ستة أيام، لأن اليوم إنما كان بعد خلق الشمس والسموات فيقدر فيه مضاف[1] .

وقال صاحب فتح البيان : « قيل هذه الأيام من أيام الدنيا، وقيل من أيام الآخرة، قال ابن عباس : يوم مقداره ألف سنة وبه قال الجمهور وقال سعيد ابن جبير، « كان الله قادرا على أن يخلق السموات والأرض وما بينهما فى لمحة ولحظة، فخلقهن فى ستة أيام تعليما لخلقه التثبت والتأنى فى الأمور »[2] .

وقوله « ثم استوى على العرش » قال الشيخ القاسمى :

ورد الاستواء على معان اشترك لفظه فيها، فجاء بمعنى الاستقرار، ومنه « استوت على الجودى » وبمعنى القصد ومنه « ثم استوى إلى السماء وهى دخان » وكل من فرغ من أمر وقصد لغيره فقد استوى له وإليه . قال الفراء : تقول العرب استوى إلى يخاصمنى أي : قصد لى وأقبل على . ويأتى بمعنى الاستيلاء :

(١) تفسير القاسمى ج ٧ ص ٢٧٠٠ .

(٢) تفسير فتح البيان للشيخ صديق حسن خان ج ٢ ص ٣٤٢ .

قال الشاعر : « قد استوى بشر على العراق » ويأتى بمعنى العلو ومنه هذه الآية .

قال البخارى فى آخر صحيحه فى كتاب الرد على الجهمية فى باب قوله - تعالى - « وكان عرشه على الماء » . قال مجاهد : استوى وعلا على العرش .

وقال ابن راهويه : سمعت غير واحد من المفسرين يقول ، « الرحمن على العرش استوى » أى : عز وارتفع[1] .

وعرش الله - كما قال الراغب - مما لا يعلمه البشر إلا بالإسم ، وليس كما تذهب إليه أوهام العامة ، فإنه لو كان كذلك لكان حاملا له - تعالى الله عن ذلك - لا محمولا .

وقد ذكر العرش فى إحدى وعشرين آية . وذكر الاستواء على العرش فى سبع آيات .

أما الاستواء على العرش فذهب سلف الأمة إلى أنه صفة لله - تعالى - بلا كيف ولا انحصار ولا تشبيه ولا تمثيل لاستحالة اتصافه - سبحانه - بصفات المحدثين ، ولوجوب تنزيهه عما لا يليق به « ليس كمثله شيء وهو السميع البصير » وأنه يجب الإيمان بها كما وردت وتفويض العلم بحقيقتها إليه - تعالى - .

فعن أم سلمة - رضى الله عنها - فى تفسير قوله - تعالى - « الرحمن على العرش استوى » أنها قالت : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والاقرار به من الايمان ، والجحود به كفر .

وقال الإمام مالك : الكيف غير معقول ، والاستواء غير مجهول ، والايمان به واجب ، والسؤال عنه بدعة .

وقال محمد بن الحسن : اتفق الفقهاء جميعا على الايمان بالصفات من غير تفسير ولا تشبيه .

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٧ ص ٢٨٠٢

وقال الإمام الرازى : إن هذا المذهب هو الذى نقول به ونختاره ونعتمد عليه .

وذهب بعض علماء الخلف إلى وجوب صرفه ـ أى الاستواء عن ظاهره لاستحالته ، وأن المراد منه ـ كما قال الإمام القفال ـ أنه استقام ملكه ، واطرد أمره ونفذ حكمه ـ تعالى ـ فى مخلوقاته ، والله ـ تعالى ـ دل على ذاته وصفاته وكيفية تدبيره للعالم على الوجه الذى ألفوه من ملوكهم واستقر فى قلوبهم «تنبيها على عظمته وكمال قدرته وذلك مشروط بنفى التشبيه ، ويشهد بذلك قوله ـ تعالى ـ «ثم استوى على العرش يدبر الأمر »[1] .

هذا وللعلماء كلام ، كلام طويل حول هذه المسألة التى تتعلق بالمحكم والمتشابه فليرجع إليها من شاء :

وقوله : « يغشى الليل النهار » التغشية التغطية والستر ، أى : يجعل الليل غاشيا للنهار مغطيا له فيذهب بنوره ، ويصير الكون مظلما بعد أن كان مضيئا ويجعل النهار غاشيا لليل فيصير الكون مضيئا بعد أن كان مظلما ، وفى ذلك من منافع الناس مافيه وبه تتم الحياة ، وهو دليل القدرة والحكمة والتدبير من الإله العلى العظيم .

ولم يذكر فى هذه الآية يغشى الليل بالنهار اكتفاء بأحد الأمرين عن الآخر كقوله ـ تعالى ـ « سرابيل تقيكم الحر » أو لدلالة الحال عليه ، أو لأن اللفظ يحتملهما : يجعل الليل مفعولا أول والنهار مفعولا ثانيا أو بالعكس .

والآية الكريمة من باب أعطيت زيداً عمراً ، لأن كلا من الليل والنهار يصلح أن يكون غاشياً ومغشيا ، فوجب جعل الليل هو الفاعل المعنوى والنهار هو المفعول من غير عكس لئلا يلتبس المعنى .

---

(١) تفسير صفوة البيان ص ٢٦٣ لفضيلة الشيخ حسنين محمد مخلوف :

وقد قال - تعالى - فى آية أخرى « يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » .

وقوله « يطلبه حثيثاً » أى : يطلب الليل النهار أو كلاهما يطلب الآخر طلباً سريعاً حتى يلحقه ويدركه، وهو كناية عن أن أحدهما يأتى عقب الآخر ويخلفه بلا فاصل ، فكأنه يطلبه طلباً سريعاً لا يفتر عنه حتى يلحقه .

والحث على الشيء : الحض عليه . يقال : حث الفرس على العدو يحثه حثاً صاح به أو وكزه برجل أو ضرب . وذهب حثيثاً أى : مسرعاً .

والجملة حال من الليل ، لأنه هو المتحدث عنه أو حال من النهار أى : مطلوب حثيثاً ، أو من كل منهما على الرأى الثانى الذى يفسر « يطلبه حثيثاً » بأن كليهما يطلب الآخر .

وقوله : « والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره » أى : وخلق الشمس والقمر والنجوم حال كونهن مذللات خاضعات لتصرفه ، منقادات لمشيئته ، كأنهن مميزات أمرن فانقدن ، فتسمية ذلك أمرا على سبيل التشبيه.

قال الآلوسى : ويصح حمل الأمر على الإرادة . أى : هذه الأجرام العظيمة والمخلوقات البديعة منقادة لإرادته : ومنهم من حمل الأمر على الأمر الكلامى وقال : إنه - سبحانه - أمر هذه الأجرام بالسير الدائم والحركة المستمرة على الوجه المخصوص إلى حيث شاء ولا مانع أن يعطيها الله إدراكا وفهما لذلك[1] » .

وقرأ الجمهور بنصب الألفاظ الثلاثة على أنها معطوفة على السموات ،أى: خلق السموات وخلق الشمس والقمر والنجوم .. وبنصب « مسخرات » أيضا على أنها حال من هذه الثلاثة .

وقرأ أبو عامر بالرفع فى جميعها على الابتداء والخبر مسخرات .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٨ ص ١٣٨ .

وقوله « ألا له الخلق والأمر » ألا : أداة يفتتح بها القول الذى يهتم بشأنه لأجل تنبيه المخاطب لمضمونه وحمله على تأمله . والخلق : إيجاد الشىء من العدم . والأمر : التدبير والتصرف على حسب الإرادة لما خلقه . فهو — سبحانه — الخالق والمدبر للعالم على حسب إرادته وحكمته لاشريك له فى ذلك .

وهذه الجملة الكريمة كالتذييل للكلام السابق أى : أنه — سبحانه — هو الذى خلق الأشياء كلها ويدخل فى ذلك السموات والأرض وغيرهما ، وهو الذى دبر هذا الكون على حسب إرادته ويدخل فى ذلك ما أشار إليه بقوله « مسخرات بأمره » .

وقوله : « تبارك الله رب العالمين » .

تبارك . فعل ماض لا يتصرف ، أى لم يجىء منه مضارع ولا أمر ولا اسم فاعل . من البركة بمعنى الكثرة من كل خير . وأصلها النماء والزيادة . أى : كثر خيره وإحسانه وتعاظمت وتزايدت بركات الله رب العالمين .

أو من البركة بمعنى الثبوت . يقال : برك البعير ، إذا أناخ فى موضعه فلزمه وثبت فيه . وكل شىء ثبت ودام فقد برك . أى : ثبت ودام خيره على خلقه .

أو المعنى : تعالى وتعظم وارتفع وتنزه عن كل نقص الله رب العالمين .

ثم أمر الله — تعالى — عباده أن يكثروا من التضرع إليه بالدعاء الخالص فقال :

« ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٥٥) وَلَا تُفْسِدُوا فِى الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا ، إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ (٥٦) » .

التضرع : تفعل من الضراعة وهى الذلة والاستكانة . يقال : ضرع

فلان ضراعة : أي خشع وذل وخضع. ويقال : تضرع، أى أظهر الضراعة والخضوع . وتضرعا حال من الضمير فى ادعوا .

الخفية : بضم الخاء وكسرها — مصدر خفى كرض بمعنى اختفى أى: استتر وتوارى ولم يجهر بدعائه .

والمعنى : سلوا ربكم - أيها الناس - حوائجكم بتذلل واستكانة وإسرار وإستتار فإنه - سبحانه - يسمع الدعاء ، ويجيب المضطر ، ويكشف السوء . وهو القادر على إيصالها إليكم ، وغيره عن ذلك عاجز .

وإنما أمر الله عباده بالإكثار من الدعاء فى ضراعة وإسرار ، لأن الدعاء ماهو إلا اتجاه إلى الله بقلب سليم ، واستعانة به بإخلاص ويقين ، لكى يدفع المكروه ، ويمنح الخير ، ويعين على نوائب الدهر ، ولاشك أن الإنسان فى هذه الحالة يكون فى أسمى درجات الصفاء الروحى ، والنقاء النفسى ، ويكون كذلك مؤدياً لأشرف ألوان العبادة والخضوع لله الواحد القهار ، معترفا لنفسه بالعجز والنقص . ولربه بالقدرة والكمال[1] .

هذا ، وقد أخذ العلماء من هذه الآية أن من آداب الدعاء الخشوع والإسرار واستدلوا على ذلك بأحاديث وآثار متعددة منها ماجاء فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى قال كنا مع رسول الله — صلى الله عليه وسلم - فكنا إذا أشرفنا على واد هللنا وكبرنا وارتفعت أصواتنا . فقال النبى — صلى الله عليه وسلم — « أيها الناس ، أربعوا على أنفسكم — أى أرفقوا بها وأقصروا من

---

(١) راجع كتابنا « الدعاء ، معناه ، فضله ، آدابه. شروطه ، فوائده..إلخ من سلسلة مجمع البحوث الاسلامية الكتاب السادس والعشرون .

الصياح — فإنكم لاتدعون أصم ولاغائباً . إنه معكم . إنه سميع قريب . تبارك اسمه وتعالى جده »[1] .

وقال عبد الله بن المبارك عن مبارك بن فضالة ، عن الحسن قال : إن كان الرجل لقد جمع القرآن ومايشعر به الناس ، وإن كان الرجل ، لقد فقه الفقه الكثير ومايشعر به الناس . وإن كان الرجل ليصلى الصلاة الطويلة فى بيته وعنده الزور — أى الزوار — ومايشعرون به . ولقدأدركنا أقواما ما كان على الأرض عمل يقدرون أن يعملوه فى السر فيكون علانية أبداً . ولقد كان المسلمون يجهدون فى الدعا ومايسمع لهم صوت ، إن كان إلا همساً بينهم وبين ربهم . وذلك أن الله — تعالى — يقول : « ادعوا ربكم تضرعاً وخفية » وذلك أن الله ذكر عبدا صالحا رضى فعله وهو زكريا فقال : « ذكر رحمة ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداء خفيا »[2].

وقال ابن المنير : « وحسبك فى تعين الإسرار فى الدعاء اقترانه بالتضرع فى الآية ، فالاخلال به كالاخلال بالضراعة إلى الله بالدعاء . وإن دعاء لاتضرع فيه ولاخشوع لقليل الجدوى . فكذلك دعاء لاخفية فيه ولا وقار يصحبه . وترى كثيراً من أهل زمانك يعمدون على الصراخ والصياح فى الدعاء خصوصا فى الجوامع حتى يعظم اللفظ ويشتد ، وتستك المسامع وتستد ، ويهتز الداعى بالناس . ولا يعلم أنه جمع بين بدعتين : رفع الصوت فى الدعاء وفى المسجد ، وربما حصلت للعوام حينئذ رقة لاتحصل مع خفض الصوت ، ورعاية سمت الوقار ، وسلوك السنة الثابتة بالآثار . وماهى إلا رقة شبيهة بالرقة العارضة للنساء والأطفال ليست خارجة عن صميم الفؤاد ، لأنها لو كانت من أصل لكانت عند اتباع السنة فى الدعاء . وفى خفض

(١) أخرجه البخارى — واللفظ له — فى كتاب الجهاد . باب مايكره من رفع الصوت : وأخرجه مسلم فى كتاب « الذكر والدعاء » .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١٧٠ .

الصوت به أوفر وأوفى وأزكى فما أكثر التباس الباطل بالحق على عقول كثيرة من الخلق. اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا أتباعه وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه »[١].

وقوله: «إنه لا يحب المعتدين» الاعتداء تجاوز الحد أى: لا يحب المتجاوزين حدودهم فى كل شىء ويدخل فيه الاعتداء فى الدعاء دخولا أوليا.

ومن مظاهر الاعتداء فى الدعاء أن يترك هذين الأمرين وهما التضرع والاخفاء، كذلك من مظاهر الاعتداء فى الدعاء أن يتكلف فيه.

روى أبو داود فى سننه أن سعد أبى وقاص سمع ابنا له يدعو ويقول: اللهم إنى أسألك الجنة ونعيمها وإستبرقها ونحوا من هذا، وأعوذ بك من النار وسلاسلها وأغلالها. فقال له يابنى: إنى سمعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول: إنه سيكون قوم يعتدون فى الدعاء ثم قرأ سعد هذه الآية «ادعوا ربكم تضرعا وخفية...» وإن بحسبك أن تقول: اللهم إنى أسألك الجنة ومافرب إليها من قول أو عمل، وأعوذ بك من النار وما قرب إليها من قول أو عمل »[٢].

ثم نهى الله عباده عن كل لون من ألوان المعاصى فقال: «ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها» أى: لا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاح الله إياها، بأن خلقها على أحسن نظام، فالجملة الكريمة نهى عن سائر أنواع الافساد كإفساد النفوس والأموال والأنساب والعقول والأديان.

روى أبو الشيخ عن أبى بكر بن عياش أنه سئل عن قوله - تعالى - «ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها» فقال: أن الله بعث محمداً - صلى الله

---

(١) الانتصاف على الكشاف لابن المنير جـ٢ ص ١١٠ من تفسير الكشاف:

(٢) أخرجه أبو داود فى كتاب الوتر باب الدعاء حديث رقم ١٤٨٠ طبعة محمد فؤاد عبد الباقى.

عليه وسلم - إلى أهل الأرض وهم فى فسادفأصلحهم الله به ، فمن دعا إلى خلاف ما جاء به محمد - صلى الله عليه وسلم - فهو من المفسدين فى الأرض » .

قال صاحب المنار : وقال - سبحانه - « ولاتفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها » ، لأن الإفساد بعد الإصلاح أشدقبحاً من الإفسادعلى الافساد، فإن وجود الاصلاح أكبر حجة على المفسد إذا هو لم يحفظه ويجرى على سننه . فكيف إذا هو أفسده وأخرجه عن وضعه ؟ ولذاخص بالذكر وإلا فالافساد مذموم ومنهى عنه فى كل حال ... »[1]

وقوله : « وادعوه خوفا وطمعاً » .

أصل الخوف : انزعاج فى الباطن يحصل من توقع أمر مكروه يقع فى المستقبل .

والطمع : توقع أمر محبوب يحصل فى المستقبل .

والمعنى : وادعوه خائفين من عقابه إياكم على مخالفتكم لأوامره ، طامعين فى رحمته وإحسانه وفى إجابته لدعائكم تفضلا منه وكرما .

قال الجمل : فإن قلت : قال فى أول الآية « ادعوا ربكم تضرعاً وخفية » وقال هنا : « وادعوه خوفا وطمعاً » وهذا عطف للشىء على نفسه فما فائدة ذلك ؟ قلت : الفائدة أن المراد بقوله - تعالى - « ادعوا ربكم تضرعا وخفية » بيان شرطين من شروط الدعاء ، وبقوله « وادعوه خوفا وطمعا » بيان شرطين آخرين ، والمعنى : كونوا جامعين فى أنفسكم بين الخوف والرجاء فى أعمالكم ولا تطمعوا أنكم وفيتم حق الله فى العبادة والدعاء وإن إجتهدتم فيهما »[2] .

وقوله « إن رحمة الله قريب من المحسنين » أى إن رحمته - تعالى -

---

(١) تفسير المنار جـ ٨ ص ٤٦١ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ١٥١ .

وإنعامه على عباده قريب من المتقنين لأعمالهم ، المخلصين فيها ، لأن الجزاء من جنس العمل ، فمن أحسن عبادته نال عليها الثواب الجزيل ، ومن أحسن فى أمور دنياه كان أهلا للنجاح فى مسعاه، ومن أحسن فى دعائه كان جديراً بالقبول والاجابة .

قال الشيخ القاسمى : وفى الآية الكريمة ترجيح للطمع على الخوف،لأن المؤمن بين الرجاء والخوف ، ولكنه إذا رأى سعة رحمته ـ سبحانه ـ وسبقها، غلب الرجاء عليه . وفيها تنبيه على مايتوسل به إلى الاجابة وهو الاحسان فى القول والعمل .

قال مطر الوراق : استنجزوا موعود الله بطاعته ، فإنه قضى أن رحمته قريب من المحسنين ،[1] .

هذا ، وكلمة « قريب » وقعت خبراً للرحمة ، ومن قواعد النحو أن يكون الخبر مطابقا للمبتدأ فى التذكير والتأنيث ، فكان مقتضى هذه القواعد أن يقال إن رحمة الله قريبة . وقد ذكر العلماء فى تعليل ذلك بضعة عشر وجها ، منها أن تذكير « قريب » صفة لمحذوف أى أمر قريب ، أو لأن كلمة الرحمة مؤنثة تأنيثا مجازيا ، فجاز فى خبرها التذكير والتأنيث أو لأن الرحمة هنا بمعنى الثواب وهو مذكر فيكون تذكير قريب باعتبار ذلك وقيل غير ذلك مما لا مجال لذكره هنا .

وبعد أن بين ـ سبحانه ـ أنه هو الخالق للسموات والأرض ، وأنه هو المتصرف الحاكم المدبر المسخر ، وأن رحمته قريبة من المحسنين الذين يكثرون من التضرع إليه بخشوع وإخلاص .

بعد كل ذلك تحدث ـ سبحانه ـ عن بعض مظاهر رحمته التى تتجلى فى إرسال الرياح ، وإنزال المطر ، وعن بعض مظاهر قدرته التى تتجلى فى بعث

---

(١) تفسير القاسمى ج ٧ ص ٢٧٥٦ .

الموتى للحساب، وفى هداية من يريد هدايته وإضلال من يريد ضلالته فقال ـ تعالى ـ :

« وهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْراً بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ، حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَاباً ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (٥٧) والبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ والَّذِي خَبُثَ لاَ يَخْرُجُ إلاَّ نَكِداً، كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ (٥٨) ».

وقوله ـ تعالى ـ « وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته » معطوف على ماسبق من قوله ـ تعالى ـ « إن ربكم الله الذى خلق السموات والأرض ... » لبيان مظاهر قدرته ورحمته. وقرأ حمزة والكسائى « والريح » بالافراد :

و« بشرا » ـ بضم فسكون الشين ـ مخفف و« بشرا » ـ بضمتين ـ جمع بشير كنذر ونذير، أى : مبشرات بنزول الغيث المستتبع لمنفعة الخلق .

وقرأ أهل المدينة والبصرة « نشرا » ـ بضم النون والشين ـ جمع نشور ـ كصبور وصبر ـ بمعنى ناشر من النشر ضد الطى . وفعول بمعنى فاعل يطرد جمعه .

وهناك قراءات أخرى غير ذلك .

والمعنى وهو ـ سبحانه ـ الذى يرسل الرياح مبشرات عباده بقرب نزول الغيث الذى به حياة الناس .

وقوله « بين يدى رحمته » أى بين يدى المطر الذى هو من أبرز مظاهر رحمة الله بعباده .

قال تعالى : « وهو الذى ينزل الغيث من بعد ماقنطوا وينشر رحمته وهو الولى الحميد .

وقال تعالى : « ومن آياته أن يرسلَ الرياح مبشرات » .

قال الامام الرازى : وقوله « بين يدى رحمته » من حسن أنواع المجاز ، والسبب فى ذلك أن اليدين يستعملهما العرب فى معنى التقدمة على سبيل المجاز. يقال : إن الفتن تحصل بين يدى الساعة يريدون قبلها ، كذلك مما حسن هذا المجاز أن يدى الانسان متقدمة ، فكل ما كان يتقدم شيئا يطلق عليه لفظ اليدين على سبيل المجاز لأجل هذه المشابهة ، فلما كانت الرياح تتقدم المطر ، لاجرم عبر عنه بهذا اللفظ »[1] .

وقوله : « حتى إذا أقلت سحابا ثقالا سقناه لبلد ميت » حتى : غاية لقوله « يرسل » . وأقلت : أى حملت . وحقيقة أقله وجده قليلا ثم استعمل بمعنى حمله . لأن الحامل لشىء يستقل مايحمله بزعم أن مايحمله قليل .

و« سحابا » أى : غيما ، سمى بذلك لانسحابه فى الهواء ، وهو اسم جنس جمعى يفرق بينه وبين واحده بالتاء كتمر وتمرة ، وهو يذكر ويؤنث ويفرد وصفه ويجمع .

و« ثقالا » جمع ثقيلة من الثقل - كعنب - ضد الخفة . يقال: ثقل الشىء - ككرم - ثقلا وثقالة فهو ثقيل وهى ثقيلة .

والمعنى : أن الله - تعالى - هو الذى يرسل الرياح مبشرات بنزول الغيث، حتى إذا حملت الرياح سحابا ثقالا من كثرة مافيها من الماء ، سقناه - أى السحاب - إلى « بلد ميت » اى إلى أرض لانبات فيها ولا مرعى ، فاهتزت وربت وأخرجت النبات والمرعى . فأطلق - سبحانه - الموت على الأرض

---

(١) تفسير لفخر الرازى ج ٤ ص ٢٤٢ طبعة المطبعة الشرقية سنة ١٣٢٤ ه .

التى لا نبات فيها ، وأطلق الحياة على الأرض الزاخرة بالنبات والمرعى لأن حياتها بذلك .

قال - تعالى - « والله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فسقناه إلى بلد ميت ، فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور » .

وقوله : « فأنزلنا به الماء » أى : فأنزلنا فى هذا البلد الميت الماء الذى تحمله السحاب . فالباء فى « به » للظرفية .

وقيل إن الضمير فى « به » للسحاب ، أى : فأنزلنا بالسحاب الماء وعليه فتكون الباء للسببية .

وقوله : « فأخرجنا به من كل الثمرات » أى : فأخرجنا بهذا الماء من كل أنواع الثمرات المعتادة فى كل بلد ، تخرج به على الوجه الذى أجرى الله العادة بها ودبرها .

فليس المراد أن كل بلد ميت تخرج منه جميع أنواع الثمار التى خلقها الله ، متى نزل به الماء ، وإنما المراد أن كل بلد تخرج منه الثمار التى تناسب تربته على حسب مشيئة الله وفضله وإحسانه ، إذ من المشاهد أن البلاد تختلف أرضها فيما تخرجه ، وهذا أدل على قدرة الله ، وواسع رحمته .

وقوله : « كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون » إشارة إلى إخراج الثمرات ، أو إلى إحياء البلد الميت .

أى : مثل ما أحيينا الأرض بعد موتها وجعلناها زاخرة بأنواع الثمرات بسبب نزول الماء عليها ، نخرج الموتى من الأرض ونبعثهم أحياء فى اليوم الآخر لنحاسبهم على أعمالهم ، فالتشبيه فى مطلق الإخراج من العدم . وهذا رد على منكرى البعث بدليل ملزم ، لأن من قدر على إخراج النبات من الأرض بعد نزول الماء عليها ، قادر - أيضا - على إخراج الموتى من قبورهم .

وقوله : « لعلكم تذكرون » تذييل قصد به الحث على التدبر والتفكر ، أى : لعلكم تذكرون وتعتبرون بما وصفنا لكم فيزول إنكاركم للبعث والحساب .

قال الشيخ القاسمى : « من أحكام الآية كما قال الجشمى : أنها تدل على عظم نعمة الله علينا بالمطر ، وتدل على الحجاج فى إحياء الموتى بإحياء الأرض بالنبات ، وتدل على أنه أراد من الجميع التذكر ، وتدل على أنه أجرى العادة بإخراج النبات بالماء . وإلا فهو قادر على إخراجه من غير ماء فأجرى العادة على وجوه دبرها علينا على مانشاهده ، لضرب من المصلحة دينا ودنيا ..»[1]

ثم ضرب — سبحانه — مثلا لاختلاف استعداد البشر للخير والشر فقال :

« والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لايخرج إلا نكدا » .

أصل النكد : العسر القليل الذى لايخرج إلا بعناء ومشقة . يقال : إنكد عيشه ينكد ، اشتد وعسر . ونكدت البئر : قل ماؤها ، ومنه : رجل نكد ، ونكد وأنكد : شؤم عسر . وهم أنكاد ومناكيد .

وقال فى اللسان : والنكد : قلة العطاء ، قال الشاعر :

لاتنجز الوعد إن وعدت وإن   أعطيت ، أعطيت تافها نكدا

أى : عطاء قليلا لاجدوى منه .

والمعنى : أن الأرض الكريمة التربة يخرج نباتها وافيا حسنا غزير النفع بمشيئة الله وتيسيره ، والذى خبث من الأرض كالسبخة منها لايخرج نباته إلا قليلا عديم الفائدة .

فالأول مثل ضربه الله للمؤمن يقول : هو طيب وعمله طيب . والثانى مثل للكافر ، يقول : هو خبيث وعمله خبيث ، وفيهما بيان أن القرآن يثمر فى القلوب التى تشبه الأرض الطيبة التربة، ولا يثمر فى القلوب التى تشبه الأرض الرديئة السبخة .

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٧ ص ٢٧٥٨ .

ونكدا منصوب على أنه حال أو على أنه نعت لمصدر محذوف والتقدير: والذى خبث لايخرج إلا خروجا نكدا .

قال صاحب الكشاف : « وهذا مثل لمن ينجع فيه الوعظ والتذكير من المكلفين ، ولمن لايؤثر فيه شيء من ذلك . وعن مجاهد : آدم وذريته منهم خبيث وطيب . وعن قتادة : المؤمن سمع كتاب الله فوعاه بعقله وانتفع به ، كالأرض الطيبة أصابها الغيث فأنبتت . والكافر بخلاف ذلك . وهذا التمثيل واقع على أثر ذكر المطر . وإنزاله بالبلد الميت ، وإخراج الثمرات به على طريق الاستطراد »[1] .

وقريب من معنى الآية الكريمة مارواه الشيخان عن أبى موسى قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «مثل مابعثنى الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضا، فكانت منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هى قيعان لاتمسك ماء ولاتنبت كلأ ، فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه مابعثنى الله به فعلم وعلم . ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به »[2] .

وقوله : « كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون » أصل التصريف : تبديل حال بحال ومنه تصريف الرياح . والآيات : الدلائل الدالة على قدرة الله .

أى : مثل ذلك التصريف البديع والتنويع الحكيم نصرف الآيات الدالة على علمنا وحكمتنا ورحمتنا بالإتيان بها على أنواع جلية واضحه لقوم يشكرون نعمنا ، باستعمالها فيما خلقت له . فيستحقون مزيدنا منها وإثابتنا عليها .

وعبر هنا بالشكر لأن هذه الآية موضوعها الاهتداء بالعلم والعمل والإرشاد،

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٢٢ .
(٢) أخرجه البخارى فى كتاب العلم ، وأخرجه مسلم فى كتاب الفضائل .

بينما عبر فى الآية السابقة عليها بالتذكر لأن موضوعها يتعلق بالاعتبار والاستدلال على قدرة الله - تعالى - فى إحياء الموتى .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا - من بين ماحدثتنا - عن عظمة القرآن الكريم وعن وجوب اتباعه ، وعن قصة آدم وما فيها من عبر وعظات ، وعما أحله الله وحرمه ، وعما يدور بين أهل النار من مجادلات واتهامات ، وعن العاقبة الطيبة التى أعدها الله للصالحين من عباده ، وعن المحاورات التى تدور بينهم وبين أهل النار ، ثم عن مظاهر قدرة الله ، وأدلة وحدانيته ...

وبعد كل ذلك تبدأ السورة جولة جديدة مع الأمم الخالية ، والقرى المهلكة التى جاء ذكرها فى مطلعها .

« وكم من قرية أهلكناها فجاءها بأسنا بياتا أو هم قائلون » .

فتحدثنا السورة الكريمة عن مصارع قوم نوح ، وقوم هود ، وقوم صالح ، وقوم لوط ، وقوم شعيب ، ثم حديثا مستفيضا عن قصة موسى مع فرعون ومع بنى إسرائيل .

وقد تكلم الإمام الرازى عن فوائد مجىء قصص هؤلاء الأنبياء مع أقوامهم فى هذه السورة بعد أن تحدثت عن أدلة توحيده وربوبيته - سبحانه - فقال : اعلم أنه - تعالى - لما ذكر فى تقرير المبدأ والمعاد دلائل ظاهرة ، وبينات قاهرة ، وبراهين باهرة اتبعها بذكر قصص الأنبياء وفيه فوائد :

أحدها : التنبيه على أن إعراض الناس عن قبول هذه الدلائل والبينات ليس من خواص قوم النبى - صلى الله عليه وسلم - بل هذه العادة المذمومة كانت حاصلة فى جميع الأمم السالفة ، والمصيبة إذا عمت خفت ، فكان ذكر قصصهم ، وحكاية إصرارهم وعنادهم ، يفيد تسلية للنبى - صلى الله عليه وسلم - وتخفيف ذلك على قلبه .

ثانيها : أنه — تعالى — يحكى فى هذه القصص أن عاقبة أمر أولئك المنكرين كان إلى اللعن فى الدنيا ، والخسارة فى الآخرة ، وعاقبة أمر المحقين إلى الدولة فى الدنيا ، والسعادة فى الآخرة ، وذلك يقوى قلوب المحقين ، ويكسر قلوب المبطلين .

وثالثها : التنبيه على أنه — تعالى — وإن كان يمهل هؤلاء المبطلين ، ولكنه لا يهملهم ، بل ينتقم منهم على أكمل الوجوه .

ورابعها : بيان أن هذه القصص دالة على نبوة محمد — صلى الله عليه وسلم — لأنه كان أمياً . وما طالع كتاباً ولا تتلمذ على أستاذ . فإذا ذكر هذه القصص على هذا الوجه من غير تحريف ولا خطأ دل ذلك على أنه إنما عرفها بالوحى من الله — تعالى — »[1] .

والآن فلنستمع بتدبر واعتبار إلى السورة الكريمة وهى تحدثنا عن قصة نوح مع قومه فتقول :

« لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (٥٩) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٦٠) قَالَ يَا قَوْمِ لَيْسَ بِي ضَلَالَةٌ وَلَكِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٦١) أُبَلِّغُكُمْ رِسَالَاتِ رَبِّي وَأَنْصَحُ لَكُمْ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦٢) أَوَعَجِبْتُمْ أَنْ جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَلَى رَجُلٍ مِنْكُمْ لِيُنْذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (٦٣) فَكَذَّبُوهُ فَأَنْجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ (٦٤) » .

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٤ ص ٢٤٥ طبعة المطبعة الشرفية سنة ١٣٢٤ هـ

تلك هى قصة نوح مع قومه كما وردت فى هذه الســــورة ، وقد وردت بصورة أكثر تفصيلا فى سورة هود ، والمؤمنون ، ونوح وغيرها .

وقوله : « لقد أرسلنا نوحا إلى قومه » جواب قسم محذوف ، أى : والله لقد أرسلنا نوحا إلى قومه والدليل على هذا القسم وجود لامه فى بدء الجملة .

قال الآلوسى : « واطرد استعمال هذه اللام مع قد فى الماضى — على ما قال الزمخشرى — وقل الاكتفاء بها وحدها . والسر فى ذلك أن الجملة القسمية لا تساق إلا تأكيدا للجملة المقسم عليها التى هى جوابها ، فكانت مظنة لتوقع المخاطب حصول المقسم عليه ، لأن القسم دل على الاهتمام فناسب ذلك إدخال قد »(١) .

وينتهى نسب نوح — عليه السلام — إلى شيث بن آدم — عليه السلام — وقد ذكر نوح فى القرآن فى ثلاث وأربعين موضعا .

وقوم الرجل أقرباؤه الذين يجتمعون معه فى جد واحد . وقد يقيم الرجل بين الأجانب فيسميهم قومه مجازا للمجاورة .

وكان قوم نوح يعبدون الأصنام فأرسل الله إليهم نوحا ليدلهم على طريق الرشاد .

قال ابن كثير : قال عبد الله بن عباس وغير واحد من علماء التفسير : كان أول ما عبدت الأصنام أن قوما صالحين ماتوا ، فبنى قومهم عليهم مساجد ، وصوروا صور أولئك الصالحين فيها ليتذكروا حالهم وعبادتهم فيتشبهوا بهم ، فلما طال الزمان جعلوا أجسادا على تلك الصور ، فلما تمادى الزمان عبدوا تلك الأصنام وسموها بأسماء أولئك الصالحين : ودا وسواعا ويغوث ويعوق ونسرا فلما تفاقم الأمر بعث الله — تعالى — رســــوله نوحا فأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له »(٢) .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٨ ص ١٤٨ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٣٢ .

وقوله « فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره » حكاية لما وجهه نوح لقومه من إرشادات ، أي : قال لهم بتلطف وأدب تلك الكلمة التي وجهها كل رسول لمن أرسل إليهم : اعبدوا الله وحده لا شريك له ، فإنه هو المستحق للعبادة ، أما سواه فلا يملك لنفسه نفعا أو ضرا .

وكلمة « غيره » قرئت بالحركات الثلاث ، بالرفع على أنها صفة لإله باعتبار محله الذي هو الرفع على الابتداء أو الفاعلية . وقرأ الكسائي بالجر باعتبار اللفظ ، وقرىء بالنصب على الاستثناء بمعنى ، مالكم من إله إلا إياه .

ثم حكى القرآن أن نوحا قد حذر قومه من سوء عاقبة التكذيب ، وأظهر لهم شفقته بهم وخوفه عليهم فقال : « إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » أي : إني أخاف عليكم إذا ما سرتم في طريق الكفر والضلال وتركتم عبادة الله وحده عذاب يوم عظيم . ووصف اليوم بالعظم لبيان عظم ما يقع فيه ولتكميل الإنذار .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت ما موقع الجملتين بعد قوله «اعبدوا الله» قلت : الأولى — وهي مالكم من إله غيره — بيان لوجه اختصاصه بالعبادة ، والثانية وهي — إني أخاف . . . الخ — بيان الداعي إلى عبادته لأنه هو المحذور عقابه دون ما كانوا يعبدونه من دون الله . واليوم العظيم : يوم القيامة ، أو يوم نزول العذاب بهم وهو الطوفان »(١) .

بهذا الأسلوب المقنع المهذب دعا نوح قومه إلى وحدانية الله . فكيف كان ردهم عليه ؟

لقد ردوا عليه ردا سليما حكاه القرآن في قوله : « قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين » .

الملأ : الأشراف والسادة من القوم . سموا بذلك لأنهم يملأون العيون

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ٢٧١

مهابة . وقيل : هم الرجال ليس فيهم نساء . والملأ : اسم جمع لا واحد له من لفظه : كرهط .

والجملة الكريمة مستأنفة ، كأنه قيل فماذا قالوا له ؟ فقيل: قال الملأ . . . الخ والرؤية هنا قلبية ومفعولاها هما الضمير والظرف ، وقيل : بصرية فيكون الظرف فى موضع الحال . أى : قال الأشراف من قوم نوح له عندما دعاهم إلى وحدانية الله: إنا لنراك بأمرك لنا بعبادة الله وحده وترك آلهتنا فى انحراف بين عن طريق الحق والرشاد .

يقال : ضل الطريق يضل وضل عنه ضلالا وضلالة، أى زل عنه فلم يهتد إليه ، وجعلوا الضلال ظرفا له « فى ضلال مبين » مبالغة فى وصفهم له بذلك وزادوا فى المبالغة بأن أكدوا ذلك بالجملة المصدرة بإن ولام التأكيد .

ورحم الله ابن كثير فقد قال عند تفسيره لهذه الآية . وهكذا حال الفجار، إنما يرون الأبرار فى ضلالة ، كقوله — تعالى — « وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون[1] .

« وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه ، وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك قديم[2] » إلى غير ذلك من الآيات[3].

ويرد نوح على قومه بأسلوب عف مهذب ، فينفى عن نفسه الضلالة ، ويكشف لهم عن حقيقة دعوته ومصدرها فيقول ـ كما حكى القرآن عنه ـ :

« قال يا قوم ليس بى ضلالة » أى : قال نوح لقومه مستميلا لقلوبهم : يا قوم ليس بى أدنى شىء مما يسمى بالضلال فضلا عن الضلال المبين الذى رميتمونى به ، فقد نفى الضلال عن نفسه الكريمة على أبلغ وجه ، لأن التاء

---

(١) سورة المطففين الآية ٣٢ .

(٢) سورة الأحقاف الآية ١١ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٢٢ .

فى — ضلالة — للمرة الواحدة منه ، ونفى الأدنى أبلغ من نفى الأعلى ، والمقام يقتضى ذلك ، لأنهم لما بالغوا فى رميه بالضلال المبين ، رد عليهم بما يبرئه من أى لون من ألوانه . وفى تقديم الظرف (بى) تعريض بأنهم هم فى ضلال واضح .

ثم قفى على نفى الضلالة عنه بإثبات مقابلها لنفسه وهى الهداية والتبليغ عن الله - تعالى - فقال : (ولكنى رسول من رب العالمين . أبلغكم رسالات ربى ، وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون) .

فأنت ترى أن نوحاً - عليه السلام - بعد أن نفى عن نفسه أى لون من ألوان الضلالة وصف نفسه بأربع صفات كريمة :

أولها : قوله : (ولكنى رسول من رب العالمين) أى : لست بمنجاة من الضلال الذى أنتم فيه فحسب ، ولكنى فضلا عن ذلك رسول من رب العالمين إليكم لهدايتكم وإنقاذكم مما أنتم فيه من شرك وكفر .

قال الجمل : (وقد جاءت لكن هنا أحسن مجىء لأنها بين نقيضين ، لأن الإنسان لا يخلو عن أحد شيئين : ضلال أو هدى ، والرسالة لا تجامع الضلال و (من رب العالمين) صفة لرسول ومن لابتداء الغاية)[1] .

وثانيها : قوله : أبلغكم رسالات ربى) أى : أبلغكم ما أوحاه الله إلى من الأوامر والنواهى ، والمواعظ والزواجر ، والبشائر والنذائر ، والعبادات والمعاملات .

قال الألوسى : وجمع الرسالات مع أن رسالة كل نبى واحدة ، رعاية لاختلاف أوقاتها أو تنوع معانى ما أرسل - عليه السلام - به من العبادات والمعاملات - ، أو أنه أراد رسالته ورسالة غيره ممن قبله من الأنبياء كإدريس

---

(١) حاشية الجمل جـ ٢ ص ١٥٤

- عليـه السلام -)[١] والجملة الكريمة مستأنفة لتقرير رسالته وتقرير أحكامها .

وثالثها : قوله : (وأنصح لكم) أى : أبلغكم جميع تكاليف الله وأتحرى مافيه صلاحكم وخيركم فأرشدكم إليه وآخذكم نحوه .

وأنصح : مأخوذ من النصح - وهو كما قال القرطبى - إخلاص النية من شوائب الفساد ، يقال : نصحته ونصحت له نصيحة ونصاحة - أى أرشدته إلى مافيه صلاحه - ويقال : رجل ناصح الجيب ، أى : نقى القلب . والناصح الخالص من العسل وغيره ، مثل الناصع . وكل شىء خلص فقد نصح[٢] ..) .

والفرق بين تبليغ الرسالة وبين النصح ، هو أن تبليغ الرسالة معناه أن يعرفهم جميع أوامر الله ونواهيه وجميع أنواع التكاليف التى كلفهم الله بها ، وأما النصح فمعناه أن يرغبهم فى قبول تلك الأوامر والنواهى والعبادات ويحذرهم من عذاب الله إن عصوه .

وأما الصفة الرابعة فهى قوله (وأعلم من الله مالا تعلمون) أى : أبلغكم رسالات ربى وأنصح لكم عن إخلاص ، وأعلم فى الوقت نفسه من الأمور الغيبية التى لا تعلم إلا عن طريق الوحى أشياء لا علم لكم بها ، لأن الله قد خصنى بها .

أو المعنى : وأعلم من قدرة الله الباهرة ، وشدة بطشه على أعدائه ، مالا تعلمونه فأنا أحذركم عن علم ، وأنذركم عن بينة (فاتقوا الله وأطيعون) .

قال ابن كثير : وهذا شأن الرسول أن يكون مبلغا نصيحاً ناصحاً عالماً بالله لا يدركه أحد من خلق الله فى هذه الصفات كما جاء فى صحيح مسلم أن

(١) تفسير الآلوسى جـ ٨ ص ١٥٢

(٢) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٢٣٤

رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال لأصحابه يوم عرفة وهم أوفرما كانوا وأكثر جمعاً : أيها الناس ، إنكم مسئولون عنى ، فما أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت واديت ونصحت . فجعل يرفع إصبعه إلى السماء وينكسها عليهم ، ويقول : اللهم اشهد ، اللهم اشهد[١]) .

وبعد أن وصف نوح نفسه بتلك الصفات الأربع،وبين لهم وظيفته أكمل بيان أخذ ينكر عليهم استبعادهم أن يخصه الله بالنبوة فقال :

(أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ، ولتتقوا ، ولعلكم ترحمون) الهمزة فى أول الجملة للاستفهام الإنكارى ، والواو بعدها للعطف على محذوف مقدر بعد الهمزة .

والمعنى : أكذبتم وعجبتم من أن جاءكم ذكر أى موعظة من ربكم وخالقكم على لسان رجل من جنسكم ، تعرفون مولده ونشأته .

ولقد حكى القرآن عن قوم نوح أنهم عجبوا من أن يختار الله رسولا منهم ، قال ـ تعالى ـ :

(فقال الملأ الذين استكبروا من قومه ماهذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم ، ولوشاء الله لانزل ملائكة ماسمعنا بهذا فى آبائنا الاولين)[٢] .

وقوله (لينذركم) علة للمجىء، أى : وليحذركم العذاب والعقاب على الكفر والمعاصى .

وقوله (ولتتقوا) علة ثانية مرتبة على العلة التى قبلها ، أى : ولتوجد منكم التقوى ، وهى الخشية من الله بسبب الإنذار .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٢٢٣

(٢) سورة المؤمنون : الآية ٢٤

وقوله « ولعلكم ترحمون » علة ثالثة مترتبة على التى قبلها . أى : ولترحموا بسبب التقوى إن وجدت منكم .

قال بعض العلماء : وهذا : الترتيب فى غاية الحسن ، لأن المقصود من الإرسال الإنذار ، ومن الإنذار التقوى . ومن التقوى الفوز بالرحمة .

وفائدة حرف الترجى « ولعلكم » التنبيه على عزة المطلب ، وأن التقوى غير موجبة للرحمة ، بل هى منوطة بفضل الله ، وأن المتق ينبغى ألا يعتمد على تقواه ولا يأمن عذاب الله »(١) .

وإلى هنا نكون قد عرفنا أسلوب نوح فى دعوته كما جاء فى هذه السورة الكريمة ، فماذا كان موقف قومه ؟

لقد صرحت السورة الكريمة بأن موقفهم كان قبيحا ، ولهذا عوقبوا بما يناسب جرمهم قال — تعالى — « فكذبوه » أى : فكذب قوم نوح نبيهم ومرشدهم نوحا ، وأصروا على التكذيب مع أنه دعاهم إلى الهدى ليلا ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، ومع أنه مكث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما ، فكانت نتيجة ذلك - كما حكى القرآن :

« فأنجيناه والذين معه فى الفلك » أى : فأنجيناه من الغرق هو والذين آمنوا معه بأن حملناهم فى السفينة التى صنعها . والفاء فى « فأنجيناه » للسببية .

قيل كان عدد الذين آمنوا معه أربعين رجلا وأربعين امرأة . وقيل غير ذلك ، والقرآن قد صرح بأن المؤمنين به كانوا قلة ، فقال : « وما آمن معه إلا قليل » .

« وأغرقنا الذين كذبوا بآياتنا إنهم كانوا قوما عمين » عمين : جمع عم صفة مشبهة ، يقال : هو عم - كفرح - لأعمى البصيرة .

---

(١) حاشية الجمل حـ ٢ ص ١٥٥ .

أى : وأغرقنا بالطوفان أولئك الذين كذبوا بآياتنا من قوم نوح لأنهم كانوا قوماً عمى البصائر عن الحق والإيمان . لا تنفع فيهم المواعظ ولم يجد معهم التذكير .

وهذه سنة الله فى خلقه أن جعل حسن العاقبة للمؤمنين ، وسوء العذاب للجاحدين .

ثم تحكى لنا السورة بعد ذلك قصة هود — عليه السلام — مع قومه ، فيقول :

« وَإِلَى عادٍ أخاهُمْ هُوداً ، قالَ يا قومِ اعْبُدُوا اللهَ ما لكُمْ مِنْ إلهٍ غيْرُهُ ، أفلا تتَّقُونَ (٦٥) قالَ الملأُ الذينَ كفَرُوا مِنْ قومِهِ ، إنَّا لنراكَ فى سفاهةٍ وإنَّا لنَظُنُّكَ مِنَ الكاذِبِينَ (٦٦) قالَ يا قومِ ليْسَ بِى سفاهَةٌ ولكنِّى رسولٌ مِنْ رَبِّ العالَمِينَ (٦٧) أُبلغُكُم رِسَالاتِ رَبِّى وَأَنَا لكُمْ ناصِحٌ أمِينٌ (٦٨) أَوَ عَجِبْتُمْ أَنْ جاءَكُم ذِكْرٌ مِنْ ربكم على رَجُلٍ مِنكم لِيُنْذِرَكُم ، واذكُرُوا إذْ جعلكم خُلفاء مِنْ بَعْدِ قوْمِ نُوحٍ وزَادَكُم فى الْخلْقِ بَسْطَةً ، فاذكرُوا آلاءَ اللهِ لعلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٦٩) قالوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللهَ وحدَهُ وَنَذَرَ ما كانَ يَعْبُدُ آباؤُنا فأْتِنا بما تَعِدُنَا إنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧٠) قالَ قَدْ وَقَعَ عليكُمْ مِنْ رَبِّكُم رِجْسٌ وغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِى فى أسماءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وآباؤُكُم ما نَزَّلَ اللهُ بها مِنْ سلطانٍ ، فانْتَظِرُوا إنِّى معَكُمْ مِنَ المُنْتَظِرِينَ (٧١) فأنجيْنَاهُ والَّذِينَ مَعَهُ برحْمَةٍ مِنَّا ، وقطعْنَا دَابِرَ الذِينَ كَذَّبُوا بآياتِنا وما كانوا مُؤْمِنِينَ (٧٢) » .

تلك هى قصة هود ـ عليه السلام ـ مع قومه كما حكتها سورة الأعراف . وقد وردت ـ أيضاً ـ فى سور أخرى ، منها : سورة هود ، والشعراء ، والأحقاف . . . ألخ .

وينتهى نسب هود إلى نوح ـ عليهما السلام كما قال بعض المؤرخين ـ فهو هود بن عبد الله بن رباح بن الخلود بن بن عاد بن عوص بن إرم بن سام ابن نوح[1] .

وقومه هم قبيلة عاد — نسبة إلى أبيهم الذى كان يسمى بهذا الاسم — وكانت مساكنهم بالاحقاف باليمن — والأحقاف جمع حقف وهو الرمل الكثير المائل .

وكانوا يعبدون الأصنام من دون الله ، فأرسل الله إليهم هوداً لهدايتهم. ويقال بأن هوداً ـ عليه السلام ـ قد أرسله الله إلى عاد الأولى، أما عاد الثانية فهم قوم صالح ، وبينهما مائة سنة .

وقوله « وإلى عاد أخاهم هوداً قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » ألخ معطوف على قوله ـ تعالى ـ « لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه» والمعنى:

وأرسلنا إلى قبيلة عاد أخاهم هوداً فقال لهم ما قاله كل نبي لقومه : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره .

ووصفه بأنه أخاهم لأنه من قبيلتهم نسباً ، أو لأنه أخوهم فى الإنسانية . ثم حكى القرآن أن هوداً أنكر على قومه عبادتهم لغير الله ، وحضهم على إفراده بالعبادة فقال : « أفلا تتقون » أى : أفلا تخافون عذاب الله فتبتعدوا عن طريق الشرك والضلال لتنجوا من عقابه .

قال أبو حيان : وفى قوله « أفلا تتقون » استعطاف وتحضيض على تحصيل

---

(١) قصص الأنبياء ص ٥٠ للشيخ عبد الوهاب النجار .

التقوى . ولما كان ما حل بقوم نوح من أمر الطوفان واقعة لم يظهر في العالم مثلها قال لهم : « إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم » وواقعة هود كانت مسبوقة بواقعة نوح وعهد الناس قريب بها فاكتفى هود بقوله لهم « أفلا تتقون » . والمعنى تعرفون أن قوم نوح لما لم يتقوا الله وعبدوا غيره حل بهم ذلك العذاب الذي اشتهر خبره في الدنيا ، فقوله « أفلا تتقون » إشارة إلى التخويف بتلك الواقعة المشهورة[1] » .

وكأنما عظم على هؤلاء الطغاة أن يستنكر عليهم هود - عليه السلام - عبادتهم لغير الله ، فردوا عليه ردا قبيحا حكاه القرآن في قوله :

« قال الملأ الذين كفروا من قومه ، إنا لنراك في سفاهة » أي : قال الأغنياء الذين كفروا من قوم هود له : إنا لنراك متمكنا في خفة العقل ، راسخا فيها ، حيث هجرت دين قومك إلى دين آخر . وجعلت السفاهة ظرفاً على طريق المجاز ، فقد أرادوا أنه متمكن فيها ، غير منفك عنها .

وأصل السفه : الخفة والرقة والتحرك والاضطراب . يقال : ثوب سفيه إذا كان رديء النسج خفيفة ، أو كان باليا رقيقاً : تسفهت الريح الشجر : مالت به . وزمام سفيه : كثير الاضطراب لمنازعة الناقة إياه . وشاع السفه في خفة العقل وضعف الرأي .

ولم يكتفوا بوصفه بالسفه بل أضافوا إلى ذلك قولهم : « وإنا لنظنك من الكاذبين » أي : وإنا لنظنك من الكاذبين في دعوى التبليغ عن الله تعالى .

وأكدوا ظنهم الآثم كما أكدوا اتهامهم له بالسفه مبالغة منهم في الإساءة إليه . ويرجح بعض العلماء أن الظن هنا على حقيقته ، لأنهم لو قالوا وإنا لنعتقد أنك من الكاذبين ، لكانوا كاذبين على أنفسهم في ذلك ، لأنهم يعلمون منه الصدق وحسن السيرة .

---

(١) تفسير البحر المحيط جـ ٤ ص ٣٢٣ لأبي حيان .

ومن بلاغة القرآن وإنصافه فى أحكامه أنه قيد القائلين لهود هذا القول الباطل بأنهم « الملأ الذين كفروا من قومه » ليخرج منهم الملأ - أى الأشراف الذين آمنوا من قومه .

وبعد هذا الرد القبيح منهم ، أخذ هود يدافع عن نفسه ويبين لهم وظيفته بأسلوب حكيم فقال :

« يا قوم ليس بى سفاهة » أى : ليس بى أى نوع من أنواع السفاهة كما تزعمون « ولكنى رسول من رب العالمين : أبلغكم رسالات ربى وأنا لكم ناصح أمين » .

فأنت ترى أن هودا فى هذا الرد الحكيم على قومه ، قد نفى عن نفسه تهمة السفاهة كما نفى أخوه نوح من قبله عن نفسه تهمة الضلالة ، ثم بين لهم بعد ذلك وظيفته وطبيعة رسالته ، ثم أخبرهم بعد ذلك بأنه بمقتضى أخوته لهم ليس معقولا أن يكذب عليهم أو يخدعهم - فإن الرائد لا يكذب أهله - ، وإنما هو ناصح أمين يهديهم إلى مايصلحهم ويبعدهم عما يسوءهم :

قال صاحب الكشاف : « وفى إجابة الأنبياء - عليهم السلام - على من نسبهم إلى الضلالة والسفاهة بما أجابوهم به من الكلام الصادر عن الحلم والاغضاء ، وترك المقابلة بما قالوا لهم ، مع علمهم بأن خصومهم أضل الناس وأسفههم - فى إجابتهم هذه أدب حسن ، وخلق عظيم ، وحكاية الله - عز وجل - ذلك ، تعليم لعباده كيف يخاطبون السفهاء ، وكيف يغضون عنهم ويسبلون أذيالهم على ما يكون منهم »[١] .

ونلمس من خلال التعبير القرآنى أن قوم هود قد تعجبوا من اختصاص هود بالرسالة كما تعجب قوم نوح من قبلهم من ذلك ، فأخذ هود - عليه السلام - فى إزالة هذا العجب من نفوسهم ، فقال :

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ صـ ١١٦

« أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم » أى : أكذبتم وعجبتم من أن جاءكم ذكر وموعظة من ربكم على لسان رجل منكم تعرفون صدقه ونسبه وحسبه ، إن ما عجبتم له ليس موقع عجب ، بل هو عين الحكمة فقد إقتضت رحمة الله أن يرسل لعباده من بينهم من يرشدهم إلى الطريق القويم و « الله أعلم حيث يجعل رسالته » .

ثم أخذ فى تذكيرهم بواقعهم الذى يعيشون فيـــه لكى يحملهم على شكر الله فقال :

« واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح » أى : اذكروا بتأمل واعتبار فضل الله عليكم ونعمه حيث جعلكم مستخلفين فى الأرض من بعد قوم نوح الذين أغرقوا بالطوفان لكفرهم وجحودهم .

قال الآلوسى ما ملخصه : و « إذ منصوب على المفعولية لقوله « اذكروا » أى : اذكروا هذا الوقت المشتمل على النعم الجسام . وتوجيه الأمر بالذكر إلى الوقت دون ما وقع فيه مع أنه المقصود بالذات للمبالغة فى إيجاب ذكره ، ولأنه إذا استحضر الوقت كان هو حاضرا بتفاصيله . وهو معطوف على مقدر كأنه قيل : لاتعجبوا وتدبروا فى أمركم واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح »[1]

ثم ذكرهم بنعمة ثانية فقـال : « وزادكم فى الخلق بسطة » أى : زادكم فى المخلوقات بسطه وسعة فى الملك والحضـارة : أو زادكم بسطة فى قـوة أبدانكم وضخامة أجسامكم ، ومن حق هذا الإستخلاف وتلك القوة ، أن تقابلا بالشكر لله رب العالمين .

وقد ذكر بعض المفسرين روايات تتعلق بضخامة أجسام قوم هود وقوتهم وهى روايات ضعيفة لايعتدبها، ولذا أضربنا عنها، ويكفينا أن القرآن الكريم

(١) تفسير الآلوسى جـ ٨ ص ١٥٦

قد أشار إلى قوتهم وجبروتهم بدون تفصيل لذلك كما فى قوله — تعالى — : « وإذا بطشتم بطشتم جبارين » وكما فى قوله : « كأنهم أعجاز نخل خاوية » .

ثم كرر هود — عليه السلام — تذكيرهم بنعم الله فقال : « فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون » . أى : فاذكروا نعم الله واشكروها له لعلكم تفوزون بما أعده للشاكرين من إدامتها عليهم وزيادتها لهم ، ولن تكونوا كذلك إلا بعبادتكم له وحده ـ عز وجل ـ

وآلاء الله : نعمه الكثيرة . والآلاء جمع إلى كحمل وأحمال . أو إلى ، كقفل وأقفال . أو الى ، كمعى وأمعاء

والى هنا يكون هود ـ عليه السلام ـ قد رد على قومه رداً مقنعا حكيما ، كان المتوقع من ورائه أن يستجيبوا له ، وأن يقبلوا على دعوته ، ولكنهم لسوء تفكيرهم وانطماس بصيرتهم ، أخذتهم العزه بالإثم فقالوا لنبيهم ومرشدهم .

« أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين » أى : قالوا له على سبيل الإنكار والإستهزاء أجئتنا يا هود لأجل أن نعبد الله وحده ، ونترك ما كان يعبد آباؤنا من الأوثان والأصنام إن هذا لن يكون منا أبداً فأتنا بما تعدنا به من العذاب ان كنت من الصادقين فيما تخبر به .

وننظر فى هذا الرد من قوم هود فنراه طافحا بالتهور والتحدى والاستهزاء واستعجال العذاب .

حتى لكأن هودا ـ عليه السلام ـ يدعوهم الى منكر لايطيقون سماعه ولا يصبرون على الجدل فيه ! !

أليس هو يدعوهم الى وحدانية الله وإفراده بالعباده وترك ما كان يعبد آباؤهم ، وهذا فى زعمهم أمر منكر لا يطيقون الصبر عليه .

وهكذا يستحوذ الشيطان على قلوب بعض الناس وتفكيرهم فيصور لهم الحسنات فى صورة سيئات والسيئات، فى صورة حسنات .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : مامعنى المجىء فى قوله « أجئتنا » ، قلت فيه أوجه . أن يكون لهود ـ عليه السلام ـ مكان معتزل عن قومه يتحنث فيه كما كان يفعل رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بحراء قبل المبعث ، فلما أوحى إليه جاء قومه يدعوهم . وأن يريدوا به الاستهزاء ، لأنهم كانوا يعتقدون أن الله ـ تعالى ـ لا يرسل إلا الملائكة ، فكأنهم قالوا : أجئتنا من السماء كما يجىء الملك . وأنهم لايريدون حقيقة المجىء . ولكن التعرض بذلك والقصد كما يقال : ذهب يشتمنى ولا يراد حقيقة الذهاب ، كأنهم قالوا أقصدتنا لنعبد الله وحده وتعرضت لنا بتكليف ذلك »[1] .

وقولهم « فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين » يدل على أنه كان يتوعدهم بالعذاب من الله . إذا استمروا على شركهم ، ويدل ـ أيضا ـ على تصميمهم على الكفر ، واحتقارهم لأمر هود ـ عليه السلام ـ واستعجالهم إياه بالعقوبة على سبيل التحدى ، لأنهم كانوا يتوهمون أن العقوبة لن تقع عليهم أبداً .

وإزاء هذا التحدى السافر من قوم هود له ولدعوته ولو عبد الله لهم ، ما كان من هود ـ عليه السلام ـ إلا أن جابهم بالرد الحاسم الذى تتجلى فيه الشجاعة التامة ، والثقة الكاملة بأن الله سينصره عليهم وينتقم له منهم :

« قال قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب » أى : قال هود لقومه بعد أن لجوا فى طغيانهم : قد حق ووجب عليكم من قبل ربكم عذاب وسخط بسبب إصراركم على الكفر والعناد .

والرجس والرجز بمعنى ، وأصل معناه الاضطراب يقال : رجست السماء

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١١٧ .

أى : رعدت رعـــداً شديداً ، وهم فى مرجوسة من أمرهم أى : فى اختلاط والتباس . ثم شاع فى العذاب لاضطراب من حل به .

وعبر عن العذاب المتوقع وقوعه بأنه « قد وقع » مبالغة فى تحقيق الوقوع ، وأنه أمر لا مفر لهم منه .

وعطف الغضب على الرجس ، للإشارة إلى أن ماسينزل بهم من عذاب هو انتقام لا يمكن دفعه ، لأنه صادر من الله الذى غضب عليهم بسبب كفرهم، وبعد أن أنذرهم هددهم بوقوع العذاب عليهم، ووبخهم على مجادلتهم إياه بدون علم فقال : « أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ؟

أى : أتجادلوننى وتخاصموننى فى شأن أشياء ماهى إلا أسماء ليس تحتها مسميات ، لأنكم تسمونها آلهة مع أن معنى الإلهية فيها معدوم ومحال وجوده إذ المستحق للعبادة إنما هو الله الذى خلق كل شىء ، أما هذه الأصنام التى زعمتم أنها آلهة فهى لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا .

فأنت ترى أن هوداً — عليه السلام — قد حول آلهتهم إلى مجرد أسماء لا تبلغ أن تكون شيئا وراء الاسم الذى يطلق عليها ، وهذا أعمق فى الإنكار عليهم ، والاستهزاء بعقولهم .

وقوله « ما أنزل الله بها من سلطان » أى: ماأنزل الله بها من حجة أو دليل يؤيد زعمكم فى ألوهيتها أو فى كونها شفعاء لكم عند الله ، وإنما هى أصنام باطلة قلدتم آباءكم فى عبادتها بدون علم أو تفكير .

ثم هدد بالعاقبة المقررة المحتومة فقال: « فانتظروا إنى معكم من المنتظرين أى : فانتظروا نزول العذاب الذى استعجلتموه وطلبتموه حين قلتم « فأتنا بما تعدنا » فإنى معكم من المنتظرين لما سيحل بكم بسبب شرككم وتكذيبكم .

ولم يطل انتظار هود عليهم ، فقد حل بهم العقاب الذى توعدهم به سريعة ولذا قال — تعالى — « فأنجيناه والذين معه برحمة منا » الفاء فصيحة . أى :

فوقع ماوقع فأنجينا هودا والذين اتبعوه فى عقيدته برحمة عظيمة منا لا يقدر عليها غيرنا .

« وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا » أى : استأصلناهم عن آخرهم بالريح العقيم التى « ماتذر من شىء أتت عليه إلا جعلته كالرميم » .

فقطع الدابر كناية عن الاستئصال والاهلاك للجميع يقال قطع الله دابره أى : أذهب أصله .

وقوله « وما كانوا مؤمنين » عطف على « كذبوا » داخل معه حكم الصلة أى : أصروا على الكفر والتكذيب ولم يرجعوا عن ذلك أصلا .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : مافائدة نفى الايمان عنهم فى قوله . . « وما كانوا مؤمنين » مع إثبات التكذيب بآيات الله ؟ قلت : هو تعريض بمن آمن منهم - كمرثد بن سعد - ومن نجا مع هود - عليه السلام - كأنه قال : وقطعنا دابر الذين كذبوا منهم ، ولم يكونوا مثل من آمن منهم ليؤذن أن الهلاك للمكذبين ونجى الله المؤمنين »[1] .

وهكذا طويت صفحة أخرى من صحائف المكذبين ، وتحقق النذير فى قوم هود كما تحقق قبل ذلك فى قوم نوح .

ثم قصت علينا السورة بعد ذلك قصة صالح - عليه السلام - مع قومه فقالت :

« وإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صالحاً قالَ يا قومِ اعبُدُوا اللَّهَ ما لَكُمْ مِّنْ إلهٍ غيْرُه ، قدْ جاءتْكُم بيِّنةٌ مِّنْ رَبِّكُم ، هـــذهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فى أرْضِ اللهِ ولا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فيَأْخُذَكُم عذابٌ

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١١٩

يوم أليم (٧٣) واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتاً فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين (٧٤) قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم ، أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه ؟ قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون (٧٥) قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون (٧٦) فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم ، وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا إن كنت من المرسلين (٧٧) فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين (٧٨) فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم ، ولكن لا تحبون الناصحين (٧٩) » .

هذه قصة صالح مع قومه كما حكتها سورة الأعراف ، وقد وردت هذه القصة في سور أخر كسور هود والشعراء والنمل والقمر وغيرها .

وصالح - كما قال الحافظ البغوي - هو ابن عبيد بن آسف بن ماسح بن عبيد ابن حاذر بن ثمود : وينتهي نسبه إلى نوح - عليه السلام - .

وثمود اسم للقبيلة التي منها صالح سميت باسم جدها ثمود ، وقيل سميت بذلك لقلة مائها لأن الثمد هو الماء القليل .

وكانت مساكنهم بالحجر - بكسر الحاء وسكون الجيم - ، والحجر مكان يقع بين الحجاز والشام إلى وادي القرى ، وموقعه الآن - تقريباً - المنطقة التي بين الحجاز وشرق الأردن ، ومازال المكان الذي كانوا يسكنونه يسمى بمدائن صالح إلى اليوم ، وقد مر النبي - صلى الله عليه وسلم - على ديارهم وهو ذاهب إلى غزوة تبوك سنة تسع من الهجرة

وقبيلة صالح من قبائل العرب ، وكانوا خلفاء القوم هود - عليه السلام - بعد أن هلكوا فورثوا أرضهم ، وآتاهم الله نعما وفيرة ، وكانوا يعبدون الأصنام فأرسل الله إليهم نبيهم صالحا مبشرا ونذيرا .

قال - تعالى - « وإلى ثمود أخاهم صالحا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم » .

أي : وأرسلنا إلى ثمود أخاهم فى النسب والموطن صالحا - عليه السلام - فقال لهم الكلمة التى دعا بها كل نبي قومه : ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله سواه ، قد جاءتكم معجزة ظاهرة الدلائل ، شاهدة بنبوتى وصدقى فيما أبلغه عن ربى .

وقوله « من ربكم » متعلق بمحذوف صفة لبينة ، أى هذه البينة كائنة من ربكم وليست من صنعى فعليكم أن تصدقونى لأنى مبلغ عن الله - تعالى - .

ثم كشف لهم عن معجزته وحجته فقال : « هذه ناقة الله لكم آية » ، أى : هذه التى ترونها وأشير إليها ناقة الله ، والتى جعلها - سبحانه - علامة لكم على صدقى .

وأضاف الناقة إلى الله للتفضيل والتخصيص والتعظيم لشأنها . وقيل لأنه - سبحانه - خلقها على خلاف سننه فى خلق الإبل وصفاتها ، وقيل لأنها لم يكن لها مالك .

وقد ذكر المفسرون عنها قصصاً لا تخلو من ضعف ، لذا اكتفينا بما ورد فى شأنها فى القرآن الكريم .

ثم أرشدهم إلى ما يجب عليهم نحوها فقال : « فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم » .

أى اتركوا الناقة حرة طليقة تأكل فى أرض الله التى لا يملكها أحد سواه

ولا تعتدوا عليها بأى لون من ألوان الاعتداء ، لأنكم لو فعلتم ذلك أصابكم عذاب أليم .

والفاء فى قوله « فذروها » للتفريع على كونها آية من آيات الله ، فيجب إكرامها وعدم التعرض لها بسوء . و « تأكل » مجزوم فى جواب الأمر .

وأضيفت الأرض إلى الله ـ أيضا ـ قطعا لعذرهم فى التعرض لها فكأنه يقول لهم ، الأرض أرض الله والناقة ناقته ، فذروها تأكل فى أرضه لأنها ليست لكم ، وليس مافيها من عشب ونبات من صنعكم ، فأى عذر لكم فى التعرض لها ؟

وفى نهيهم عن أن يمسوها بسوء تنبيه بالأدنى على الأعلى ، لأنه إذا كان قد نهاهم عن مسها بسوء إكراما لها فنهيهم عن نحرها أو عقرها أو منعها من الكلأ والماء من باب أولى . فالجملة الكريمة وعيد شديد لمن يمسها بسوء .

وقوله « فيأخذكم عذاب عظيم » الفعل المضارع منصوب فى جواب النهى .

وبعد أن بين لهم صالح ـ عليه السلام ـ وظيفته ، وكشف لهم عن معجزته ، وأنذرهم بسوء العاقبة إذا ما خالفوا أمره ، أخذ فى تذكيرهم بنعم الله عليهم . وبمصائر الماضين قبلهم .

فقال ـ كما حكى القرآن عنـــه ـ : « واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد » .

أى : واذكروا بتدبر واتعاظ نعم الله عليكم حيث جعلكم خلفاء لقبيلة عاد فى الحضارة والعمران والقوة والبأس ، بعد أن أهلكهم الله بسبب طغيانهم وشركهم .

وقوله « وبوأكم فى الأرض » أى : أنزلكم فيها وجعلها مباءة ومساكن لكم . يقال : بوأه منزلا ، أى : أنزله وهيأه له ومكن له فيه .

والمراد بالأرض : أرض الحجر التى كانوا يسكنونها وهى بين الحجاز والشام « تتخذون من سهولها قصورا وتنحتون الجبال بيوتا » .

السهول: الأراضى السهلة المنبسطة . والجبال: الأماكن المتحجرة المرتفعة.

أى أنزلكم فى أرض الحجر ، ويسر لكم أن تتخذوا من سهولها قصورا جميلة ، ودورا عالية ، ومن جبالها بيوتا تسكنونها بعد نحتكم إياها .

يقال : نحته ينحته ـ كيضربه وينصره ويعلمه ـ أى : براه وسواه .

قيل إنهم كانوا يسكنون الجبال فى الشتاء لما فى البيوت المنحوتة من القوة التى لا تؤثر فيها الأمطار والعواصف ، ولما فيها من الدفء . أما فى غير الشتاء فكانوا يسكنون السهول لأجل الزراعة والعمل ومن التعبير القرآنى نلمح أثر النعمة والتمكين فى الأرض لقوم صالح ، وندرك طبيعة الموقع الذى كانوا يعيشون فيه ، فهو سهل وجبل ، يتخذون فى السهل القصور ، وينحتون فى الجبال البيوت ، فهم فى حضارة عمرانية واضحة المعالم ، ولذا نجد صالح ـ عليه السلام ـ يكرر عليهم التذكير بشكر النعم فيقول :

« فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين » .

أى : فاذكروا بتدبر واتعاظ نعم الله عليكم ، واشكروه على هذه النعم الجزيلة ، وخصوه وحده بالعبادة ، ولا تتمادوا فى الفساد حال إفسادكم فى الارض .

والمقصود النهى عما كانوا عليه من التمادى فى الفساد . مأخوذ من العثى وهو أشد الفساد . يقال : عثى ـ كرضى ـ عثوا إذ أفسد أشد الإفساد .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد ذكرت لنا جانبا من النصائح التى وجهها صالح لقومه فماذا كان موقفهم منه .

لقد كان موقفهم لا يقل فى القبح والتطاول والعناد عن موقف قوم نوح وقوم هود ، وهاك ما حكاه القرآن عنهم :

« قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه » ؟

أي : قال المترفون المتكبرون من قوم صالح المؤمنين المستضعفين الذين هداهم الله إلى الحق : أتعلمون أن صالحا مرسل من ربه إليكم لعبادته وحده لا شريك له ؟

وهو سؤال قصد المترفون منه تهديد المؤمنين والاستهزاء بهم ، لأنهم يعلمون أن المؤمنين يعرفون أن صالحا مرسل من ربه .

ولذا وجدنا المؤمنين لا يردون عليهم بما يقتضيه ظاهر السؤال بأن يقولوا لهم : نعم أنه مرسل من ربه ، وإنما ردوا عليهم بقولهم : « إنا بما أرسل به مؤمنون » ، مسارعة منهم إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل ، وإظهاراً للإيمان الذي استقر في قلوبهم ، وتنبيها على أن أمر إرسال صالح - عليه السلام - من الظهور والوضوح بحيث لا ينبغي لعاقل أن يسأل عنه ، وإنما الشيء الجدير بالسؤال عنه هو الإيمان بما جاء به هذا الرسول الكريم ، والامتثال لما يقتضيه العقل السليم . وهو رد من المؤمنين المستضعفين يدل على شجاعتهم في الجهر بالحق وعلى قوة إيمانهم ، وسلامة يقينهم .

وقوله : « لمن آمن منهم » بدل من « الذين استضعفوا » بإعادة الجار بدل كل من كل ، والضمير في « منهم » يعود على قوم صالح .

وهنا يعلن المستكبرون عن موقفهم في عناد ، وصلف وجحود ، واستمع إلى القرآن وهو يحكي ذلك فيقول : « قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون » .

أي : قال المستكبرون ردا على المؤمنين الفقراء : إنا بما آمنتم به كافرون ولم يقولوا إنا بما أرسل به كافرون ، إظهارا لمخالفتهم إياهم ، وردا على مقالتهم « إنا بما أرسل به مؤمنون » .

قال صاحب الإنتصاف : ولو طابقوا بين الكلامين لكان مقتضى المطابقة أن يقولوا ، بما أرسل به كافرون ولكنهم أبو ذلك حذرا بما فى ظاهره من إثباتهم لرسالته ، وهم يجحدونها ، وقد يصدر مثل ذلك على سبيل التهكم ، كما قال فرعون : إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون ، فأثبت إرساله تهكما ، وليس المقام هنا مقام التهكم ، فإن الغرض إخبار كل واحد من الفريقين المؤمنين والمكذبين عن حاله ، فرد كل فريق على الآخر بما يناسبه ، (١)

ثم أتبع المستكبرون قولهم القبيح بفعل أقبح يتجلى فى قوله - تعالى - عنهم: « فعقروا الناقة ، أى: نحروها وأصل العقر: قطع عرقوب البعير ، ثم استعمل فى النحر ، لأن ناحر البعير يعقره ثم ينحره .

أى : عقروا الناقة التى جعلها الله حجة لنبيه صالح - عليه السلام - والتى قال لهم صالح فى شأنها « لا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم » .

وأسند العقر إلى جميعهم لأنه كان برضاهم ، وإن لم يباشره إلا بعضهم ويقال للقبيلة الكبيرة أنتم فعلتم كذا مع أن الفاعل واحد منهم، لكونه بين أظهرهم .

وقوله : « وعتوا عن أمر ربهم » أى : استكبروا عن امتثال أوامره واجتناب نواهيه . من العتو وهو النبو ، أى : الارتفاع عن الطاعة والتكبر عن الحق والغلو فى الباطل . يقال : عتا يعتو عتيا ، إذا تجاوز الحد فى الاستكبار . فهو عات وعتى .

وقد إختار القرآن كلمة « عتوا » لإبراز ما كانوا عليه من تجبر وتبجح وغرور خلال إقترافهم المعاصى والجرائم التى من أبرزها عقر الناقة ،فهم قد فعلوا ما فعلوا عن تعمد وإصرار على إرتكاب المنكر .

---

(١) الانتصاف على الكشاف - ٨ ص ١٢٣ لابن المنير .

ثم لم يكتفوا بكل هذا ، بل قالوا لنبيهم فى سفاهة وتطاول : « ياصالح ائتنا ، بما تعدنا إن كنت من المرسلين » .

نادوه باسمه تهوينا لشأنه ، وتعريضا بما يظنون من عجزه ؛ وقالوا له على سبيل تعجل العذاب الذى توعدهم به إذا استمروا فى طغيانهم ائتنا بما توعدتنا به إن كنت صادقا فى رسالتك .

ولقد كان رد القدر على تبجحهم وعتوهم واستكبارهم سريعا ، قال تعالى « فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين » :

الرجفة : الزلزلة الشديدة . يقال : رجفت الأرض ترجف رجفا ، إذا إضطربت وزلزت ؛ ومنه الرجفان للاضطراب الشديد .

وجاثمين : من الجثوم وهو للناس والطير بمنزلة البروك للابل ، يقال جثم الطائر يجثم جثما وجثوما فهو جاثم إذا وقع على صدره أو لزم مكانه فلم يبرحه .

والمعنى : فأخذت أولئك المستكبرين الرجفة ، أى : الزلزلة الشديدة فأهلكتهم ، فأصبحوا فى بلادهم أو مساكنهم باركين على الركب ، ساقطين على وجوههم ، هامدين لايتحركون . وما ظلمهم الله ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

ويتركهم القرآن على هيئتهم جاثمين ، ليتحدث عن نبيهم صالح الذى كذبوه فيقول : « فتولى عنهم وقال : يا قوم لقد أبلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لاتحبون الناصحين » .

أى : فأعرض عنهم نبيهم صالح ، ونفض يديه منهم ، وتركهم للمصير الذى جلبوه على أنفسهم ، وأخذ يقول متحسراً على ما فاتهم من الايمان : ياقوم لقد أبلغتكم رسالة ربى كامله غير منقوصة ، ونصحت لكم بالترغيب

تارة وبالترهيب أخرى ، ولكن كان شأنكم الاستمرار على بغض الناصحين وعداوتهم .

هذا وقد وردت أحاديث تصرح بأن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ قد مر على ديار ثمود المعروفة الآن بمدائن صالح وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع من الهجرة ، فأمر أصحابه أن يدخلوها خاشعين وجلين كراهة أن يصيبهم ما أصاب أهلها ، ونهاهم عن أن يشربوا من مائها .

روى الامام أحمد عن ابن عمر قال : نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالناس عام تبوك ، نزل بهم الحجر عند بيوت ثمود فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود فعجنوا منها ونصبوا القدور باللحم ، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسلم فأهرقوا القدور ، وعلفوا العجين الابل ، ثم ارتحل بهم على البئر التي كانت تشرب منها الناقة ، ونهاهم أن يدخلوا على القوم الذين عذبوا وقال : إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، فلا تدخلوا عليهم [١]

وروى الشيخان عن ابن عمر قال : لما مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالحجر قال : لا تدخلوا على هؤلاء المعذبين إلا أن تكونوا باكين ، فإن لم تكونوا باكين فلا تدخلوا عليهم ، أن يصيبكم مثل ما أصابهم ، ثم قنع رأسه وأسرع السير حتى جاوزوا الوادي [٢] .

وهكذا طويت صفحة أخرى من صحائف المكذبين ، وحلت العقوبة بمن كانوا يتعجلونها ويستهزءون بها .

ثم حكت لنا السورة بعد ذلك جانبا مما دار بين لوط وقومه فقالت :

---

(١) مسند الامام أحمد جـ ٢ ص ١٢٧ طبعة الحلبي .

(٢) أخرجه البخاري في كتاب المغازي : باب نزول النبي ـ ص ـ الحجر الحديث رقم ٢٨٤ محمد فؤاد عبد الباقي . وأخرجه مسلم في كتاب الزهد والرقائق حديث ٣٨

« ولُوطاً إذْ قالَ لِقَوْمِهِ أَتأْتُونَ الفَاحشةَ ما سَبقكُمْ بها مِنْ أَحَدٍ مِنَ العالمينَ (٨٠) إنكُم لتَأْتُونَ الرجَالَ شَهوةً مِنْ دُونِ النِّسَاء بَلْ أَنْتُم قومٌ مُسْرِفونَ (٨١) وما كانَ جوَابَ قَوْمِهِ إلاَّ أَنْ قَالُوا أَخْرِجُوهم مِنْ قَرْيتكُمْ إنَّهُمْ أُناسٌ يَتَطَهَّرُونَ (٨٢) فأَنجَيْنَاهُ وأَهْلَهُ إلاَّ امْرَأَتَهُ كانَتْ مِنَ الغَابِرينَ (٨٣) وأَمْطَرْنَا عليهم مَطراً فانْظُرْ كَيفَ كَانَ عاقبةُ المُجْرِمِينَ (٨٤) » .

قال ابن كثير : لوط هو ابن هاران بن آزر وهو ابن أخي إبراهيم ، وكان قد آمن مع إبراهيم وهاجر معه إلى أرض الشام ، فبعثه الله إلى أهل سدوم وما حولها من القرى يدعوهم إلى الله - تعالى - ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عما كانوا يرتكبونه من المآثم والمحارم والفواحش التي اخترعوها لم يسبقهم بها أحد من بني آدم ولا من غيرهم ، وهو إتيان الذكور دون الاناث ، وهذا شيء لم يكن بنو آدم تعهده ولا تألفه ولا يخطر ببالهم ، حتى صنع ذلك أهل سدوم - وهي قرية بوادي الأردن - عليهم لعائن الله [(١)] » .

وقوله - تعالى - « ولوطا » منصوب بفعل مضمر معطوف على ما سبق أي : وأرسلنا لوطا و « إذ قال لقومه » ظرف لأرسلنا ، وجوز أن يكون « لوطا » منصوبا باذكر محذوفا فيكون من عطف القصة على القصة ، و « إذ » بدل من لوط بدل اشتمال بناء على أنها لاتلزم الظرفية .

وقوله : « أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين » .

أي : أتفعلون تلك الفعلة التي بلغت نهايتها القبح والفحش ، والتي مافعلها أحد قبلكم في زمن من الأزمان فأنتم أول من ابتدعها فعليكم وزرها ووزر

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٣٠

من عملها إلى يوم القيامة والاستفهام ، للانكار والتوبيخ قال عمر بن دينار: « ما نزا ذكر على ذكر حتى كان قوم لوط » .

وقال الوليد بن عبد الملك : « لولا أن الله قص علينا خبر قوم لوط ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكرا » والباء في « بها » كما قال الزمخشري ـ للتعدية ، من قولك سبقته بالكرة إذا . ضربتها قبله ومنه قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « سبقك بها عكاشة » ، و « من » في قوله « من أحد » لتأكيد النفي وعمومه المستغرق لكل البشر .

والجمله — كما قال أبو السعود — مستأنفة مسوقة لتأكيد النكير وتشديد التوبيخ والتقريع ، فإن مباشرة القبح قبيح واختراعه أقبح ، فأنكر عليهم أولا إتيان الفاحشة ، ثم وبخه بأنهم أول من عملها » .

ثم أضاف لوط الى انكاره على قومه إنكاراً آخر وتوبيخاً أشنع فقال : « إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء » .

أي : إنكم أيها القوم الممسوخون في طبائعكم حيث تأتون الرجال الذين خلقهم الله ليأتوا النساء ، ولا حامل لكم على ذلك إلا مجرد الشهوة الخبيثة القذرة .

والاتيان : كناية عن الاستمتاع والجماع . من أتى المرأة إذا غشيها .

وفي إيراد لفظ « الرجال » دون الغلمان والمردان ونحوهما ، مبالغه في التوبيخ والتقريع .

قال صاحب الكشاف : و « شهوة » مفعول له ، أي للاشتهاء ولا حامل لكم عليه إلا مجرد الشهوة من غير داع آخر . ولاذم أعظم منه، لأنه وصف لهم بالبهيمية ، وأنه لاداعي لهم من جهة العقل ألبتة كطلب النسل ونحوه . أو حال ، بمعنى مشتهين تابعين للشهوة غير ملتفتين إلى السماحة »(١)

(١) تفسير الكشاف حـ ٢ ص ١٢٥

وقوله « من دون النساء » حال من الرجال أو من الواو فى تأتون ، أى : تأتون الرجال حالة كونكم تاركين النساء اللائى هن موضع الاشتهاء عند ذوى الطبائع السليمة ، والأخلاق المستقيمة .

قال الجمل : وإنما ذمهم وعيرهم ووبخهم بهذا الفعل الخبيث ، لأن الله — تعالى — خلق الإنسان وركب فيه شهوة النكاح لبقاء النسل وعمران الدنيا ، وجعل النساء محلا للشهوة وموضعا للنسل . فإذا تركهن الانسان وعدل عنهن إلى غيرهن من الرجال فقد أسرف وجاوز واعتدى ، لأنه وضع الشىء فى غير محله وموضعه الذى خلق له ، لأن أدبار الرجال ليست محلا للولادة التى هى مقصود بتلك الشهوة للانسان »(١)

وقوله « بل أنتم قوم مسرفون » إضراب عن الانكار إلى الاخبار عن الأسباب التى جعلتهم يرتكبون هذه القبائح ، وهى أنهم قوم عادتهم الاسراف وتجاوز الحدود فى كل شىء .

أى : أنتم أيها القوم لستم ممن يأتى الفاحشة مرة ثم يهجرها ويتوب إلى الله بل أنتم قوم مسرفون فيها وفى سائر أعمالكم ، لا تقفون عند حد الاعتدال فى عمل من الأعمال .

وقد حكى القرآن أن لوطا — عليه السلام — قال لهم فى سورة العنكبوت : « إنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل ، وتأتون فى ناديكم المنكر » .

وقال لهم فى سورة الشعراء : « بل أنتم قوم عادون » أى : متجاوزين لحدود الفطرة وحدود الشريعة .

وقال لهم فى سورة النمل : « بل أنتم قوم تجهلون » وهو يشمل الجهل الذى هو ضد العلم ، والجهل الذى هو بمعنى السفه والطيش .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ١٦٢ .

ومجموع الآيات يدل على أنهم كانوا مصابين بفساد العقل ، وانحطاط الخلق ، وإيثار الغي والعدوان على الرشاد والتدبر .

ولقد حكى القرآن جوابهم القبيح على نصائح نبيهم لهم ، فقال : « وما كان جواب قومه إلا أن قالوا أخرجوهم من قريتكم » .

أي : وما كان جواب الطغاة المستكبرين على نصائح نبيهم لوط - عليه السلام - إلا أن قال بعضهم لبعض أخرجوا لوطا ومن معه من المؤمنين من قريتكم سدوم التي استوطنتموها وعشتم بها .

وقوله : « إلا أن قالوا ... » استثناء مفرغ من أعم الأشياء ، أي : ما كان جوابهم شيئا من الأشياء سوى قول بعضهم لبعض أخرجوهم ...

لماذا هذا الإخراج ؟ بين القرآن أسبابه كما تفوهت به ألسنتهم الخبيثة ، واتفقت عليه قلوبهم المنكوسة فقال : « إنهم إناس يتطهرون » بهذه الجملة التعليلية .

أي : إن لوطا وأتباعه أناس يتنزهون عن إتيان الرجال ، وعن كل عمل من أعمالنا لا يرونه مناسبا لهم . يقال : تطهر الرجل ، أي : تنزه عن الآثام والقبائح .

وما أعجب العقول عندما تنتكس ، والأخلاق عندما ترتكس ، إنهما تستنكف أن يبقى معها الطهور المتعفف عن الفحش ، وتعمل على إخراجه ، ليبقى لها الملوثون الممسوخون . وإنه لمنطق يتفق مع المنحرفين الذين انحطت طباعهم ، وانقلبت موازينهم ، وزين لهم الشيطان سوء أعمالهم فرأوه حسنا

ورحم الله صاحب الكشاف فقد قال : وقولهم « إنهم إناس يتطهرون » سخرية بهم وبتطهرهم من الفواحش ، وافتخار بما كانوا فيه من القذارة ، كما يقول الفسقة لبعض الصلحاء إذا وعظهم : أبعدوا عنا هذا المتقشف وأريحونا من هذا المتزهد »[1] .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٢٧ .

ثم حكت السورة عاقبة الفريقين فقالت : « فأنجيناه وأهله » أى : أنجينا لوطا ومن يختص به من ذويه أو من المؤمنين به

قالوا : ولم يؤمن به أحد منهم سوى أهل بيته فقط ، كما قال — تعالى — « فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيت من المسلمين » .

وقوله « إلا امرأته » استثناء من أهله ، أى : فأنجيناه وأهله إلا امرأته فإننا لم ننجها لخبثها وعدم إيمانها .

قال ابن كثير : إنها لم تؤمن به ، بل كانت على دين قومها ، تمالئهم عليه وتخبرهم بمن يقدم عليه من ضيفانه بإشارات بينها وبينهم . ولهذا لما أمر لوط - عليه السلام - ليسرى بأهله أمر أن لا يعلمها ولا يخرجها من البلد ، ومنهم من يقول بل اتبعتهم ، فلما جاء العذاب التفتت هى فأصابها ما أصابهم ، والأظهر أنها لم تخرج من البلد ولا أعلمها لوط بل بقيت معهم ، ولهذا قال هاهنا : « إلا امرأته كانت من الغابرين » أى : « الباقين فى العذاب »[1]

والغابر : الباقى . يقال : غبر الشىء يغبر غبورا ، أى : بقى . وقد يستعمل فيما مضى — أيضا - فيكون من الأضداد ، ومنه قول الأعشى : فى الزمن الغابر . أى : الماضى .

وقوله : « وأمطرنا عليهم مطراً » أى : وأرسلنا على قوم لوط نوعا من المطر عجيبا أمره ، وقد بينه الله فى آية أخرى بقوله « فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل »[2] .

أى : جازيناهم بالعقوبة التى تناسب شناعة جرمهم فإنهم لما قلبوا الأوضاع فأتوا الرجال دون النساء ، أهلكناهم بالعقوبة التى قلبت عليهم قريتهم فجعلت أعلاها أسفلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل أى من طين متجمد .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٣١ .
(٢) سورة الحجر الآية ٧٤ .

ثم ختمت القصة بالدعوة إلى التعقل والتدبر والاعتبار فقال - تعالى - :
« فانظر كيف كان عاقبة المجرمين » :

أى : فانظر أيها العاقل نظرة تدبر واتعاظ فى مآل أولئك الكافرين المقترفين لأشنع الفواحش، واحذر أن تعمل أعمالهم حتى لا يصيبك ما أصابهم وسر فى الطريق المستقيم لتنال السعادة فى الدنيا والآخرة .

هذا . وقد وردت أحاديث تصرح بقتل من يعمل عمل قوم لوط فقد روى الإمام أحمد وأبو داود وابن ماجه والترمذى والحاكم والبيهقى عن ابن عباس.

قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من وجدتموه يعمل عمل قوم لوط . فاقتلوا الفاعل والمفعول به » .

وذهب الإمام أبو حنيفة إلى أن اللائط يلقى من شاهق ويتبع بالحجارة كما فعل بقوم لوط .

وذهب بعض العلماء إلى أنه يرجم ، سواء أكان محصنا أو غير محصن[1].

ثم قصت علينا سورة الأعراف بعد ذلك قصة شعيب مع قومه ، فقالت:

« وإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَومِ اعبُدُوا اللهَ ما لَكُم مِنْ إلهٍ غيرُهُ قَدْ جاءَتكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُم ، فَأَوْفُوا الكَيْلَ والمِيزَانَ ولا تبخَسُوا النَّاسَ أَشياءَهم ولا تُفسِدُوا فى الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِها ، ذلِكُم خيرٌ لَكُم إنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (٨٥) ولاَ تَقْعُدُوا بكلِّ صِرَاطٍ تُوعِدُونَ وتَصُدُّونَ عَنْ سَبيلِ اللهِ مَنْ آمَنَ به وتبغُونَهَا عِوجًا ، واذْكُروا إذْ كُنْتُم قليلاً فَكَثَّرَكُم وانظُرُوا كَيفَ كانَ عَاقِبَةُ

---

(١) راجع تفسير القاسمى ح ٧ ص ٢٨٠٧ وما بعدها . وتفسير الآلوسى ح ٧ ص ١٧٢ ومابعدها .

المُفْسِدِينَ (٨٦) وإنْ كانَ طائفةٌ منكُم آمَنُوا بالَّذِي أُرْسِلتُ به وطَائِفةٌ لم يؤمنُوا فاصْبِرُوا حتى يحكُم اللهُ بيننَا وَهُوَ خيْرُ الحاكمين(٨٧)».

وقوله : «وإلى مدين أخاهم شعيبا قال ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره» أي : وأرسلنا إلى مدين أخاهم شعيبا . ومدين اسم للقبيلة التي تنسب إلى مدين بن إبراهيم - عليه السلام - وكانوا يسكنون في المنطقة التي تسمى معان بين حدود الحجاز والشام ، وهم أصحاب الأيكة - والأيكة : منطقة مليئة بالشجر كانت مجاورة لقريه معان ، وكان يسكنها بعض الناس فأرسل الله شعيبا إليهم جميعا .

وشعيب هو ابن ميكيل بن يشجر بن مدين بن إبراهيم فهو أخوهم في النسب وكان النبي - صلى الله عليه وسلم إذا ذكر شعيب قال : «ذلك خطيب الأنبياء لحسن مراجعته لقومه ، وقوة حجته .

وكان قومه أهل كفر وبخس للمكيال والميزان فدعاهم إلى توحيد الله - تعالى - ونهاهم عن الخيانة وسوء الأخلاق .

وعن السدي وعكرمة : أن شعيبا أرسل إلى أمتين : أهل مدين الذين أهلكوا بالصيحة ، وأصحاب الأيكة الذين أخذهم الله بعذاب يوم الظلة ، وأنه لم يبعث نبي مرتين إلا شعيب - عليه السلام - .

ولكن المحققين من العلماء اختاروا أنهما أمة واحـــدة ، فأهل مدين هم أصحاب الأيكة أخذتهم الرجفة والصيحة وعذاب يوم الظلة - أي السحابة - ، وأن كل عذاب كان كالمقدمة للآخر .

وبعد أن دعاهم إلى وحدانية الله شأن جميع الرسل في بدء دعوتهم قال لهم «قد جاءتكم بينة من ربكم» أي . قد جاءتكم معجزة شاهدة بصحة نبوتي توجب عليكم الإيمان بي والأخذ بما آمركم به والانتهاء عما أنهاكم عنه .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : ما كانت معجزته ؟ قلت : قد وقع العلم بأنه كانت له معجزة لقوله : « قد جاءتكم بينة من ربكم » ، ولأنه لابد لمدعى النبوة من معجزة تشهد له وتصدقه وإلا لم تصح دعواه ، وكان متنبئا لانبيا ، غير أن معجزته لم تذكر فى القرآن كما لم تذكر أكثر معجزات نبينا صلى الله عليه وسلم - فيه[1]

ثم أخذ فى نهيهم عن أبرز المنكرات التى كانت متفشية فيهم فقال — كما حكى القرآن عنه — :

« فأوفوا الكيل والميزان » الكيل والميزان مصدران أريد بهما ما يكال ومايوزن به ، كالعيش بمعنى مايعاش به . أو المكيل والموزون .

أى : فأتموا الكيل والميزان للناس بحيث يعطى صاحب الحق حقه من غير نقصان ، ويأخذ صاحب الحق حقه من غير طلب الزيادة .

« ولا تبخسوا الناس أشياءهم » أى : ولا تنقصوهم حقوقهم بتطفيف الكيل ونقص الوزن فيما يجرى بينكم وبينهم من معاملات .

يقال : بخسه حقه يبخسه إذا نقصه إياه . وظلمه فيه « وتبخسوا » تعدى إلى مفعولين أولهما الناس والثانى أشياءهم .

وفائدة التصريح بالنهى عن النقص بعد الأمر بالإيفاء ، تأكيد ذلك الأمر وبيان قبح ضده .

قال الآلوسى : وقد يراد بالأشياء الحقوق مطلقا فإنهم كانوا مكاسين لايدعون شيئا إلا مكسوه . وقد جاء عن ابن عباس أنهم كانوا قوما طغاة بغاة يجلسون على الطريق فيبخسون الناس أموالهم ... قيل ويدخل فى ذلك بخس الرجل حقه من حسن المعاملة والتوقير اللائق به وبيان فضله على ماهو

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٢٧ .

عليه للسائل عنه . وكثير من ينتسب إلى أهل العلم اليوم مبتلون بهذا البخس، وليتهم قنعوا به بل جمعوا « حشفا وسوء كيلة » فإنا لله وإنا إليه راجعون[1]

ثم نهاهم عن الافساد بوجه عام فقال : « ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها » أى : لا تفسدوا فى الأرض بما ترتكبون فيها من ظلم وبغى ، وكفر وعصيان ، بعد أن أصلح أمرها وأمر أهلها الأنبياء وأتباعهم الصالحون الذين يعدلون فى معاملاتهم ويلتزمون الحق فى كل تصرفاتهم .

ثم ختمت الآية بتلك الجملة الكريمة التى استجاش بها شعيب مشاعر الإيمان فى نفوس قومه حيث قال لهم : « ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين » .

أى : ذلكم الذى آمركم به وأنهاكم عنه خير لكم فى الحال والمآل فبادروا إلى الاستجابة لى إن كنتم مصدقين قولى ، ومنتفعين بالهدايات التى جئت بها إليكم من ربكم .

فاسم الإشارة « ذلكم » يعود إلى ماذكر من الأمر بالوفاء فى الكيل والميزان والنهى عن بخس الناس أشياءهم وعن الافساد فى الأرض .

ثم انتقل شعيب إلى نهيهم عن رذائل أخرى كانوا متلبسين بها فقال : « ولا تقعدوا بكل صراط توعدون » توعدون : من التوعد بمعنى التخويف والتهديد . أى : ولا تقعدوا بكل طريق من الطرق المسلوكة تهددون من آمن بى بالقتل ، وتخيفونه بأنواع الأذى ، وتلصقون بى وأنا نبيكم التهم التى أنا برىء منها ، بأن تقولوا لمن يريد الايمان برسالتى : ان شعيبا كذاب وإنه يريد أن يفتنكم عن دينكم .

وقوله : « وتصدون عن سبيل الله من آمن به ، وتبغونها عوجا » أى : وتصرفون عن دين الله وطاعته من آمن به ، وتطلبون لطريقه العوج بإلقاء الشبه أو بوصفها بما ينقصها ، مع أنها هى الطريق المستقيم الذى هو أبعد مايكون عن شائبة الاعوجاج .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٨ ص ١٧٧ .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت: صراط الحق واحد «وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله» فكيف قيل: بكل صراط؟ قلت : صراط الحق واحد ، ولكنه يتشعب إلى معارف وحدود وأحكام كثيرة مختلفة ، فكانوا إذا رأوا أحداً يشرع فى شىء منها أو عدوه وصدوه فإن قلت : إلام يرجع الضمير فى «آمن به»؟ قلت : إلى كل صراط . والتقدير : توعدون من آمن به وتصدون عنه . فوضع الظاهر الذى هو سبيل الله موضع الضمير زيادة فى تقبيح أمرهم ، ودلالة على عظم ما يصدون عنه[1] .

وقوله : توعدون . وتصدون ، وتبغون هذه الجمل أحوال، أى: لا تقعدوا موعدين وصادين، وباغين ، ولم يذكر الموعد به لتذهب النفس فيه كل مذهب ثم ذكرهم شعيب بنعم الله عليهم فقال « واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم » أى : اذكروا ذلك الزمن الذى كنتم فيه قليلى العدد فكثركم الله بأن جعلكم موفورى العدد،وكنتم فى قلة من الأموال فأفاضها الله بين أيديكم، فمن الواجب عليكم أن تشكروه على هذه النعم ، وأن تفردوه بالعبادة والطاعة ثم اتبع هذا التذكير بالنعم بالتخويف من عواقب الافساد فقال : « وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين » أى : انظروا نظر تأمل واعتبار كيف كانت عاقبة المفسدين من الأمم الخالية ، والقرون الماضية ، كقوم لوط وقوم صالح ، فسترون أنهم قد دمروا تدميراً بسبب إفسادهم فى الأرض، وتكذيبهم لرسلهم . فاتقوا الله وأطيعون . ولا تطيعوا أمر المسرفين ، لأن سيركم على طريقهم سيؤدى بكم إلى الدمار .

ثم نصحهم بأن يأخذوا أنفسهم بشىء من العدل وسعة الصدر . وأن يتركوا أتباعه أحراراً فى عقيدتهم حتى يحكم الله بين الفريقين ، فقال : « وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به ، وطائفة لم يؤمنوا ، فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين » .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ٢٢٨ .

أى : إن كان بعضكم قد آمن بما أرسلنى الله به إليكم من التوحيد وحسن الأخلاق ، وبعضكم لم يؤمن بما أرسلت به بل أصر على شركه وعناده ، فتربصوا وانتظروا حتى يحكم الله بيننا وبينكم بحكمه العادل ، الذى يتجلى فى نصرة المؤمنين ، وإهلاك الظالمين ، وهو - سبحانه - خير الحاكمين .

قال صاحب الكشاف : وهذا وعيد للكافرين بانتقام الله منهم ، كقوله : « فتربصوا إنا معكم متربصون » أو هو عظة للمؤمنين وحث على الصبر واحتمال ما كان يلحقهم من أذى المشركين إلى أن يحكم الله بينهم وينتقم لهم منهم . ويجوز أن يكون خطابا للفريقين . أى : ليصبر المؤمنون على أذى الكفار ، وليصبر الكفار على ما يسوءهم من إيمان من آمن منهم حتى يحكم الله فيميز الخبيث من الطيب[1] » .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حكت لنا جانبا من الحجج الناصعة ، والنصائح الحكيمة ، والتوجيهات الرشيدة التى وجهها شعيب - خطيب الأنبياء - إلى قومه .

وارجع البصر - أيها القارىء الكريم - فى هذه النصائح ترى شعيبا - عليه السلام - يأمر قومه بوحدانية الله لأنها أساس العقيدة وركن الدين الأعظم ، ثم يتبع ذلك بمعالجة الجرائم التى كانت متفشية فيهم ، فيأمرهم بإيفائهم الكيل والميزان ، وينهاهم عن بخس الناس أشياءهم وعن الإفساد فى الأرض ، وعن القعود فى الطرقات لتخويف الناس وتهديدهم ، وعن محاولة صرفهم عن طريق الحق ، بإلقاء الشبهات ، وإشاعة الأباطيل ... مستعملا فى وعظه التذكير بنعم الله تارة ، وبنقمه من المكذبين تارة أخرى .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٢٨ .

ولقد كان من المنتظر أن يتقبل قوم شعيب هذه المواعظ تقبلا حسنا ، وأن يصدقوه فيما يبلغه عن ربه ، ولكن المستكبرين منهم عموا وصموا عن الحق ، واستمع إلى القرآن وهو يحكى موقفهم فيقول :

« قالَ المَلأُ الذينَ استكْبَرُوا مِنْ قومِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ ياشُعيبُ والذين آمنُوا مَعَكَ مِنْ قريتِنا أَوْ لتَعُودُنَّ فى ملَّتِنا ، قالَ أَوَلَوْ كنَّا كارهين (٨٨) قَدْ افترَينا عَلَى اللهِ كذِبًا إنْ عُدْنا فى مِلَّتِكُم بَعْدَ إذ نجَّانا اللهُ مِنْها وما يكُونُ لنا أنْ نعُودَ فيها إلاَّ أنْ يشاءَ اللهُ ربُّنا ، وسِعَ ربُّنا كلَّ شيء عِلْمًا ، عَلَى اللهِ توكلْنا ، ربَّنا افتَح بيْننا وبَيْنَ قومِنا بالحقِّ وأنتَ خيرُ الفاتِحِينَ (٨٩) وقالَ الملأُ الذينَ كفرُوا من قَوْمِهِ لَئن اتبَعْتُم شُعيبًا إنكُم إذاً لخاسِرُونَ (٩٠) فأخَذتْهمُ الرَّجْفَةُ فأصبَحُوا فى دَارِهِم جاثِمينَ (٩١) الذينَ كذَّبُوا شُعيبًا كأنْ لم يَغْنَوْا فيها ، الذينَ كذَّبوا شُعيبًا كانوا هُمُ الخاسِرِينَ (٩٢) فتولَّى عنهُم وقالَ يا قَومِ لقدْ أبلغتُكُم رسالاتِ ربِّى ونَصحتُ لكُم ، فكيفَ آسَى على قومٍ كافرِينَ (٩٣) » .

أى : قال الأشراف المستكبرون من قوم شعيب له رداً على مواعظه لهم : والله لنخرجنك ياشعيب أنت والذين آمنوا معك من قريتنا بغضا لكم، ودفعا لفتنتكم المترتبة على مساكنتنا ومجاورتنا ، أو لتعودن وترجعن إلى ملتنا وماتؤمن به من تقاليد ورثناها عن آبائنا ومن المستحيل علينا تركها . فعليك ياشعيب أنت ومن معك أن تختاروا لأنفسكم أحد أمرين : الإخراج من قريتنا أو العودة إلى ملتنا .

هكذا قال المترفون المغرورون لشعيب وأتباعه باستعلاء وغلظة وغضب ،

وجملة «قال الملأ .. إلخ» مستأنفه استئنافا بيانيا ، كأنه قيل : فماذا كان رد قوم شعيب على نصائحه لهم ؟ فكان الجواب : قال الملأ ... إلخ .

وقد أكدوا قولهم بالجملة القسمية للمبالغة فى إفهامه أنهم مصممون على تنفيذ مايريدونه منه ومن أتباعه .

ونسبوا الاخراج إليه أولا وإلى أتباعه ثانيا ، للتنبيه على أصالته فى ذلك ، وأن الذين معه إنما هم تبع له ، فإذا ماخرج هو كان خروج غيره أسهل .

وجملة : « أو لتعودن فى ملتنا » معطوفة على جملة « لنخرجنك ... » وهى - أى جملة «أو لتعودن فى ملتنا» المقصود الأعظم عندهم ، فهؤلاء المستكبرون يهمهم فى المقام الأول ان يعود من فارق ملتهم ودياناتهم إليها ثانية .

والتعبير بقولهم « أو لتعودن فى ملتنا » يقتضى أن شعيبا ومن معه كانوا على ملتهم ثم خرجوا منها ، وهذا محال بالنسبة لشعيب - عليه السلام - فإن الأنبياء معصومون - حتى قبل النبوة - عن ارتكاب الكبائر فضلا عن الشرك .

وقد أجيب عن ذلك بأن المستكبرين قد قالوا ماقالوا من باب التغليب ، لأنهم لما رأوا أن أتباعه كانوا من قبل ذلك على ملتهم ثم فارقوهم واتبعوا شعيبا ، قالوا لهم : إما أن تخرجوا مع نبيكم الذى اتبعتموه وإما أن تعودوا إلى ملتنا التى سبق أن كنتم فيها ، فأدرجوا شعيبا معهم فى الأمر بالعودة إلى ملتهم من باب تغليبهم عليه هنا ، هذا هو الجواب الذى ارتضاه كثير من العلماء وعلى رأسهم صاحب الكشاف ، فقد قال : فإن قلت : كيف خاطبوا شعيبا عليه السلام - بالعود فى الكفر فى قولهم : « أو لتعودن فى ملتنا » وكيف أجابهم بقوله : « إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها ومايكون لنا أن نعود فيها » والأنبياء - عليهم السلام - لايجوز عليهم من الصغائر إلا ماليس فيه تنفير ، فضلا عن الكبائر ، فضلا عن الكفر ؟ قلت : قالوا : « لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا » فعطفوا على ضميره الذين دخلوا

، الايمان منهم بعد كفرهم قالوا: لتعودن فغلب الجماعة على الواحد ، فجعلوهم
ائدين جميعا ، إجراء للكلام على حكم التغليب . وعلى ذلك أجرى شعيب
- عليه السلام - جوابه فقال : « إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها»،
هو يريد عودة قومه ، إلا أنه نظم نفسه فى جملتهم وإن كان بريئا من ذلك
جراء لكلامه على حكم التغليب »(١) .

هذا هو الجواب الذى اختاره الزمخشرى وتبعه فيه بعض العلماء ، وهناك
جوبة أخرى ذكرها المفسرون ومنها :

١ - أن هذا القول جار على ظنهم أنه كان فى ملتهم ، لسكوته قبل البعثة
ن الانكار عليهم .

٢ - أنه صدر عن رؤسائهم تلبيسا على الناس وإيهاما لهم بأنه كان على
ينهم وما صدر عن شعيب - عليه السلام - كان على طريق المشاكلة .

٣ - أن قولهم « أو لتعودون فى ملتنا » بمعنى : أو لتصيرن ، إذ كثيراً
ا يرد « عاد » بمعنى « صار » فيعمل عمل كان . ولا يستدعى الرجوع إلى حالة
سابقة ، بل عكس ذلك ، وهو الانتقال من حال سابقة إلى حال مؤتنفة ،
كأنهم قالوا « لنخرجنك ياشعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتصيرن
كفاراً مثلنا » .

قال الامام الرازى : تقول العرب : قد عاد إلى فلان مكروه ، يريدون :
د صار إلى منه المكروه ابتداء .

وقال صاحب الانتصاف : إنه يسلم استعمال « العود » بمعنى الرجوع إلى
مر سابق ، ويجاب عن ذلك بمثل الجواب عن قوله - تعالى - « الله ولى الذين
منوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت
خرجونهم من النور إلى الظلمات » . والاخراج يستدعى دخولا سابقا فيما
قع الاخراج منه . ونحن نعلم أن المؤمن الناشىء فى الايمان لم يدخل قط فى ظلمة

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٢٩

الكفر ، ولا كان فيها . وكذلك الكافر الأصلى ، لم يدخل قط فى نور الايمان ولا كان فيه ، ولكن لما كان الايمان والكفر من الأفعال الاختياريه التى خلق الله العبد متيسراً لكل واحد منهما متمكنا منه لو أراده ، فعبر عن تمكن المؤمن من الكفر ثم عدوله إلى الايمان ، إخباراً بالاخراج من الظلمات إلى النور توفيقا من الله له ، ولطفا به ، وبالعكس فى حق الكافر وفائدة اختياره فى هذه المواضع ، تحقيق التمكن والاختيار ؛ لاقامة حجة الله على عباده »[1]

هذه بعض الأجوبة التى أجاب بها العلماء على قول قوم شعيب « أو لتعودن فى ملتنا » ولعل أرجحها هو الرأى الذى اختاره صاحب الكشاف لبعده عن التكلف ، واتساقه مع رد شعيب عليهم . فقد قال لهم :

« أولو كنا كارهين » . أى : أتجبروننا على العودة إلى ملتكم حتى ولو كنا كارهين لها ، لاعتقادنا أنها باطلة وقبيحة ومنافية للعقول السليمة والأخلاق المستقيمة . لا . لن نعود إليها بأى حال من الأحوال . فالهمزة لانكار الوقوع ونفيه ، والتعجيب من أحوالهم الغريبة حيث جهلوا أن الدخول فى العقائد اختيارى محض ولا ينفع فيه الاجبار أو الاكراه .

ثم صارحهم برفضه التام لما يتوهمونه من العودة إلى ملتهم فقال : « قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها » .

أى : قد اختلقنا على الله - تعالى - أشنع أنواع الكذب إن عدنا فى ملتكم الباطلة بعد إذ نجانا الله بهدايتنا إلى الدين الحق وتنزيهنا عن الاشراك به - سبحانه - .

قال صاحب المنار : وهذا كلام مستأنف لبيان أهم الأمرين بالرفض والكراهية ، وهو إنشاء فى صورة الخبر ، فإما أن يكون تأكيداً قسميا لرفض دعوة الملاء إياهم إلى العودة فى ملتهم ، كما يقول القائل : برئت من الذمة إن فعلت كذا ، فيكون مقابلة لقسمهم بقسم أعرق منه فى التوكيد وإما أن يكون تعجبا خرج لا على مقتضى الظاهر ، وأكد بقد وبالفعل الماضى ، والمعنى

---

(١) الانتصاف على الكشاف جـ ٢ ص ١٢٩ .

ما أعظم افتراءنا على الله - تعالى - إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وهدانا إلى صراطه المستقيم ... »(١)

ثم كرر هذا الرفض بأبلغ وجه فقال : « وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شىء علما » أى ما يصح لنا ولا يتأتى منا أن نعود فى ملتكم الباطلة فى حال من الأحوال أو فى وقت من الأوقات إلا فى حال أو فى وقت مشيئة الله المتصرف فى جميع الشئون عودتنا إليها ، فهو وحده القادر على ذلك ولا يقدر عليه غيره لا أنتم ولا نحن ، لأننا موقنون بأن ملتكم باطلة وملتنا هى الحق والموقن لا يستطيع إزالة يقينه ولا تغييره وإنما ذلك بيد مقلب القلوب ، الذى وسع علمه كل شىء .

وهذا اللون من الأدب العالى ، حكاه القرآن عن الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - فى مخاطبتهم ، فأنت ترى أن شعيبا - عليه السلام - مع ثقته المطلقة فى أنه لن يعود هو وأتباعه إلى ملة الكفر أبداً ، مع ذلك هو يفوض الأمر إلى الله تأدباً معه ، فلا يجزم بمشيئته هو ، بل يترك الأمر لله ، فقد يكون فى علمه سبحانه ما يخفى على البشر ، مما تقتضيه حكمته وإرادته .

قال صاحب الانتصاف : « وموقع قوله « وسع ربنا كل شىء علما » الاعتراف بالقصور عن علم العاقبة ، والاطلاع على الأمور الغائبة ، فإن العود إلى الكفر جائز فى قدرة الله أن يقع من العبد : ولو وقع فبقدرة الله ومشيئته المغيبة عن خلقه . فالحذر قائم ، والخوف لازم ، ونظيره قول إبراهيم - عليه السلام - « ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربى شيئا وسع ربى كل شىء علما أفلا تتذكرون » لما رد الأمر إلى المشيئة وهى مغيبة ، مجد الله - تعالى - بالانفراد بعلم الغائبات »(٢) .

ثم يترك شعيب - عليه السلام - قومه وتهديدهم ووعيدهم ، ويتوجه

---

(١) تفسير المنار جـ ٩ ص ٥ .
(٢) الانتصاف على الكشاف لابن المنير جـ ٢ ص ١٣٠ .

إلى الله بالاعتماد والدعاء فيقول : « على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين » .

أي : على الله وحده وكلنا أمرنا ، فهو الذى يكفينا أمر تهديدكم ووعيدكم ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ، ربنا احكم بيننا وبين قومنا الذين ظلمونا بالحق وأنت خير الحاكمين ، لخلو حكمك عن الجور والحيف ،

فقوله : « على الله توكلنا » إظهار للعجز من جانب شعيب ، وأنه فى مواجهته لأولئك المستكبرين لا يعتمد إلا على الله وحده ، ولا يأوى إلا إلى ركنه المكين ، وحصنه الحصين . والجملة الكريمة تفيد الحصر لتقديم المعمول فيها .

وقوله « ربنا افتح بيننا . . . » إعراض عن مجادلتهم ومفاوضتهم بعد أن تبين له عنادهم وسفههم . وإقبال على الله ـ تعالى ـ بالتضرع والدعاء .

والفتح : أصله إزالة الأغلاق عن الشىء ، واستعمل فى الحكم ، لما فيه من إزالة الاشكال فى الأمر . ومنه قيل للحاكم فاتح وفتاح لفتحه أغلاق الحق ، وقيل للحكومة : الفتاحة ـ بضم الفاء وكسرها ـ .

أخرج البيهقى عن ابن عباس قال : ما كنت أدرى قوله ـ تعالى ـ « ربنا افتح . . . » حتى سمعت ابنة ذى يزن تقول لزوجها وقد جرى بينهما وبينه كلام : تعالى أفاتحك ، تريد اقاضيك وأحاكمك » .

وقوله « بالحق » بهذا القيد إظهارا للنصفة والعدالة .

والخلاصة أنك إذا تأملت فى رد شعيب ـ عليه السلام ـ على ما قاله المستكبرون من قومه ، تراه يمثل أسمى ألوان الحكمة وحسن البيان ، فهو يرد على وعيدهم وتهديدهم بالرفض التام لما يبغون ، والبغض السافر لما يريدونه منه ، ثم يكل الأمور كلها إلى الله ، مظهرا الاعتماد عليه وحده ، ثم يتجه إليه ـ سبحانه ـ بالدعاء ملتمسا منه أن يفصل بينه وبين قومه بالحق الذى مضت به سنته فى التنازع بين المرسلين والكافرين ، وبين سائر المحقين والمبطلين .

وهنا نلمح أن الملأ من قوم شعيب قد يئسوا من استمالة شعيب وأتباعه إلى ملتهم ، فأخذا يحذرون الناس من السير فى طريقه ، ويحكى القرآن ذلك بأسلوبه الحكيم فيقول : « وقال الملأ الذين كفروا من قومه ، لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذاً لخاسرون .

أى : قال الأشراف الكافرون من قوم شعيب لغيرهم : « لئن اتبعتم شعيباً إنكم إذاً لخاسرون » لشرفكم ومجدكم ، بإيثار ملته على ملة آبائكم وأجدادكم . وخاسرون لثروتكم وربحكم المادى . لأن اتباعكم له سيحول بينكم وبين التطفيف فى الكيل والميزان وهو مدار غناكم واتساع أموالكم .

وقولهم هذا يقصدون به تنفير الناس من دعوة شعيب ، وتثبيطهم عن الايمان به ، وإغرائهم بالبقاء على عقائدهم الباطلة . وتقاليدهم البالية التى ورثوها عن آبائهم وأجدادهم ، فهم لم يكتفوا بضلالهم فى أنفسهم ، بل عملوا على إضلال غيرهم . وقولهم هذا معطوف على قوله — تعالى — فيما سبق « قال الملأ الذين استكبروا من قومه » . وليس رداً على شعيب ، لأنه لو كان كذلك لجاء مفصولا بدون عطف ، وقد أكدوا قولهم بعدة مؤكدات منها اللام الموطئة للقسم ، والجملة الاسمية المصدرة بإن ... وذلك لكى يخدعوا السامعين بأنهم مايريدون إلا خيرهم وعدم خسرانهم .

وحذف متعلق الخسران ليعم كل أنواعه الدينية والدنيوية .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : أين جواب القسم الذى وطأته اللام فى قوله : « لئن اتبعتم ... وجواب الشرط ؟ قلت : قوله « إنكم إذاً لخاسرون » ساد مسد الجوابين »[1] .

وبعد هذه المحاورات والمجادلات التى دارت بين شعيب وقومه ، جاءت

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٣١ .

الخاتمة التي حكاها القرآن في قوله : « فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين». أي : فأخذتهم الزلزلة الشديدة فأصبحوا في دارهم هامدين صرعى لاحراك بهم .

قال ابن كثير ما ملخصه : أخبر - سبحانه - هنا بأنهم أخذتهم الرجفة، كما أرجفوا شعيبا وأصحابه وتوعدوهم بالجلاء ، كما أخبر عنهم في سورة هود بأنهم أخذتهم الصيحة ، والمناسبة هناك - والله أعلم - أنهم لما تهكموا به في قولهم « ياشعيب أصلاتك تأمرك ... » فجاءت الصيحة فأسكتتهم . وقال في سورة الشعراء « فكذبوه فأخذهم عذاب يوم الظلة » وماذاك إلا لأنهم قالوا له في سياق القصة « فأسقط علينا كسفاً من السماء ... » فأخبر - سبحانه - أنهم أصابهم عذاب يوم الظله ، وقد اجتمع عليهم ذلك كله ، أصابهم عذاب يوم الظلة . وهي سحابة أظلتهم فيها شرر من نار ولهب ، ثم جاءتهم صيحة من السماء ورجفة من الأرض شديدة من أسفل منهم ، فزهقت الأرواح ، وفاضت النفوس ، وخمدت الأجسام »(١) .

ثم يعقب القرآن على مصرعهم بالرد على قولتهم: إن من يتبع شعيبا خاسر، فيقرر على سبيل التهكم أن الخسران لم يكن من نصيب من اتبع شعيبا ، وإنما الخسران كان من نصيب الذين خالفوه وكذبوه ، فيقول : « الذين كذبوا شعيبا كأن لم يغنوا فيها ، الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين » .

أي : الذين كذبوا شعيبا وتطاولوا عليه وهددوه وأتباعه بالاخراج من قريتهم ، كأنهم عندما حاقت بهم العقوبة لم يقيموا في ديارهم ناعمي البال ، يظلهم العيش الرغيد ، والغنى الظاهر .

يقال : غنى بالمكان يغنى ، أقام به وعاش فيه في نعمة ورغد .

والجملة الكريمة استئناف لبيان ابتلائهم بشؤم قولهم: « لنخرجنك ياشعيب

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٣٢ .

والذين آمنوا معك من قريتنا، فكأن سائلا، قال : فكيف كان مصيرهم؟ فكان الجواب : الذين هددوا شعيبا ومن معه وأنذروهم بالاخراج كانت عاقبتهم أن هلكوا وحرموا من قريتهم حتى لكأنهم لم يقيموا بها ، ولم يعيشوا فيها مطلقا ، لأنه متى انقضى الشيء صار كأنه لم يكن .

والاسم الموصول « الذين » مبتدأ ، وخبره جملة « كأن لم يغنوا فيها » .

ثم أعاد القرآن الموصول وصلته لزيادة التقرير ، والإيذان بأن ماذكر فى حيز الصلة هو الذى استوجب العقوبتين فقال : الذين كذبوا شعيباً كانوا هم الخاسرين » .

أى : الذين كذبوا شعيبا وكفروا بدعوته كانوا هم الخاسرين دينيا ودنيويا، وليس الذين اتبعوه كما زعم أولئك المهلكون .

وبهذا القدر أكتفى القرآن عن التصريح بإنجائه هنا ، وقد صرح بإنجائه فى سورة هود فقال : « ولما جاء أمرنا نجينا شعيبا والذين آمنوا معه ... » .

قال صاحب الكشاف : وفى هذا الاستئناف والابتداء ، وهذا التكرير، مبالغة فى رد مقالة الملأ لأشياعهم ، وتسفيه لرأيهم ،واستهزاء بنصحهم لقومهم واستعظام لما جرى عليهم » .

وأخيراً تطوى السورة الكريمة صفحتهم مشيعة إياهم بالتبكيت والاهمال من رسولهم وأخيهم فى النسب فتقول :فتولى عنهم وقال : ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين » .

الأسى : الحزن . وحقيقته اتباع الفائت بالغم . يقال : أسيت عليه — أسا ، أى : حزنت عليه .

والمعنى فأعرض عنهم شعيب بعد أن أصابهم ما أصابهم من النقمة والعذاب وقال مقرعا إياهم ياقوم : « لقد أبلغتكم رسالات ربى » التى أرسلنى بها إليكم من العقائد والأحكام والمواعظ « ونصحت لكم » بما فيه من إصلاحكم

وهدايتكم ، فكيف أحزن على قوم كافرين ، بذلت جهدى فى سبيل هدايتكم ونجاتهم ، ولكنهم كرهوا النصح ، واستحبوا العمى على الهدى .

لا ، لن آسى عليهم . وان أحزن من أجل هلاكهم ، لأنهم لايستحقون ذلك .

وإلى هنا تكون السورة الكريمة قد حدثتنا عن جانب من قصص نوح وهود ، وصالح ، لوط ، وشعيب مع أقوامهم . بعد أن بدأت بقصة آدم وإبليس وستراها بعد قليل تحدثنا حديثا مستفيضا عن قصة موسى مع فرعون ومع بنى إسرائيل .

ويلاحظ أن سورة الأعراف قد اتبعت فى حديثها عن هؤلاء الرسل الكرام التسلسل التاريخى ، وذلك لأهداف من أهمها .

١ — إبراز وحدة العقيدة فى دعوة الأنبياء جميعا ، فأنت رأيت أن كل رسول أتى قومه ليقول لهم : « ياقوم اعبدوا الله مالكم من إله غيره » يقولها ثم يسوق لهم بأسلوبه الخاص أنصع الدلائل ، وأقوى الحجج ، وخير البراهين ومختلف وجوه الارشاد ، لكى يقنعهم بأنه صادق فيما يبلغه عن ربه .

٢ — تصوير وحدة طبيعة الايمان ووحدة طبيعه الكفر فى نفوس الناس على مدار التاريخ ، فالمؤمنون يلتفون حول رسولهم يصدقون قوله ، ويتأسون به فى كل أحواله ويدافعون عن عقيدتهم بقوة وشجاعة ، والكافرون يستكبرون أن يرسل الله رسولا من البشر ، ويأبون بدافع الحقد والعناد والتطاول الاستجابة لرجل منهم ، ويلقون التهم جزافا لكى يصرفوا الناس عنه .

وهكذا نرى أن نفوس المؤمنين تتشابه فى إخلاصها ونقائها وصفائها وحسن تقبلها للخير . بينما نفوس الكافرين تتشابه — أيضا — فى ظلامها وقسوتها وفجورها وسوء تقبلها للهداية .

٣ — بيان العاقبة الطيبة التى انتهى إليها المؤمنون بسبب إيمانهم وصبرهم

وعلمهم الطيب ، والعاقبة السيئة التى حاقت بالكافرين المستكبرين ، بسبب إعراضهم عن الحق ، واستهزائهم بأصحابه ، « فكلا أخذنا بذنبه ، فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

وبعد هذا الحديث الزاخر بالعظات والعبر عن بعض الأنبياء مع أقوامهم تمضى السورة الكريمة فى سرد هداياتها فتسوق للناس ألوانا من سنن الله التى لا تتغير ولا تتبدل ، لعل قلوبهم ترق ، ونفوسهم تتذكر ، وعقولهم تعى .

وكأن السورة الكريمة تقول للناس : لقد سقت لكم الكثير من أخبار الماضين . وقصصت عليكم ما فيه الذكر لكل قلب سليم من أخبار بعض الأنبياء مع أقوامهم ، وأريتكم كيف كانت عاقبة الأخيار ، وكيف كانت عاقبة الأشرار ، فاجتهدوا فى طاعة الله ، وسيروا فى طريق الأخيار لتسعدوا كما سعدوا . واجتنبوا سبيل الأشرار حتى لا يصيبكم ما أصابهم ، فقد جرت سنته - سبحانه - أنه يمهل ولا يهمل ، وأن يبتلى الناس بالسراء والضراء لعلهم يضرعون ، وأن يفتح أبواب خيراته وبركاته لمن آمن به واتقاه ، وأبواب عقوباته لمن كفر به وعصاه .

واستمع إلى السورة الكريمة وهى تصور هذه المعانى وغيرها بأسلوبها الحكيم فتقول .

« وما أَرْسلْنَا فى قريةٍ مِنْ نبىٍّ إلاَّ أخـذْنَا أَهْلَهَا بالبَأساءِ والضَّرَّاء لعلَّهُم يَضَّرَّعُونَ (٩٤) ثمَّ بَدَّلنَا مكانَ السَّيئةِ الْحسَنَةَ حتى عَفَوا وقَالُوا قَدْ مَسَّ آباءَنَا الضرَّاءُ والسرَّاءُ فأَخَـذْنَاهُمْ بَغْتَةً وهُمْ لا يَشْعُرُونَ (٩٥) ولو أَنَّ أَهْلَ القُرَى آمنُـوا واتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَليهِمْ برَكَاتٍ مِنَ السَّماءِ والأرضِ ولـكنْ كَذبوا فأَخذْنَاهُمْ بمـا كانوا يَكسِبُونَ (٩٦) أَفأَمِن

أَهْلُ القُرَى أَنْ يأْتِيَهُم بأسُنا بَياتاً وَهم نائِمونَ (٩٧) أَوَأَمِنَ أَهْلُ القُرَى أنْ يأْتِيَهُم بأْسُنا ضُحًى وهمْ يَلعَبونَ (٩٨) أَفأَمِنُوا مكرَ اللهِ فلا يأمَنُ مكْرَ اللهِ إلاّ القومُ الخاسِرُونَ (٩٩) أَوَ لم يَهْدِ للّذينَ يرِثونَ الأرضَ مِنْ بَعدِ أَهْلِها أَنْ لو نَشاءُ أَصَبْنَاهُمْ بِذُنوبِهم ونَطْبَعُ عَلَى قلوبِهِمْ فَهُمْ لا يَسْمَعُونَ (١٠٠) تلكَ القُرَى نَقُصُّ عليكَ مِنْ أَنبائِها ، ولقَدْ جاءَتْهُم رُسُلُهُمْ بالبيِّناتِ ، فما كانوا لِيُؤْمِنُوا بما كذَّبُوا مِنْ قبْلُ ، كَذلكَ يَطْبَعُ اللهُ عَلَى قلوبِ الكافِرِينَ (١٠١) وما وَجَدْنَا لأَكْثَرِهِم مِنْ عَهْدٍ ، وَإِنْ وَجَدْنَا أَكْثَرَهم لَفاسِقِينَ (١٠٢) » .

هذه هى الآيات التى جاءت فى السورة الكريمة بعد حديثها المتنوع عن بعض الأنبياء مع أقوامهم ، وقبل حديثها المستفيض ـ الذى سنراه بعد قليل عن قصة موسى مع فرعون ومع بنى إسرائيل .

وقد بدئت بقوله ـ تعالى ـ « وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون » البأساء : الشدة والمشقة كالحرب والجدب وشدة الفقر . والضراء : ما يضر الانسان فى بدنه أومعيشته كالمرض والمصائب .

والمعنى : ذلك الذى قصصناه عليك يا محمد شأن الرسل السابقين مع أقوامهم الهالكين وقد جرت سنتنا أننا ما أرسلنا فى قرية من نبى كذبه أهلها إلا أخذناهم وأنزلنا بهم قبل إهلاكنا لهم ألوانا من الشدائد والمصائب لعلهم ينقادون لأمر الله ، ويثوبون إلى رشدهم ، ويكثرون من التضرع إليه والاستجابة لهديه .

فالآية الكريمة إشارة إجمالية إلى بيان أحوال سائر الأمم ، أثر بيان أحوال الأمم التى سبق الحديث عنها وهى أمة نوح وهود وصالح ولوط وشعيب ـ عليهم السلام ـ .

والمقصود منها التحذير والتخويف لكفار قريش وغيرهم . لينزجروا عن الضلال والعناد ، ويستجيبوا لله ولرسوله .

وإنما ذكر القرية لأنها مجتمع القوم الذين بعث إليهم ، ويدخل تحت هذا اللفظ المدينة لأنها مجتمع الأقوام .

وقوله « من نبى » فيه حذف وإضمار والتقدير : من نبى كذبه قومه أو أهل القرية لأن قوله « إلا أخذنا أهلها » لا يترتب على الارسال ، وإنما يترتب على التكذيب والعصيان . و « من » لتأكيد النفى .

والاستثناء فى قوله « إلا أخذنا أهلها » مفرغ من أعم الأحوال، و«أخذنا» فى موضع نصب على الحال من فاعل « أرسلنا » أى : وما أرسلنا فى قرية من القرى المهلكة بسبب ذنوبها نبيا من الأنبياء فى حال من الأحوال إلا حال كوننا آخذين أهلها بالبأساء والضراء . قبل إنزال العقوبة المستأصلة لهم .

وجملة « لعلهم يضرعون » تعليلية . أى : فعلنا ما فعلنا لكى يتضرعوا ويتذللوا ويتوبوا من ذنوبهم .

فما يأخذ الله به الغافلين من الشدائد والمحن ليس من أجل التسلية والتشفى — تعالى الله عن ذلك — وإنما من أجل أن ترق القلوب الجامدة ، وتتمظ المشاعر الخامدة ، ويتجه البشر الضعاف إلى خالقهم ، يتضرعون إليه ويستغفرونه ، عما فرط منهم من خطايا .

ثم بين — سبحانه — لونا آخر من ألوان ابتلائه للناس فقال: «ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة » المراد بالسيئة مايسوء ويحزن كالشدائد والأمراض . وبالحسنة السعة والصحة وأنواع الخيرات .

أى : ثم بعد أن ابتلينا هؤلاء الغافلين بالبأساء والضراء رفعنا ذلك عنهم ، وابتليناهم بضده ، بأن أعطيناهم بدل المصائب نعما ، فإذا الرخاء ينزل بهم مكان

الشدة ، واليسر مكان الحرج ، والعافية بدل الضر ، والذرية بدل العقم . والكثرة بدل القلة ، والأمن محل الخوف .

قال الآلوسي : وقوله « ثم بدلنا » معطوف على « أخذنا » داخل في حكمه ، وهو – أي بدلنا – متضمن معنى أعطى الناصب لمفعولين وهما هنا الضمير المحذوف والحسنة أي : أعطيناهم الحسنة في مكان السيئة ومعنى كونها في مكانها أنها بدل منها .

ويرى بعض العلماء أن لفظ « مكان » مفعول به لبدلنا وليس ظرفا ، والمعنى بدلنا مكان الحال السيئة الحال الحسنة ، فالحسنة هي المأخوذة الحاصلة في مكان السيئة المتروكة[1] .

وقوله « حتى عفوا » أي : كثروا ونموا في أنفسهم وأموالهم . يقال : عفا النبات ، وعفا الشحم إذا كثر وتكاثف . وأعفيته . أي : تركته يعفو ويكثر ، ومنه قوله – صلى الله عليه وسلم – « وأعفوا اللحى » أي : وفروها وكثروها .

فماذا كان موقفهم من ابتلاء الله إياهم بالشدائد تارة وبالنعم أخرى؟ لقد كان موقفهم يدل على فساد فطرتهم ، وانحطاط نفوسهم ، وعدم اتعاظهم بما تجرى به الأقدار ، وبما بين أيديهم من سراء وضراء تحمل كل عاقل على التفكير والاعتبار .

استمع إلى القرآن وهو يصور موقفهم فيقول : « وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء » .

أي : أنهم حينما رأوا ألوان الخيرات بين أيديهم بعد أن كانوا في بأساء وضراء ، لم يعتبروا ولم يشكروا الله على نعمه ، بل قالوا بغباء وجهل . قد مس آباءنا من قبلنا ما يسوء وما يسر ، وتناوبهم ما ينفع وما يضر ، ونحن مثلهم

---

(1) تفسير الآلوسي ج ٨ ص ٩ .

يبنا ما أصابهم . وقد أخذنا دورنا من الضراء كما أخذوا ، وجاء دورنا فى
راء فلنغتنمها فى إرواء شهواتنا . وإشباع متعنا ، فتلك عادة الزمان فى أبنائه
' داعى لأن ننظر إلى السراء والضراء على أنهما نوع من الابتلاء والاختبار .

وهذا شأن الغافلين الجاهلين فى كل زمان ومكان ، إنهم لا يعتبرون بأى
ن من ألوان العبر ، ولا يستشعرون فى أنفسهم تحرجا من شىء يعملونه .

وإن قولهم هذا ليوحى بحالة نفسية خاصة ، حالة عدم المبالاة والاستهتار
ى حالة أكثر ما تكون مشاهدة فى أهل الرخاء والجاه . فهم يسرفون
بذرون بدون تحرج ، ويرتكبون كل كبيرة تقشعر لها الأبدان بدون
كتراث ، وتغشاهم العبر من بين أيديهم ومن خلفهم وعن أيمانهم وعن شمائلهم ،
ع كل ذلك لا يعتبرون ولا يتعظون .

هذا شأنهم ، أما المؤمنون فإنهم ليسوا كذلك ، وإنما هم كما وصفهم رسول
- صلى الله عليه وسلم - فى قوله : « عجبا لأمر المؤمن : إن أمره كله
ير ، وليس ذاك لأحد إلا المؤمن . إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له .
ن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له » .

ولم يترك القدر أولئك الغافلين بدون قصاص ، وإنما فاجأهم بالعقوبة التى
سبهم ، قال - تعالى - « فأخذناهم بغتة وهم لا يشعرون » أى : فكان
ية بطرهم وأشرهم وغفلتهم أن أخذناهم بالعذاب فجأة ، من غير شعور منهم
لك ، ولا خطور شىء من المكاره ببالهم ، لأنهم كانوا - لغبائهم -
نون أنهم سيعيشون حياتهم فى نعم الحياة ورغدها بدون محاسبة لهم على
الهم القبيحة ، وأقوالهم الذميمة .

فالجملة الكريمة تشير إلى أن أخذهم بالعقوبة كان أليما شديدا ، لأنهم فوجئوا
مفاجأة بدون مقدمات . وجملة « وهم لا يشعرون » حال من المفعول به فى
خذناهم » مؤكدة لمعنى البغتة .

ثم بين - سبحانه - أن سنته قد جرت بفتح أبواب خيراته للمحسنين، وبإنزال نقمه على المكذبين الضالين فقال: «ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض».

البركات: جمع بركة: وهى ثبوت الخير الإلهى فى الشىء، وسمى بذلك لثبوت الخير فيه كما يثبت الماء فى البركة.

قال الراغب: «ولما كان الخير الإلهى يصدر من حيث لا يحس، وعلى وجه لا يحصى ولا يحصر، قيل لكل ما يشاهد منه زيادة غير محسوسة هو مبارك وفيه بركة»(١).

والمعنى: ولو أن أهل تلك القرى المهلكة آمنوا بما جاء به الرسل. واتقوا ماحرمه الله عليهم، لآتيناهم بالخير من كل وجه. ولوسعنا عليهم الرزق سعة عظيمة، ولعاشوا حياتهم عيشة رغدة لا يشوبها كدر، ولا يخالطها خوف.

وفى قوله: «فتحنا» استعارة تبعية، لأنه شبه تيسير البركات وتوسعتها عليهم بفتح الأبواب فى سهولة التناول.

وقيل المراد بالبركات السماوية المطر، وبالبركات الأرضية النبات والثمار وجميع ما فيها من خيرات.

وقوله «ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون» بيان لموقفهم الجحودى.

أى: ولكنهم لم يؤمنوا ولم يتقوا بل كذبوا الرسل الذين جاءوا لهدايتهم فكانت نتيجة تكذيبهم وتماديهم فى الضلال أن عاقبناهم بالعقوبة التى تناسب جرمهم واكتسابهم للمعاصى، فتلك هى سنتنا التى لا تتخلف. نفتح للمؤمنين المتقين أبواب الخيرات، وننتقم من المكذبين الضالين بفنون العقوبات.

وقد يقال: إننا ننظر فنرى كثيرا من الكافرين والعصاة مفتوحا عليهم فى الرزق والقوة والنفوذ وألوان الخير، ونرى كثيرا من المؤمنين مضيقاً

---

(١) المفردات فى غريب القرآن ص ٤٤ للراغب الأصفهانى.

اليهم فى الرزق وفى غيره من وجوه النعم ، فأين هذا من سنة الله التى حكتها لآية للـكريمة ؟

والجواب على ذلك أن الـكافرين والعصاة قد يبسط لهم فى الأرزاق وفى لوان الخيرات بسطا كبيراً ، ولـكن هذا على سبيل الاستدراج كما فى قوله ـ تعالى ـ « فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا رحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون » .

ومما لاشك فيه أن الابتلاء بالنعمة الذى مر ذكره فى الآية السابقة « ثم دلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا . . . » لايقل خطراً عن الابتلاء بالشدة. قد ابتلى الله كثيراً من الناس بألوان النعم فأشروا وبطروا ولم يشكروه عليها اخذهم الله أخذ عزيز مقتدر .

وشتان بين نعم تساق لإنسان على سبيل الاستدراج فى الشرور والآثام تـكون نقمة على صاحبها لأنه يعاقب عقابا شديداً بسبب سوء استعمالها، وبين نعم التى وعد الله بها من يؤمنون ويتقون . إنها نعم مصونة عن المحق والسلب الخوف ، لأن أصحابها شكروا الله عليها. واستعملوها فيما خلقت له ، فـكانت نتيجة أن زادهم الله غنى على غناهم ، وأن منحهم الأمان والاطمئنان وذلك ضل الله يؤتيه من يشاء .

ثم يتجه القرآن إلى الغافلين ، ليوقظ فيهم مشاعر الخوف من بأس الله عقابه فيقول : أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون » .

البيات : قصد العدو ليلا . يقال : بيت القوم العدو بياتا ، إذا أوقعوا به يلا ، وهو حال بمعنى بائتين .

والاستفهام للانـكار والتعجيب من أمر ليس من شأنه أن يقع من العاقل. المراد بأهل القرى : أهل مكة وغـيرهم من القرى التى بعث إليها الرسول صلى الله عليه وسلم ـ .

وقيل المراد بهم الأمة المحمدية من عصر النور الأعظم إلى يوم القيامة

لتعتبر بما نزل بغيرها كما يرشد إليه قوله ـ تعالى ـ بعد ذلك « أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها . . »

وقيل المراد بهم من ذكر حالهم فيما تقدم من القرى المهلكة بسبب ذنوبها .

قال الجمل : والفاء للعطف على « أخذناهم بغتة » وما بينهما وهو قوله « ولو أن أهل القرى . . إلى هنا » اعتراض بين المعطوف والمعطوف عليه جيء به للمسارعة إلى بيان أن الأخذ المذكور إنما هو بما كسبت أيديهم . والمعنى: أبعد ذلك الأخذ أمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون[1] ؟

فالآية الكريمة تحذر الناس من الغفلة عن طاعة الله ، وتحثهم على التيقظ والاعتبار : وقوله « أو أمن أهل القرى» إنكار بعد إنكار للمبالغة في التوبيخ والتشديد «أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون» أي : أن يأتيهم عقابنا في ضحوة النهار وانبساط الشمس ، وهم لاهون لاعبون من فرط الغفلة .

فقد خوفهم — سبحانه — بنزول العذاب بهم في الوقت الذي يكونون فيه في غاية الغفلة وهو حال النوم بالليل ، وحال الضحى بالنهار لأنه الوقت الذي يغلب على المرء التشاغل فيه باللذات .

وقوله : « أفأمنوا مكر الله » تكرير لمجموع الإنكارين السابقين جمعا بين التفريق قصدا إلى زيادة التحذير والإنذار .

والمكر في الأصل الخداع ، ويطلق على الستر يقال : مكرَ الليل أي : ستر بظلمته ما هو فيه ، وإذا نسب إليه — سبحانه — فالمراد به استدراجه للعبد العاصي حتى يهلكه في غفلته تشبيها لذلك بالخداع .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت : فلم رجع فعطف بالفاء قوله « أفأمنو مكر الله » ؟

قلت : هو تكرير لقوله « أفأمن اهل القرى» ومكر الله : استعارة لأخذ

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ١٦٨

العبد من حيث لا يشعر ولاستدراجه ، فعلى العاقل أن يكون فى خوفه من مكر الله كالمحارب الذى يخاف من عدوه الكمين والبيات والغيلة . وعن الربيع بن خثيم أن ابنته قالت له : مالى أراك لا تنام والناس ينامون ؟ فقال: يا بنتاه إن أباك يخاف البيات . أراد قوله : « أن يأتيهم بأسنا بياتا[1] » .

والمعنى : أفأمنوا مكر الله وتدبيره الخفى الذى لا يعلمه البشر فغفلوا عن قدرتنا على إنزال العذاب بهم بياتاً أو ضحوة ؟ لئن كانوا كذلك فهم بلا ريب عن الصراط لناكبون ، وعن سنن الله فى خلقه غافلون ، فإنه « لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون» أى : إلا القوم الذين خسروا أنفسهم وعقولهم، ولم يستفيدوا شيئا من أنواع العبر والعظات التى بثها الله فى أنحاء هذا الكون .

هذا ، ويرى الإمام الشافعى وأتباعه أن الأمن من مكر الله كبيرة من الكبائر ، لأنه استرسال فى المعاصى اتكالا على عفو الله .

وقال الحنفية إن الأمن من مكر الله كفر كاليأس ، لقوله — تعالى — « إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون ، وقوله : «فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » .

ثم بين ـ سبحانه ـ أن من الواجب على الأحياء الذين يرثون الأرض من بعد أهلها الذاهبين المهلكين، الذين أهلكتهم ذنوبهم ، وجنت عليهم غفلتهم ، وعوقبوا على استهتارهم وغرورهم ... من الواجب على هؤلاء الأحياء أن يعتبروا ويتعظوا ويحسنوا القول والعمل حتى ينجو من العقوبات .

قال ـ تعالى ـ « أو لم يهد للذين يرثون الأرض من بعد أهلها أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم » .

الاستفهام للانكار والتوبيخ . ويهد : أى يتبين ، يقال : هداه السبيل أو الشىء وهداه إليه ، إذا دله عليه وبينه له .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٢٤ .

أى : أو لم يتبين لهؤلاء الذين يعيشون على تلك الأرض التى ورثوها بعد أهلها المهلكين ، أننا فى قدرتنا أن ننزل بهم العذاب بسبب ذنوبهم كما أنزلناه بأولئك المهلكين .

والمراد بالذين يرثون الأرض من بعد أهلها ، أهل مكة ومن حولها الذين أرسل النبى - صلى الله عليه وسلم - لهدايتهم . وقيل المراد بهم الأحياء فى كل زمان ومكان الذين يخلفون من سبقهم من الأمم .

قال الجمل : وفاعل « يهد » فيه وجوه أظهرها : أنه المصدر المؤول من أن وما فى حيزها والمفعول محذوف . والتقدير : أو لم يهد أى يبين ويوضح للوارثين مآلهم وعاقبة أمرهم إصابتنا إياهم بذنوبهم لو شئنا ذلك .. »[1] .

وقوله : « ونطبع على قلوبهم فهم لا يسمعون » جملة مستأنفة لإثبات حصول الطبع على قلوبهم .

أى : ونحن نطبع على قلوبهم ونختم عليها ، بسبب اختيارهم الكفر على الإيمان ، فهم لذلك لا يسمعون الحكم والنصائح سماع تفقه وتدبر واتعاظ .

والذى يتأمل فى الآيات السابقة يراها تحذر الناس بأساليب متنوعة حكيمة من الغفلة عن العظات والعبر ، وتحضهم على التخلص من الأمن الكاذب ، والشهوات المردية ، والمتع الزائلة .

وما يريد القرآن بهذا أن يعيش الناس قلقين ، يرتجفون من الهلاك والدمار أن يأخذهم فى لحظة من ليل أو نهار .

كلا ، ما يريد منهم ذلك لأن القلق الدائم من المستقبل ، يشل طاقة البشر ، وقد ينتهى بهم إلى اليأس من العمل والإنتاج وتنمية الحياة .

وإنما الذى يريده القرآن منهم أن يتعظوا بآيات الله فى كونه ، وأن يكونوا دائماً على صلة طيبة به ، وأن يبتغوا فيما آتاهم الله من فضله الدار الآخرة دون

---

(١) حاشية على الجلالين ج ٢ ص ١٦٩ .

أن ينسوا نصيبهم من الدنيا، وألا يغتروا بطراوة العيش، ورخاء الحياة، وقوة الجاه، كي لا يقودهم ذلك إلى الفساد والطغيان، والاستهتار والانحلال.

وإذا كان القرآن في هذه الآية قد حذر وأنذر، فلأنه يعالج كل أمة وجماعة بالطب الذي يناسبها ويلائمها، فهو يعطيها جرعات من الأمن والثقة والطمأنينة حين يرسخ الإيمان في قلوب أبنائها، وحين يراقبون خالقهم في سرهم وعلنهم، ويشكرونه على نعمه، وهو يعطيها جرعات من التحذير والتخويف، حين تستولى الشهوات على النفوس، وحين تصبح الدنيا بمتعها ولذائذها المطلب الأكبر عند الناس.

هذا وبعد أن انتهت السورة الكريمة من الحديث عما جرى لبعض الأنبياء مع أقوامهم، ومن بيان سنن الله في خلقه، وبعد أن حذرت وأنذرت، اتجهت بالخطاب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لتطلعه على النتيجة الأخيرة لابتلاء تلك القرى، وما تكشف عنه من حقائق تتعلق بطبيعة الكفر وطبيعة الايمان فقالت: « تلك القرى نقص عليك من أنبائها ».

أي: تلك القرى التي طال الأمد على تاريخها، وجهل قومك أيها الرسول الكريم أحوالها. وهي قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم شعيب، نقص عليك مافيه العظات والعبر من أخبارها. ليكون في ذلك تسلية لك وتثبيتاً لفؤادك، وتأييداً لصدقك في دعوتك.

قال الزمخشري: قوله - تعالى -: « تلك القرى نقص عليك من أنبائها » كقوله: « هذا بعلي شيخاً » في أنه مبتدأ وخبر وحال. ويجوز أن يكون القرى صفة لتلك ونقص خبراً، وأن يكون « القرى نقص » خبراً بعد خبر. فإن قلت: مامعنى « تلك القرى » حتى يكون كلاما مفيداً؟ قلت: هو مفيد ولكن بشرط التقييد بالحال كما يفيد بشرط التقييد بالصفة في قولك: هو الرجل الكريم. فإن قلت: مامعنى الاخبار عن القرى بنقص عليك من

أنبائها ؟ قلت : معناه أن تلك القرى المذكورة نقص عليك بعض أخبارها ولها أنباء أخرى لم نقصها عليك »[١] .

وإنما قص الله - تعالى - على رسوله - صلى الله عليه وسلم - أنباء أهل هذه القرى، لأنهم اغتروا بطول الأمهال مع كثرة النعم ، فتوهموا أنهم على الحق، فذكرها الله لمن أرسل إليهم الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليحترسوا عن مثل تلك الأعمال ، وليعتبروا بما أصاب الغافلين الطاغين من قبلهم .

ثم بين - سبحانه - أنه قد أعـــذر إليهم بأن وضح لهم الحق بالحجج على ألسنة الرسل فقال : « ولقد جاءتهم رسلهم بالبينات فما كانوا ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل » أي : ولقد جاء إلى أهل تلك القرى رسلهم بالدلائل الدالة على صدقهم ، فما كانوا ليؤمنوا بعدرؤية المعجزات من رسلهم بما كانوا قد كذبوا به قبل رؤيتها منهم ، لأنهم لجحودهم وعنادهم تحجرت قلوبهم ، واستوت عندهم الحالتان : حالة مجيء الرسل بالمعجزات وحالة عدم مجيئهم بها .

وقيل إن المعنى : ما كانوا لو أحييناهم بعد إهلاكهم ورددناهم إلى دار التكليف ليؤمنوا بما كذبوا به من قبل إهلاكهم ، ونظيره قوله - تعالى - « ولو ردوا لعاذوا لما نهوا عنه » .

وقوله : « كذلك يطبع الله على قلوب الكافرين » أي : « مثل ذلك الطبع الشديد المحكم الذى طبع الله به على قلوب أهل تلك القرى المهلكة ، يطبع الله على قلوب أولئك الكافرين الذين جاءوا من بعدهم بسبب إيثارهم الضلالة على الهداية .

ثم كشف القرآن عن طبيعتهم فقال : « وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين » .

أي : ما وجدنا لأكثر الناس من وفاء بعهودهم فى الايمان والتقوى ،

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٣٥ .

بل الحال والشأن أننا علمنا أن أكثرهم فاسقين ، أى خارجين عن طاعتنا ، تاركين لأوامرنا ، منتهكين لحرماتنا .

وبعضهم يجعل الضمير فى « أكثرهم » لأهل القرى المهلكة ، وأنهم كانوا إذا عاهدوا الله بعهد نقضوه ولم يوفوا به . والأول أرجح .

والمراد بالعهد ماعاهدهم الله عليه من الإيمان والتقوى والعمل الصالح .
ومن فى قوله « من عهد » مزيدة للاستغراق وتأكيد النفى .

وإنما حكم على الأكثرين منهم بنقض العهود ، لأن الأقلية منهم قد آمنوا ووفوا بما عاهدوا الله عليه من الإيمان والعمل الصالح .

وهذا لون من الاحتراس الذى امتاز به القرآن فى عرضه للحقائق ، فهو لا يلقى التهم جزافاً ، وإنما يعطى كل ذى حق حقه ، فإن كان الأكثرون قد استحقوا الذم لكفرهم ونقضهم لعهودهم ، فإن هناك قلة آمنت فاستحقت المدح والثناء .

قال الآلوسى : و« إن » مخففة من الثقيلة وضمير الشأن محذوف ، ولا عمل لها فيه لأنها ملغاة على المشهور . وذهب الكوفيون إلى أن « إن » هنا نافية واللام فى « لفاسقين » بمعنى إلا ، أى : ماوجدنا أكثرهم إلا فاسقين »[1] .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة التى جاءت فى أعقاب الحديث عن أهل القرى المهلكة ، قد بينت لنا السنن الإلهية فى سعادة الأمم وشقائها ، وكشفت لنا عن حكمته — سبحانه — فى ابتلائه لعباده بالسراء تارة وبالضراء أخرى ، وحضت الناس على المراقبة لله وشكره على نعمائه ، وحذرتهم من الغفلة والأمان من مكره — سبحانه — فإنه لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون .
ثم اتجهت فى النهاية بالخطاب إلى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — .
فأطلعته على الطبائع الغالبة فى البشر حتى لا يضيق ذرعاً بأحوال من أرسل إليهم .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١٧ .

ثم عادت السورة بعد ذلك إلى الحديث عن قصة أخرى من قصص الأنبياء مع أقوامهم ، فحدثتنا عن قصة موسى مع فرعون ومع بنى إسرائيل بعد حديثها قبل ذلك عن شعيب الذى كان معاصراً لموسى ـ عليهما السلام ـ .

فأنت ترى أن السورة الكريمة قد التزمت الترتيب التاريخى فى حديثها عن الأنبياء ـ عليهم الصلاة والسلام ـ .

ولقد قلنا من قبل إن الأسلوب البارز فى هذه السورة الكريمة وهى تدعو للناس إلى وحدانية الله يتجلى فى تذكيرهم بنعم الله التى لا تحصى ، وتخويفهم عن طريق سرد أحوال الأمم المهلكة ، بسبب مخالفتها لرسلها ، وعتوها عن أمر ربها ، ولعل هذا هو السر فى أنها ساقت لنا قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب مع أممهم الذين أهلكوا بسبب كفرهم ولم تذكر لنا ـ مثلا ـ قصة إبراهيم مع قومه مع أن لوطا ـ عليه السلام ـ كان معاصراً له ، وذلك لأن قوم إبراهيم لم يهلكوا ، ولم يلتمس هو من ربه ذلك ، بل اعتزلهم وما يعبدون من دون الله .

فالسورة الكريمة قد التزمت فى مجموعها الحديث عن مصارع المكذبين ليكونوا عبرة لكل عاقل ، وذكرى لكل عبد منيب .

ومن هنا فهى لا تحدثنا عن قصة موسى من أولها كما جاء فى سورة القصص مثلا وإنما هى تبدأ حديثها عنها بالغرض الذى جاءت من أجله وهو التخويف من عواقب التكذيب فتقول : « ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه فظلموا بها فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » .

وهكذا تصرح السورة الكريمة فى أول آية من قصة موسى بالهدف الذى سيقت من أجله وهو النظر والتدبر فى عاقبة المفسدين .

ثم بعد ذلك تحدثنا حديثاً مستفيضاً زاخراً بالعبر والعظات عما دار بين موسى وفرعون من محاورات ومجادلات انتهت بغرق فرعون وقومه ثم

عما دار بين موسى وبين بنى إسرائيل من مجادلات تدل على أصالتهم فى الكذب والافساد والفسوق عن امر الله.

والآن فلنستمع إلى السورة الكريمة وهى تحكى لنا قصة موسى مع فرعون ومع بنى إسرائيل فى نحو سبعين آية تبدؤها بقوله - تعالى - :

« ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ مُوسَى بِآيَاتِنَا إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِ فَظَلَمُوا بِهَا فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ (١٠٣) وَقَالَ مُوسَى يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٠٤) حَقِيقٌ عَلَى أَنْ لَا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُمْ بِبَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١٠٥) قَالَ إِنْ كُنْتَ جِئْتَ بِآيَةٍ فَأْتِ بِهَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (١٠٦) فَأَلْقَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ (١٠٧) وَنَزَعَ يَدَهُ فَإِذَا هِيَ بَيْضَاءُ لِلنَّاظِرِينَ (١٠٨) قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ (١٠٩) يُرِيدُ أَنْ يُخْرِجَكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ (١١٠) قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ (١١١) يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١١٢) وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ (١١٣) قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (١١٤) قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ (١١٥) قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّا أَلْقَوْا سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ (١١٦) وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ (١١٧) فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١١٨) فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانْقَلَبُوا صَاغِرِينَ (١١٩) وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ

العَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وهَارُونَ (١٢٢) قالَ فِرْعَونُ آمنتُم به قَبلَ أَن آذَنَ لكم ، إنَّ هٰذَا لمكرٌ مَكَرْتُمُوهُ فى المدينَةِ لتُخْرِجُوا منها أَهْلَها فَسَوفَ تعلَمونَ (١٢٣) لأقَطِّعَنَّ أَيدِيكُم وأَرْجُلكم مِنْ خِلافٍ ثُمَّ لأصلِّبنَّكم أَجْمَعِينَ (١٢٤) قَالُوا إنَّا إلى رَبِّنَا مُنقَلِبونَ (١٢٥) وما تَنقِمُ منَّا إلاَّ أَنْ آمنَّا بآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جاءَتنا رَبَّنَا أَفْرِغْ علينا صَبْراً وتوفَّنا مُسْلِمِينَ (١٢٦) » .

هذا هو الدرس الأول من قصة موسى مع فرعون وفيه نرى مادار بين موسى وفرعون من محاورات ، ومادار بين موسى والسحره من مناقشات ومساجلات انتهت بإيمان السحرة وهم يضرعون إلى الله بلسان صادق ، وقلب سليم فيقولون – كما حكى القرآن عنهم – : « ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين » . ولنبدأ فى تفسير آيات هذا الدرس من أولها فنقول :

قوله – تعالى – « ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه » معطوف على ماقبله من قصص الأنبياء الذين تحدثت عنهم السورة الكريمة .

وموسى – عليه السلام – هو ابن عمران من نسل لاوى بن يعقوب . ويرى بعض المؤرخين ان ولاده موسى كانت فى حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد ، وان بعثته كانت فى عهد منفتاح بن رمسيس الثانى .

وفرعون : لقب لملوك مصر القدماء ، كلقب قيصر لملوك الروم ، وكسرى لملوك الفرس ، والمعنى : ثم بعثنا من بعد اولئك الرسل الذين سبق الحديث عنهم – وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب – بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا التى تدل على صدقه فيما يبلغه عن ربه إلى فرعون وملئه ، وهم اشراف قومه ، ووجهاء دولته .

قال بعض العلماء : « ولم يقل – سبحانه – إلى فرعون وقومه ، لأن الملك ورجال الدولة هم الذين كانوا مستبعدين لبنى إسرائيل ، وبيدهم امرهم ،

وليس لسائر المصريين من الأمر شيء، ولأنهم كانوا مستعبدين ـ أيضا ولكن الظلم على بني إسرائيل الغرباء كان أشد[(١)] » .

وقوله « بآياتنا » متعلق بمحذوف وقع حالا من مفعول بعثنا ، أو صفة لمصـــدره . أي : بعثناه — عليه السلام — ملتبســـا بها . أو بعثناه بعثاً ملتبساً بها .

والمراد بها الآيات التسع وهي العصا ، واليد البيضاء ، والسنون، ونقص الثمرات ، والطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم .

ثم بين — سبحانه — في الآية الأولى من هذه القصة كيف تلقى فرعون وملؤه دعوة موسى وآياته فقال : « فظلموا بها » أي : فكفروا بهذه الآيات تكبرا وجحوداً ، فكان عليهم وزر ذلك ، وقد عدى الظلم هنا بالباء مع أنه يتعدى بنفسه لتضمنه معنى الكفر ، إذ هما من واد واحد قال — تعالى — إن الشرك لظلم عظيم » .

ويجوز أن تكون الباء للسببية والمفعول محذوف ، أي : ظلموا أنفسهم بسببها بأن عرضوها للعقاب المهين . أو ظلموا الناس بصدهم عن الإيمان بهذه الآيات ، واستمروا على ذلك إلى أن حق عليهم العذاب الأليم ،

ثم ختمت الآية بالأمر بالتدبر في أحوال هؤلاء الظالمين وفيما حل بهم من سوء المصير فقال — تعالى — فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » أي : فانظر أيها الرسول الكريم — أو أيها العاقل — كيف كانت عاقبة فرعون وملئه الذين أفسدوا في الأرض ، لقد أخذهم الله بذنوبهم فأغرقهم في اليم، وموسى وقومه ينظرون اليهم ، وتلك عاقبة كل من طغى وآثر الحياة الدنيا .

ووضع ـ سبحانه ـ المفسدين موضع ضميرهم للايذان بأن الظلم مستلزم للافســـاد .

و « كيف » خبر لكان مقدم عليها لاقتضـــائه الصدارة . و عاقبة »

---

(١) تفسير المنار حـ ٩ ص ٢٩

إسمها ، وهذه الجملة الاستفهامية فى محل نصب على إسقاط حرف الجر ، إذ التقدير : فانظر بعين عقلك إلى كيفية ما فعلناه بهم .

وهكذا نرى السورة الكريمة تريننا فى أول آية من هذه القصة الغرض الذى سيقت من أجله وهو التدبر فى عواقب المكذبين ، والتخويف من المصير الذى ساروا اليه ، وتنهى الناس فى كل زمان ومكان عن السير على منوالهم . والسورة الكريمة عندما تريننا ذلك فى مطلع هذه القصة تكون متناسقة كل التناسق مع أسلوبها الذى إختارته فى دعوة الناس إلى وحدانية الله وإلى مكارم الأخلاق ، وهو أسلوب التذكير بالنعم ، والتحذير من عواقب الظلم والطغيان — كما سبق أن أشرنا إلى ذلك فى التمهيد بين يدى السورة —

ثم بعد هذا التنبيه الاجمالى إلى مآل المفسدين ، أخذت السورة تحكى لنا ما دار بين موسى - عليه السلام - وبين فرعون بصورة مفصلة فقالت : « وقال موسى يافرعون إنى رسول من رب العالمين » أى : قال موسى - عليه السلام - لفرعون فى أدب وإعتزاز إنى رسول من رب العالمين ، أرسلنى إليك لأدعوك لعبادته والخضوع له .

ثم بين له أنه بمقتضى هذه الرسالة لا يقول إلا كلمة الحق فقال : «حقيق على الا أقول على الله إلا الحق » أى : جدير بالا اقول على الله إلا القول الحق

و « حقيق » : صفة « رسول » او خبر لمبتدا محذوف اى : انا حقيق . او خبر بعد خبر . و « على » بمعنى الباء .

وقرأ أبى « حقيق بأن لاأقول على الله إلا الحق » وقرأ عبدالله ابن مسعود « حقيق ألا أقول . . . »

وقرأ نافع « حقيق على ان لا اقول على الله إلا الحق » اى : واجب وحق على ان لا اخبر عنه - تعالى - إلا بما هو حق وصدق .

ثم قال : « قد جئتكم ببينة من ربكم » اى : قد جئتكم بحجة قاطعة من الله أعطانيها دليلا على صدقى فيما جئتكم به . وفى قوله « من ربكم » إشعار بأن ما جاء به من حجج وبراهين لم يكن من صنعه . وإنما هو من عند رب العالمين ، الذى بيده ملكوت كل شىء .

« فأرسل معى بنى إسرائيل » أى : قد جئتكم ببينة عظيمة الشأن فى الدلالة على صدقى . فأطلق بنى إسرائيل من أسرك واعتقهم من رقك وقهرك ، ودعهم يخرجون أحراراً من تحت سلطانك ليذهبوا معى إلى دار سوى دارك .

وإلى هنا يكون موسى ـ عليه السلام ـ قد بين لفرعون طبيعة رسالته وطالبه برفع الظلم عن المظلومين فماذا كان رد فرعون .

يحكى القرآن رده فيقول : « قال إن كنت جئت بآية » أى : بمعجزة تشهد بصدقك من عند من أرسلك كما تدعى « فأت بها » أى : فأحضرها عندى ليثبت بها صدقك فى دعواك « إن كنت من الصادقين » فى دعواك أنك من الملتزمين لقول الحق .

وعبر بأن المفيدة للشك فى تحقيق مضمون الجملة الشرطية . للايذان بأنه ليس معتقداً فى صدق موسى ـ عليه السلام .

وهنا يحكى لنا القرآن ما أسرع بفعله موسى للرد على فرعون فقال : « فألقى عصاه فإذا هى ثعبان مبين » : أى فألقى موسى عصاه التى كانت بيده أمام فرعون فإذا هى ثعبان مبين ، أى : ظاهر بين لاخفاء فى كونه ثعباناً حقيقياً يسعى فى خفة وسرعة كأنه جان .

والثعبان الذكر العظيم من الحيات ، وقيل : إنه الحية مطلقا :

وقد ذكر بعض المفسرين روايات عن ضخامة هذا الثعبان وأحواله ، إلا أننا أضربنا عنها صفحا لضعفها .

ثم حكى القرآن معجزة أخرى لموسى تشهد بصدقه فقال : « ونزع يده فإذا هى بيضاء للناظرين » النزع : إخراج الشىء من مكانه . أى : وأخرج موسى يده من درعه بعد أن أدخلها فيه أو من طوق قميصه ، أو من إبطه فإذا هى بيضاء بياضاً عجيبا خارقا للعادة من غير أن يكون بها علة من مرض أو غيره . قيل : إنه كان لها شعاع يغلب ضوء الشمس :

قال الآلوسى : قوله « فإذا هى بيضاء للناظرين » أى : بيضاء بياضا نورانيا خارجا عن العادة يجتمع عليه النظار . وقيل المعنى : بيضاء لأجل النظار لا أنها بيضاء فى أصل خلقتها ، لأنه ـ عليه السلام ـ كان آدم ـ أى أسمر ـ شديد الأدمة فقد أخرج البخارى عن عبد الله بن عمر قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم « وأما موسى فآدم جسيم سبط كأنه من رجال الزط » وعنى ـ صلى الله عليه وسلم ـ بالزط جنسا من السودان والهنود(١) » .

وبذلك يكون موسى قد أتى بالبينة التى تدعو فرعون وملأه إلى الإيمان به فهل آمنوا ؟ كلا إنهم ما آمنوا بل استمروا فى ضلالهم ، وحكى لنا القرآن أن حاشية فرعون السيئة ، وأصحاب الجاه والغنى فى دولته غاظهم ما جاء به موسى ، يدل على ذلك قوله ـ تعالى ـ « قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم » .

أى : قال الأشراف من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم ، أى : راسخ فى علم السحر ، ماهر فيه . ولم يكتفوا بهذا القول الباطل ، بل أخذوا يثيرون الناس على موسى ، ويهولون لهم الأمر ليقفوا فى وجهه فقالوا « يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره » .

أى : يريد هذا الساحر أن يسلب منكم ملككم ، وأن يصبح هو ملكا على مصر ، فماذا تأمرون « لاتقاء هذا الخطر الداهم ؟ وبماذا تشيرون فى أمره ؟ فهو من الأمر بمعنى المشاورة . يقال : آمرته فآمرنى . أى : شاورته فأشار على .

قال صاحب الكشاف : فإن قلت قد عزى هذا الكلام إلى فرعون فى سورة الشعراء حيث قال : « قال للملأ حوله ـ أى قال فرعون للملأ حوله ـ إن هذا لساحر عليم . يريد أن يخرجكم من أرضكم بسحره فماذا تأمرون ؟ وهنا عزى إلى الملأ فكيف الجمع ، قلت : قد قاله هو وقالوه هم فحكى قوله هناك

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٨ ص ٢١

وقولهم ههنا . أو قاله ابتداء فتلقته منه الملأ فقالوه لأعقابهم . أو قالوه عنه للناس عن طريق التبليغ كما يفعل الملوك ، يرى الواحد منهم الرأى فيكلم به من يليه من الخاصة ، ثم تبلغه الخاصة العامة . . وقولهم : « فماذا تأمرون » من امرته فأمرنى بكذا إذا شاورته فأشار عليك برأى : وقيل : « فماذا تأمرون » من كلام فرعون ، قاله الملأ لما قالوا له : إن هذا لساحر عليم يريد ان يخرجكم ، كأنه قيل : فماذا تأمرون ؟ فأجابوه : ارجه واخاه .. »[1] .

ثم حكى القرآن ما اشار به الملأ من قوم فرعون فقال : « قالوا ارجه واخاه وارسل فى المدائن حاشرين . يأتوك بكل ساحر عليم » .

ارجه : اصله ارجئه ـ وقد قرىء به ـ حذفت الهمزه وسكنت الهاء ، شبيها للضمير المنفصل بالضمير المتصل . والإرجاء التأخير . يقال : ارجيت هذا الأمر وارجأته ، إذا اخرته . ومنه « ترجى من تشاء منهن » .

والمدائن : اى : البلاد جمع مدينة ، وهى من مدن بالمكان ـ كنصر ـ إذا اقام به . و « حاشرين » اى : جامعين ، يقال . حشر الناس ـ من باب نصر وضرب ـ يحشرهم حشرا إذا جمعهم ، ومنه : يوم الحشر والمحشر .

والمعنى : قال الملأ من قوم فرعون حين استشارهم فى أمر موسى : أخر أمره وأمر أخيه ولا تتعجل بالقضاء فى شأنهما ، وأرسل فى مدائن ملكك رجالا أو جماعات من الشرطة يجمعون إليك السحرة المهرة ، لكى يقفوا فى وجه هذا الساحر العليم ، ويكشفوا عن سحره ويبطلوه بسحر مثله أو أشد ، وكان السحر فى عهد فرعون من الأعمال الغالبة التى يحسنها كثير من اهل مملكته .

وقال بعضهم : الأمر بالتأخير دل على أنه تقدم منه أمر آخر ، وهو الهم بقتله ، فقالوا له : أخره ليتبين حاله للناس .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٢٩

وقال الجشمى : تدل الآية على معجزة عظيمة لموسى ، وتدل على جهل فرعون وقومه ، حيث لم يعلموا أن قلب العصا حية تسعى لا يقدر عليه إلا الله وتدل على أن من عادة البشر أن من رأى أمراً عظيما أن يعارضه ، فلذلك دعا فرعون بالسحرة ... وتدل على أنهم أنكروا أمره محافظة على الملك والمال ، لذلك قالوا « يريد أن يخرجكم من أرضكم » فيدل على أن من أقوى الدواعى إلى ترك الدين ، المحافظة على الرياسة والمال والجاه كما هى عادة الناس فى هذا الزمن »(١) .

وقوله « فى المدائن » متعلق بأرسل ، و « حاشرين » نعت لمحذوف أى : رجالا حاشرين . ومفعوله محذوف . أى : حاشرين السحرة بدليل ما بعده .

ولا يذكر السياق القرآنى بعد ذلك أنهم أرسلوا إلى السحرة ، ولا أنهم جمعوهم ، وإنما يترك ذلك للعقل يفهمه حيث لا داعى لذكر هذه التفاصيل . ويتجه القرآن إلى الحديث عما دار بين السحرة وبين فرعون بعد أن جمعوا من مدائن الصعيد بمصر حيث كان مقرهم هناك فيقول :

« وجاء السحرة فرعون قالوا : إن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين . قال : نعم وإنكم لمن المقربين » .

أى : وأقبل السحرة سريعا على فرعون بعد أن أرسل إليهم فقالوا له بلغة المحترف الذى مقصده الأول ما يعمله الأجر والعطاء : إن لنا لأجراً عظيما إن كانت لنا الغلبة على هذا الساحر العليم ؟ فهم يستوثقون اولا من جزالة الأجر وضخامته . وهنا يجيبهم فرعون بقوله : نعم لكم أجر مادى جزيل إذا انتصرتم عليه ، وفضلا عن ذلك فأنتم تكونون بهذا الانتصار من الظافرين بقربى وجوارى ، فهو يغريهم بالأجر المادى ويعدهم بالقرب المعنوى من قلبه تشجيعا لهم على الإجادة ، وهو وهم لا يعلمون ان الموقف ليس موقف الاحتراف

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٤ ص ٢٨٣٢

والمهارة والتضليل ، وإنما هو موقف المعجزة والرسالة والاتصال بالقوة الغالبة التي لا يستطيع الوقوف في وجهها الساحرون ولا المتجبرون وغيرهم.

هذا ، وقد إختلف المفسرون في عدد هؤلاء السحرة فقيل ،كانوا إثنين وسبعين ساحراً ، وقيل كانوا أكثر من ذلك بكثير .

وبعد أن إطمأن السحرة على الأجر ، وتطلعت نفوسهم اليه ، يحكى لنا القرآن أنهم توجهوا إلى موسى يقولون له بلغة الواثق من قوته ، المتحدى لخصمه : « ياموسى إما أن تلقى وإما أن نكون نحن الملقين » .

أي : أنت ياموسى مخير بين أن تلق عصاك أولا ، وبين أن نلقى نحن أولا وأنت تفعل ما تشاء بعدنا ، وكأنهم يقولون له : وفي كلتا الحالتين فنحن على ثقة من الفوز والنصر فارح نفسك وإستسلم لنا مقدما .

ويرى الزمخشرى أن تخييرهم إياه أدب حسن راعوه معه ، كما يفعل أهل الصناعات إذا التقوا كالمتناظرين قبل أن يتخاوضوا في الجدال، والمتصارعين قبل أن يتآخذوا في الصراع [1]

ولقد حكى لنا القرآن في سورة طه أن موسى نصحهم بعدم الدخول معه في معركة هم الخاسرون فيها قطعا فقال : « قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيستحكم بعذاب وقد خاب من إفترى » [2]

أما هنا فيحكى لنا القرآن ان موسى — عليه السلام — قد طلب منهم أن يلقوا أولا مستهينا بتحديهم له ، غير مبال بهم ولا بمن جمعهم ، لأنه قد اعتمد على خالقه « قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاءوا بسحر عظيم » .

---

(١) تفسير الكشاف حـ ٢ ص ١٤٠ .

(٢) الآية ٦١ من سورة طه .

أى : قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون أولا ، فلما ألقـوا ما كان معهم من الحبال والعصى « سحروا أعين الناس » أى : خيلوا إلى الأبصار أن مافعلوه له حقيقة فى الخارج مع أنه لم يكن إلا مجرد صنعة وخيال ، ولذا لم يقل — سبحانه — سحروا الناس .

وقوله « واسترهبوهم » أى : خوفوهم وأفزعوهم بما فعلوا من السحر . « وجاءوا بسحر عظيم » أى : فى باب السحر ، أو فى عين من رآه ، فإنه ألقى كل واحد منهم عصاه ، فصارت كأنها ثعابين .

والتعبير بقوله — سبحانه — « واسترهبوهم » تعبير مصور بليغ ، فهو يوحى بأنهم أستجاشوا وجدان الناس قسرا ، وساقوهم سوقا بوسائل مصطنعة مفتعلة لا تستند إلى واقع سليم .

روى أنهم ألقوا حبالا غلاظا وخشبا طوالا ، فإذا حيات كأمثال الجبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا .

وروى أنهم لونوا حبالهم وخشبهم وجعلوا فيها ما يوهم الحركة . قيل . جعلوا فيها الزئبق .

وقال بعض العلماء . قيل إنها كانت عصيا مجوفة قد ملئت زئبقا ، وقد حفروا قبل ذلك تحت المواضع أسرابا ملؤها نارا ، فلما طرحت عليها العصى المجوفة المملوءة بالزئبق حركها ، لأن شأن الزئبق إذا أصابته النار أن يطير ، فأخبر الله أن ذلك كان مموها على غير حقيقته ... فعلى هذا يكون سحرهم لأعين الناس عبارة عن هذه الحيلة الصناعية » (١)

ويمضى القرآن فيبين لنا أن هذا السحر العظيم الذى استرهب الناس وسحر أعينهم ، قد تهاوى فى لحظة ، وانطوى فى ومضة ، وزالت آثاره بعد أن قذفه موسى بسلاح الحق الذى سلحه به ربه ، أستمع إلى القرآن وهو يحكى ذلك

(١) تفسير المنار حـ ٩ ص ٦٦

فيقول : « وأوحينا إلى موسى أن ألقى عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبو هنالك وانقلبوا صاغرين » .

اللقف: التناول بسرعة . يقال: لقف الشيء يلقفه لقفا ولقفانا، أخذه بسرعة

والإفك : الكذب . يقال أفك يأفك، وأفك يأفك إفكا وأفكا - كضرب وعلم - إذا كذب ، وأصله من الأفك - بفتح أوله - وهو بمعنى صرف الشيء عن وجهه الذى يجب ان يكون عليه . واطلق على الكذب إفك - بكسر الهمزة - لكونه مصروفا عن وجه الحق ، ثم صار حقيقة فيه .

والمعنى : وأوحينا الى موسى - بعد أن أوجس خيفة مما رآه من أمر السحرة - أن القى عصاك ولا تخف إنك أنت الأعلى، فألقاها فإذاهى تبتلع وتلتقم بسرعة ما يكذبون ويموهون به أولئك السحرة « فوقع الحق » أى : ظهر وتبين وثبت الحق الذى عليه موسى - وفسد وبطل ما كانوا يعملون من الحيل والتخييل وذهب تأثيره . وترتب على ذلك ان اصابت الهزيمة المنكرة فرعون وملأه وسحرته فى ذلك الجمع العظيم، الذى حشر الناس له فى يوم عيدهم وزينتهم ، وانقلب الجميع إلى بيوتهم صاغرين اذلاء ، بعد ان أنزل بهم موسى الخذلان والخيبة .

وان قوله « أن ألق » يجوز ان تكون مفسرة لتقدم ما فيه معنى القول دون حروفه وهو الايحاء ، ويجوز أن تكون مصدرية فتكون هى وما بعدها مفعول الايحاء .

والفاء فى قوله « فإذا هى تلقف » فصيحة اى : فألقاها فصارت حية فإذا هى تلقف ما يأفكون .

وإنما حذف هذا المقدر للايذان بمسارعة موسى إلى الالقاء ، وبغاية سرعة الانقلاب ، كأن إبتلاعها لما يأفكون قد حصل متصلا بالأمر بالإلقاء .

و « ما » فى قوله « ما يأفكون » موصولة والعائد محذوف اى : الذى يأفكونه ، اومصدرية وهى مع الفعل بمعنى المفعول اى: فإذاهى تلقف المأفوك.

وفى التعبير بقوله - سبحانه - « فوقع الحق » تجسيم لهـذا الحق الذى كان عليه موسى ، وتثبيت واستقرار له ، حتى لكأنه شىء ذو ثقل نزل على شىء آخر خفيف الوزن فأزاله ومحاه من الوجود .

وهذه الآيات الكريمة تصور لنا كيف أن الباطل قد يسحر عيون الناس ببريقه لفترة من الوقت ، وقد يسترهب قلوبهم لساعة من الزمان ، حتى ليخيل إلى الكثيرين الغافلين أنه غالب وجارف . . . ولكن ما أن يواجهه الحق الهادىء الثابت المستقر بقـوته التى لا تغالب حتى يزهق ويزول . وينطفىء كشعلة الهشيم ، وإذا بأتباع هذا الباطل يصيبهم الذل والصغار ، وهم يرون صروحهم تتهاوى ، وآمالهم تتداعى ، أمام نور الحق المبين ، وإذا بتحديهم الصريح ، وتطاولهم الأحمق يتحول إلى استسلام مهين ، وذل مشين .

ثم يحكى لنـا القرآن بعد ذلك موقف السحرة بعـد أن رأوا باعينهم أن ما فعله موسى - عليه السلام - ليس من قبيل السحر : « وألقى السحرة ساجدين » أى : خروا سجدا. كأنما - كما قال الزمخشرى - ألقاهم ملق لشدة خرورهم أو لم يتمالكوا أنفسهم مما رأوا فكأنهم ألقوا

والمراد أن ظهور بطلان سحرهم ، وإدراكهم بأن موسى على الحق ، قد حملهم على السجود لله - تعالى - وأن نور الحق قد بهرهم وجعلهم يسارعون إلى الإيمان حتى لكأن أحدا قد دفعهم اليه دفعا ، وألقاهم اليه إلقاء .

وقوله « قالوا آمنا برب العالمين . رب موسى وهارون » أى : قال السحرة بعـد أن تبين لهم الحق وخروا ساجدين لله ، آمنا بمالك أمر العـالمين ومدبر شئونهم ، والمتصرف فيهم ، وجملة « رب موسى وهارون » بدل من الجملة التى قبلها ، أو صفة لرب العالمين ، أو عطف بيان . وفائدة ذلك نفى توهم من يتوهم أن رب العـالمين قد يطلق على غير الله - تعـــالى - كقول فرعون « أنا ربكم الأعلى » .

، وهكذا نرى أثر الحق عندما تخالط بشاشته القلوب الواعية ، لقـد آمن

السحرة وصرحوا بذلك أمام فرعون وشيعته ؛ لأنهم أدركوا عن يقين قطعى أن ماجاء به موسى - عليه السلام - ليس من قبيل السحر . والعالم فى فنه هو أكثر الناس إستعداداً للتسليم بالحقيقة حين تتكشف له ، ومن هنا فقد تحول السحرة من التحدى السافر إلى التسليم المطلق أمام صولة الحق الذى لايجحده إلا مكابر حقود .

ولكن فرعون وملأه لم يرقهم ماشاهدوا من إيمان السحرة ، ولم يدركوا لانطماس بصيرتهم فعل الإيمان فى القلوب،فأخذ يتوعدهم بالموت الأليم ويحكى القرآن ذلك فيقول : « قال فرعون آمنتم به قبل أن آذن لكم » أى: قال فرعون منكراً على السحرة إيمانهم، آمنتم برب موسى وهارون قبل أن آمركم أنا بذلك؟ فهو لغروره وجهله ظن أن الإيمان بالحق بعد أن تبين يحتاج إلى استئذان .

ثم اضاف إلى ذلك إتهامهم بأن إيمانهم لم يكن عن إخلاص ليصرف الناس عنهم فقال : « إن هذا لمكر مكر تموه فى المدينة لتخرجوا منها أهلها » أى : إن ماصنعتموه من الإيمان برب موسى وهارون ليس عن إقتناع منكم بذلك ، بل هو حيلة احتلتموها انتم وموسى قبل أن يلتقى كل منكم بسحره ، لكى تخرجوا من مصر أهلها الشرعيين ، وتخلص لكم ولبنى إسرائيل .

وغرضه من هذا القول إفهام قبط مصر أن إيمان السحرة كان عن تواطىء مع موسى ، وأنهم يهدفون من وراء ذلك إلى أخراجهم من أوطانهم ، فعليهم أى القبط — أن يستمسكوا بايديهم وأن يعلنوا عداوتهم لموسى وللسحرة لبنى إسرائيل .

ولاشك أن هذا لون من الكذب الخبيث أراد من ورائه فرعون صد الناس عن الإيمان بموسى - عليه السلام — .

ثم أتبع هذا الإتهام الباطل بالوعيد الشديد فقال : « فسوف تعلمون » أى : فسوف تعلمون عاقبة مافعلتم . ثم فصل هذا الوعيد بقوله : « لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ثم لأصلبنكم أجمعين » .

أي : أقسم لأقطعن من كل شق منكم عضواً مغايراً الآخر ، كاليد من الجانب الأيمن ، والرجل من الجانب الأيسر ، ثم لأصلبنكم أجمعين تفضيحاً لكم ، وتنكيلا لأمثالكم . ومع أن فرعون قد توعد هؤلاء المؤمنين بالعذاب والتشويه والتنكيل والموت القاسي البطيء المرهوب ، فإننا نراهم يقابلون كل ذلك بالصبر الجميل ، والإيمان العميق ، والاستهانة ببطش فرعون وجبروته فيقولون له بكل ثبات واطمئنان : « إنا إلى ربنا منقلبون » قال صاحب الكشاف : فيه أوجه : أن يريدوا : إنا لانبالي بالموت لانقلابنا إلى لقاء ربنا ورحمته وخلاصنا منك ومن لقائك . أو ننقلب إلى الله يوم الجزاء فيثيبنا على شدائد القطع والصلب . أو إنا جميعاً يعنون أنفسهم وفرعون ننقلب إلى الله فيحكم بيننا . أو إما لا محالة ميتون منقلبون إلى الله فما تقدر أن تفعل بنا إلا ما لابد لنا منه[1] » .

ثم قالوا له على سبيل الاستهزاء والتوبيخ « وماتنقم منا إلا أن آمنا بآيات ربنا لما جاءتنا » أي : وماتنكره منا وتعيب إلا الايمان بالله ، مع أن ماتكرهه منا وتعيبه علينا هو أعظم محاسننا ، لأنه خير الأعمال ، وأعظم المناقب ، فلا نعدل عنه طلباً لمرضاتك .

يقال : نقم عليه أمره ، ونقمت منه نقما — من باب ضرب — عبته وكرهته أشد الكراهة .

قال الجمل : وقوله « إلا أن آمنا » يجوز أن يكون فى محل نصب مفعولا به ، أي : ماتعيب علينا إلا إيماننا . ويجوز أن يكون مفعولا من أجله . اى : ما : ماتنال منا وتعذبنا الشيء من الأشياء إلا لإيماننا . وعلى كل من القولين فهو إستثناء مفرغ[2] » .

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٤١ .

(٢) حاشية الجمل على الجلالين ج ٣ ص ١٧٩ .

ثم ختموا مناقشتهم لفرعون بالانصراف عنه والالتجاء إلى الله - تعالى - فقالوا : « ربنا افرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين » أى : ياربنا افض علينا صبراً واسعاً لنثبت على دينك ، وتوفنا إليك حالة كوننا مسلمين لك مذعنين لأمرك ونهيك ، مستسلمين لقضائك .

وبذلك يكون السحرة قـــد ضربوا للناس فى كل زمان ومكان اروع الأمثال فى التضحية من اجل العقيدة،وفى الوقوف امام الطغيان بثبات وعزة، وفى الصبر على المكاره والآلام ، وفى المسارعة إلى الدخول فى الطريق الحق بعد ان تبين لهم ، وفى التعالى عن كل مغريات الحياة .

قال قتادة : « كانوا فى اول النهار كفاراً سحرة.وفى آخره شهداء بررة» فرضى الله عنهم وحشرنا فى زمرتهم .

وبعد هذا الحديث الذى ساقته السورة عما دار بين موسى وفرعون ، وبين موسى والسحرة ، والذى انتهى بإيمان السحرة برب العالمين بعد ذلك بدأت السورة تحكى لنا ماقاله الملأ من قوم فرعون بعـد هزيمتهم المنكرة ، وما قاله موسى — عليه السلام — لقومه بعد ان بلغهم وعيد فرعون وتهديده لهم ، وما رد به قومه عليه مما يدل على سفاهتهم فقالت :

« وقالَ الملأُ مِنْ قومِ فِرْعَونَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فى الأرْضِ وَيَذَرَكَ وَآلِهَتَكَ ؟ قالَ سنُقَتِّلُ أَبْنَاءَهُمْ ونَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ (١٢٧) قالَ مُوسَى لقَومِهِ استَعِينُوا بِاللهِ واصْبِرُوا إِنَّ الأرْضَ للهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ والعَاقِبَةُ لِلمُتَّقِينَ (١٢٨) قَالُوا أُوذِينَا مِنْ قَبْـــلِ أَنْ تَأْتِينَا وَمِنْ بَعْدِ ما جِئْتَنَا ، قَالَ عَسَى رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ ويَسْتَخْلِفَكُمْ فى الأرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ (١٢٩) » .

قوله ـ تعالى ـ «وقال الملأ من قوم فرعون : أتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الأرض ويذرك وآلهتك» .

أى : قال الزعماء والوجهاء من قوم فرعون له ، بعد أن أصابتهم الهزيمة والخذلان فى معركة الطغيان والإيمان ، قالوا له على سبيل التهييج والإثارة : أتترك موسى وقومه أحراراً آمنين فى أرضك ، ليفسدوا فيها بإدخال الناس فى دينهم ، أو جعلهم تحت سلطانهم ورياستهم .

روى أنهم قالوا له ذلك بعد أن رأوا عدداً كبيراً من الناس ، قد دخل فى الايمان متبعاً السحرة الذين قالوا «آمنا برب العالمين» .

وقوله «ويذرك وآلهتك» ، معناه : أتتركهم أنت يعبدون رب موسى وهارون ، ويتركون عبادتك وعبادة آلهتك ، فيظهر للناس عجزك وعجزها ، فتكون الطامة الكبرى التى بها يفسد ملكك .

قال السدى : إن فرعون كان قد صنع لقومه أصناماً صغاراً وأمرهم بعبادتها ، وسمى نفسه الرب الأعلى .

وقال الحسن إنه كان يعبد الكواكب ويعتقد أنها المربية للعالم السفلى كله ، وهو رب النوع الانسانى .

وقد قرىء «ويذرك» بالنصب والرفع أما النصب فعلى أنه معطوف على «ليفسدوا» ، وأما الرفع فعلى أنه عطف على «أتذر» أو على الاستئناف ، أو على أنه حال بحذف المبتدأ أى : وهو يذرك .

والمتأمل فى هذا الكلام الذى حكاه القرآن عن الملأ من قوم فرعون ، يراه يطفح بأشد ألوان التآمر والتحريض . فهم يخوفونه فقدان الهيبة والسلطان بتحطيم الأوهام التى يستخدمها السلطان ، لذا نراه يرد عليهم بمنطق الطغاة المستكبرين فيقول : «سنقتل أبناءهم ، ونستحيى نساءهم وإنا فوقهم قاهرون» .

أى : لا تخافوا ولا ترتاعوا أيها الملأ فإن قوم موسى أهون من ذلك ،

وسننزل بهم ما كنا نفعله معهم من قبل وهو تقتيل الأبناء ، وترك النساء أحياء ، وإنا فوقهم غالبون كما كنا ماتغير شيء من حالنا ، فهم الضعفاء ونحن الأقوياء ، وهم الأذلة ونحن الأعزة .

فأنت ترى أن ماقاله الملأ من قوم فرعون هو منطق حاشية السوء فى كل عهود الطغيان فهم يرون أن الدعوة إلى وحدانية الله إفساد فى الأرض، لأنها ستأتى على بنيانهم من القواعد، ولأنها هى الدعوة إلى وحدانية الله التى ستحرر الناس من ظلمهم وجبروتهم ، وتفتح العيون على النور الذى يخشاه أولئك الفاسقون.

وترى أن ما قاله فرعون هو منطق الطغاة المستكبرين دائماً . فهم يلجأون إلى قوتهم المادية ليحموا بها آثامهم ، وشهواتهم ، وسلطانهم القائم على الظلم ، والبطش ، والمنافع الشخصية .

ويبلغ موسى وقومه هذا التهديد والوعيد من فرعون وملئه فماذا قال موسى ـ عليه السلام ـ ؟ لقد حكى القرآن عنه أنه لم يحفل بهذا التهديد بل أوصى قومه بالصبر ، ولوح لهم بالنصر . إستمع إلى القرآن وهو يحكى قول موسى ـ عليه السلام ـ فيقول :

« قال موسى لقومه إستعينوا بالله واصبروا ، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين » .

أى : قال موسى لقومه على سبيل التشجيع والتسلية حين ضجروا وارتعبوا من تهديدات فرعون وملئه : ياقوم إستعينوا بالله فى كل أموركم . واصبروا على البلاء ، فهذه الأرض ليست ملكا لفرعون وملئه ، وإنما هى ملك لله رب العالمين ، وهو ـ سبحانه ـ يورثها لمن يشاء من عباده ، وقد جرت سنته ـ سبحانه ـ أن يجعل العاقبة الطيبة لمن يخشاه ولا يخشى أحداً سواه .

بهذا الأسلوب المؤثر البليغ ، وبهذه الوصايا الحكيمة ، وصى موسى قومه بنى إسرائيل فماذا كان ردهم عليه ؟ لقد كان ردهم يدل على سفاهتهم ، فقد قالوا

له: « أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا » أي : قال بنو إسرائيل لموسى رداً على نصيحته لهم : لقد أصابنا الأذى من فرعون قبل أن تأتينا يا موسى بالرسالة ، فقد قتل منا ذلك الجبار الكثير من أبنائنا وأنزل بنا ألواناً من الظلم والاضطهاد وأصابنا الأذى بعد أن جئتنا بالرسالة كما ترى من سوء أحوالنا . واشتغالنا بالأشغال الحقيرة المهينة ، فنحن لم نستفد من رسالتك شيئاً ، فإلى متى نسمع منك تلك النصائح التي لا جدوى من ورائها ؟

ومع هذا الرد السفيه من قوم موسى عليه ، نراه يرد عليهم بما يليق به فيقول : « عسى ربكم أن يهلك عدوكم » فرعون الذي فعل بكم ما فعل من أنواع الظلم ، وتوعدكم بما توعد من صنوف الاضطهاد .

« ويستخلفكم في الأرض » أي يجعلكم خلفاء فيها من بعد هلاكه هو وشيعته . « فينظر كيف تعملون » أي : فيرى — سبحانه — الكائن منكم من العمل ، حسنه وقبيحه ، ليجازيكم على حسب أعمالكم ، فإن استخلافكم في الأرض من بعد هلاك أعدائكم ليس محاباة لكم ، وإنما هو استخلاف للاختبار والامتحان . فإن أحسنتم زادكم الله من فضله ، وإن أسأتم كان مصيركم كمصير أعدائكم .

وفي التعبير « بعسى » الذي يدل على الرجاء ، أدب عظيم من موسى مع ربه ـ عز وجل ـ وتعليم للناس من بعده أن يلتزموا هذا الأدب السامي مع خالقهم ، وفيه كذلك منع لهم من الاتكال وترك العمل ، لأنه لو جزم لهم في الوعد فقد يتركون السعي والجهاد إعتماداً على ذلك .

وقيل : إن موسى ساق لهم ما وعدهم به في صيغة الرجاء لئلا يكذبوه ، لضعف نفوسهم بسبب ما طال عليهم من الذل والاستخذاء لفرعون وقومه ، واستعظامهم لملكه وقوته ، فكأنهم يرون أن ما قاله لهم موسى مستبعد الحصول . لذا ساقه لهم في صورة الرجاء .

ثم تمضي السورة الكريمة بعد ذلك فتحدثنا في بضع آيات عن العذاب

الذى أخذ الله به آل فرعون بسبب ظلمهم وطغيانهم، وكيف أن الله - تعالى - قد حقق لموسى رجاءه، وكيف أن أولئك الظالمين لم يمنعهم العذاب الذى نزل بهم من ارتكاب المنكرات والآثام..

« ولَقَدْ أخَذْنَا آل فِرْعونَ بالسِّنِينَ ، ونَقْصٍ منَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٣٠) فَإِذَا جَاءَتْهُم الْحَسَنَةُ قَالُوا لَنَا هَٰذِهِ ، وإِنْ تصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا بِمُوسَى ومَنْ مَعَهُ ، أَلاَ إِنمَا طَائِرُهُمْ عِنْدَ اللهِ ولَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (١٣١) وقَالُوا مَهْمَا تَأْتِنَا به مِنْ آيَةٍ لِتَسْحَرَنَا بِهَا فمَا نَحْنُ لكَ بِمُؤْمِنِينَ (١٣٢) فَأَرسلْنَا علَيْهِمْ الطوفَانَ وَالْجَرادَ والقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ والدَّمَ ، آيَاتٍ مُفَصَّلاَتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْماً مُجْرِمِينَ (١٣٣) وَلَمَّا وَقَعَ عليْهِمُ الرِّجْزُ قَالوا يَا مُوسَى ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِنْدَكَ ، لَئِنْ كَشَفْتَ عنا الرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعكَ بنِي إِسْرَائِيلَ (١٣٤) فلمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمْ الرِّجْزَ إِلَى أَجَلٍ هُمْ بَالِغُوهُ إِذَا هُمْ ينكُثُونَ (١٣٥) فانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فى اليَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٣٦) وَأَوْرَثْنَا القومَ الذين كانوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الأرضِ ومغَارِبَهَا التى بَارَكْنَا فيهَا ، وتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ الْحُسْنَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ بِمَا صَبَرُوا ، وَدَمَّرْنَا ما كانَ يصنَعُ فِرْعَونُ وَقَومُهُ وَمَا كانُوا يَعْرِشُونَ (١٣٧) » .

تدبر معنا أيها القارىء الكريم تلك الآيات الكريمة التى تحكى كل ذلك وغيره بأسلوبها البليغ المؤثر .

قال القرطبى : قوله - تعالى - : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين »

يعنى الجدب ، وهذا معروف فى اللغة ، يقال : أصابتهم سنة ، أى : جدب . وتقديره : جدب سنة ، وفى الحديث « اللهم إجعلها عليهم سنين كسنى يوسف ». والسنة هنا بمعنى الجدب لا بمعنى الحول . ومنه أسنت القوم ، أى أجدبوا وقحطوا (١)

وقال الآلوسى : هذا شروع فى تفصيل مبادىء الهلاك الموعود به، وإيذان بأنهم لم يمهلوا حتى تحولوا من حال إلى حال إلى أن حل بهم عذاب الإستئصال (٢)

والمعنى : ولقد اخذنا آل فرعون اى : إختبرناهم وامتحناهم بالجدب والقحط ، وضيق المعيشة ، وإنتقاص الثمرات لعلهم يثوبون إلى رشدهم ؛ ويتذكرون ضعفهم امام قوة خالقهم ، ويرجعون عما هم فيه من الكفر والعصيان ، فإن الشدائد من شأنها ان ترقق القلوب، وتصفى النفوس، وترغب فى الضراعة الى الله ، وتدعوا إلى اليقظه والتفكير ومحاسبة النفس على الخطايا، إتقاء للبلايا .

وصدرت الآية الكريمة بالقسم ، لاظهار الاعتناء بمضمونها .

والمرد بآل فرعون قومه واتباعه ، فهم مؤاخذون بظلمه وطغيانه ، لأن قوته المالية والجندية منهم ، وقد خلقهم الله احراراً ؛ واكرمهم بالعقل والفطرة التى تكره الظلم والطغيان بالغريزة فكان حقا عليهم الا يقبلوا إستعباده لهم وجعلهم آلة لطغيانه ، لا سيما بعد بعثة موسى — عليه السلام — ووصول دعوته اليهم ، ورؤيتهم لما ايده الله به من الآيات (٣) .

---

(١) تفسير القرطبى ﺣ ٢ ص ٢٩٣
(٢) تفسير الآلوسى ﺣ ٨ ص ١٣٨
(٣) تفسير المنار ﺣ ٩ ص ٨٦

وإضافة الآل إليه وهو لا يضاف إلا إلى الأشراف ، لما فيه من الشرف الدنيوى الظاهر ، وإن كان فى نفس الأمر خسيسا .

ثم بين - سبحانه - أن آل فرعون لم يعتبروا بهذا الأخذ والامتحان ، وإنما ازدادوا تمردا وكفرا فقال : « فإذا جاءتهم الحسنة قالوا : لنا هذه » .

أى : فإذا جاءهم مايستحسنونه من الخصب والسعة والرخاء ، قالوا بغرور وصلف : ما جاء هذا الخير إلا من أجلنا لأننا أهل له ، ونحن مستحقوه بكدنا واجتهادنا وامتيازنا على غيرنا ناسين فضل الله عليهم ، ولطفه بهم، غافلين عن شكره على نعمائه .

« وإن تصبهم سيئة يطيروا بموسى ومن معه » أى : وإن اتفق أن أصابتهم سيئة أى : حالة تسوءهم كجدب أو قحط أو مصيبة فى الأبدان أو الأرزاق ، تشاءموا بموسى ومن معه من أتباعه ، وقالوا : ما أصابنا ما أصابنا إلا بشؤمهم ونحسهم ، ولو لم يكونوا معنا لما أصبنا .

وأصل « يطيروا » يتطيروا فأدغمت التاء فى الطاء لمقاربتها لها . والتطير التشاؤم والأصل فى إطلاق التطير على التشاؤم : أن العرب كانت تزجر الطير فتتشاءم بالبارح وهو ما طار إلى الجهة اليسرى ، وتتيامن بالسانح وهو ماطار إلى الجهة اليمنى . ومنه سموا الشؤم طيرا وطائراً ، والتشاؤم تطيرا . وقد يطلق الطائر على الحظ والنصيب خيراً كان أو شراً ، ولكنه غالب فى الشر .

وإنما عرف الحسنة وذكرها مع أداة التحقيق - وهى إذا - لكثرة وقوعها وتعلق الإرادة بإحداثها بالذات ، لأن العناية الإلهية اقتضت سبق الرحمة وعموم النعمة قبل حصول الأعمال . ونكر السيئة وذكرها بأداة الشك - وهى إن - لندورها وعدم تعلق الإرادة بإحداثها إلا بالتبع ، فإن النقمة بمقتضى تلك العناية إنما تستحق بسبب الأعمال السيئة .

وقوله - تعالى - « ألا إنما طائرهم عند الله ولكن أكثرهم لا يعلمون » استئناف مسوق للرد على خرافاتهم وأباطيلهم . وصدر بلفظ « ألا » الذى يفيد التنبيه لإبراز كمال العناية بمضمون هذا الخبر .

أي : إنما سبب شؤمهم هو أعمالهم السيئة المكتوبة لهم عند الله ، فهي التي ساقت إليهم ما يسوءهم وليس لموسى ولا لمن معه أي تدخل في ذلك . ولكن أكثرهم يجهلون هذه الحقيقة ، فيقولون ما يقولون مما تمليه عليهم أهواؤهم وجهالاتهم .

وفي إسناد عدم العلم إلى أكثرهم ، إشعار بأن قلة منهم تعلم ذلك ، ولكنها لا تعمل بمقتضى علمها .

هذا ، وقد أفادت الآية الكريمة أن القوم لم يتأثروا لا بالرخاء ولا بالشدائد . الرخاء العظيم ، والخصب الواسع زادهم غروراً وبطراً ، والشدائد والمحن جعلتهم ينسبون أسبابها إلى غيرهم دون أن يتوبوا إلى الله من ذنوبهم . مع أن الشدائد — كما يقول صاحب الكشاف — تجعل الناس « أضرع خدوداً وألين أعطافاً ، وأرق أفئدة » .

ثم تحكي السورة الكريمة أن آل فرعون قد لجوا في طغيانهم يعمهون فقالت : « وقالوا مهما تأتنا به من آية لتسحرنا بها فما نحن لك بمؤمنين » .

أي : قال الملأ من بني إسرائيل لموسى بعد أن رأوا من حججه الدالة على صدقه : إنك ياموسى إن تجئنا بكل نوع من أنواع الآيات التي تستدل بها على حقية دعوتك لأجل أن تسحرنا بها ، أي تصرفنا بها عما نحن فيه ، فما نحن لك بمصدقين ، ولا لرسالتك بمتبعين .

ومنطقهم هذا يدل على منتهى العناد والجحود ، فهم قد صاروا في حالة نفسية لا يجدي معها دليل ولا ينفع فيها إقناع ، لأنهم قد أعلنوا الإصرار على التكذيب حتى ولو أتاهم نبيهم بألف دليل ودليل ، وهكذا شأن الجبارين الذين قست قلوبهم ، ومسخت نفوسهم وأظلمت مشاعرهم ، حين يدمغهم الحق ، ويطاردهم الدليل الساطع بنوره الواضح ، إنهم تأخذهم العزة بالإثم فيأبون أي لون من ألوان التفكير والتدبر .

قال الجمل : و « مهما » اسم شرط جازم — يدل على العموم — ، و « من

آية ، بيان له ، والضميران فى « به » و « بها » راجعان لمهما الأول مراعاة للفظها لإبهامه ، والثانى مراعاة لمعناها[١] » .

وسموا ما جاء به موسى - عليه السلام - آية من باب المجاراة له والاستهزاء بها حيث زعموا أنها نوع من السحر كما ينبىء عنه قولهم « لتسحرنا بها » .

ثم حكت السورة الكريمة ما حل بهؤلاء الفجرة من عقوبات جزاء عتوهم وعنادهم فقالت : « فأرسلنا عليهم الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع والدم ، آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين .

أى : فأرسلنا على هؤلاء الجاحدين عقوبة لهم الطوفان .

قال الآلوسى : أى : ما طاف بهم ، وغشى أماكنهم وحروثهم من مطر وسيل ، فهو اسم جنس من الطواف .. وقد اشتهر فى طوفان الماء ، وجاء تفسيره هنا بذلك فى عدة روايات عن ابن عباس . وجاء عن عطاء ومجاهد تفسيره بالموت ، وفسره بعضهم بالطاعون وكانوا أول من عذبوا به »[٢] .

وأرسلنا عليهم « الجراد » فأكل زروعهم وثمارهم وأعشابهم ، حتى ترك أرضهم سوداء قاحلة .

وأرسلنا عليهم « القمل » وهو ضرب معروف من الحشرات المؤذية ، وقيل هو السوس الذى أكل حبوبهم وما اشتملت عليه بيوتهم .

وأرسلنا عليهم « الضفادع » فصعدت من الأنهار والخلجان والمنابع فغطت الأرض وضايقتهم فى معاشهم ومنامهم .

وأرسلنا عليهم « الدم » فصارت مياه الأنهار مختلطة به ، فمات السمك فيها ، وقيل المراد بالدم الرعاف الذى كان يسيل من أنوفهم .

تلك هى النقم التى أنزلها الله - تعالى - على هؤلاء المجرمين ، بسبب فسوقهم عن أمر ربهم ، وتكذيبهم لنبيهم - عليه السلام - .

وقوله : « آيات » حال من العقوبات الخمس المتقدمة .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج٢ ص١٨١ (٢) تفسير الآلوسى ج٩ ص٢٣

وقوله : « مفصلات » أى : مبينات واضحات لايشك عاقل فى كونها آيات إلهية لا مدخل فيها للسحر كما يزعمون .

وقيل « مفصلات » أى: مميزا بعضها عن بعض ، منفصلة بالزمان لامتحان أحوالهم . وكان بين كل اثنين منها شهر ، وكان امتداد كل واحدة منها شهرا ، كما أخرج ذلك ابن المنذر عن ابن عباس(١) :

ثم وضحت الآية فى نهايتها موقفهم من هذا الابتلاء وتلك العقوبات فقالت :
« فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين » أى فاستكبروا عن الايمان بموسى — عليه السلام — وعما جاء به من معجزات ، وكانوا قوما طبيعتهم الاجرام وديدنهم الكفر والفسوق .

ثم بين — سبحانه — حالهم عند نزول العقاب بهم فقال : « ولما وقع عليهم الرجز قالوا يا موسى ادع لنا ربك بما عهد عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ، ولنرسلن معك بنى إسرائيل » .

أى وحين وقع على فرعون ومثله العذاب المذكور فى الآية السابقة ، والمتمثل فى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم ، حين وقع عليهم ذلك أخذوا يقولون لموسى بتذلل واستعطاف عقب كل عقوبة من تلك العقوبات : ياموسى أدع لنا ربك واسأله بحق ما عهد عندك من أمر إرسالك إلينا لانقاذنا من الهلاك أن يكشف عنا هذا العذاب ، ونحن نقسم لك بأنك إن كشفته عنا لنؤمنن لك ولنرسلن معك بنى إسرائيل .

قال صاحب الكشاف : بما عهد عندك ، ما مصدرية ، والمعنى بعهده عندك وهو النبوة . والباء إما أن تتعلق بقوله : (ادع لنا ربك) على وجهين : أحدهما أسعفنا إلى ما نطلب إليك من الدعاء لنا بحق ما عندك من عهد الله وكرامته بالنبوة . أو ادع الله لنا متوسلا إليه بعهده عندك . وإما أن يكون قسما مجابا بلنؤمنن ، أى . أقسمنا بعهدالله عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك»(٢) .

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٩ ص ٣٥   (٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٤٨

ثم بين — سبحانه — موقفهم الجحودى فقال : فلما كشفنا عنهم الرجز إلى أجل هم بالغوه إذا هم ينكثون » أى : فلما كشفنا عنهم العذاب مرة بعد مرة إلى الوقت الذى أجل لهم وهو وقت إغراقهم فى اليم، إذاهم ينكثون أى : ينقضون عهدهم الذى التزموه ، ويحنثون فى قسمهم فى كل مرة .

وينكثون : من النكث . وأصله فك طاقات الصوف المغزول ليغزل ثانيا، ثم استعير لنقض العهد بعد إبرامه .

قال الآلوسى . وجواب « لما » فعل مقدر يؤذن به إذا الفجائية لا الجملة المقترنة بها ، أى: فلما كشفنا عنهم ذلك فاجأوا بالنكث من غير توقف»(١).

هذا ، وقد ساق بعض المفسرين آثارا متعددة فى كيفية نزول هذا العذاب بهم . ومن هذه الآثار ما رواه أبو جعفر بن جرير — بسنده — عن سعيد بن جبير قال :

لما أبى موسى — عليه السلام — فرعون قال له : أرسل معى بنى إسرائيل، فأرسل الله عليهم الطوفان وهو المطر فصب عليهم منه شيئا خافوا أن يكون عذابا . فقالوا لموسى: أدع لنا ربك أن يكشف عنا هذا المطر فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل . فدعا ربه ، فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل. فأنبت لهم فى تلك السنة شيئا لم ينبته قبل ذلك من الزروع والثمار والكلأ . فقالوا : هذا ما كنا نتمنى ، فأرسل الله عليهم الجراد فسلطه على الكلأ ، فلما رأوا أثره فى الكلأ عرفوا أنه لا يبقى الزرع فقالوا : يا موسى ادع لنا ربك أن يكشف عنا الجراد فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل، فدعا ربه فكشف عنهم الجراد فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل ، فداسوا وأحرزوا فى البيوت قالوا : قد أحرزنا . فأرسل الله عليهم القمل وهو السوس الذى يخرج منه ، فكان الرجل يخرج عشرة أجربة إلى الرحى فلم يرد منها إلا ثلاثة أقفـــزة

(١) تفسير الآلوسى حـ ٩ ص ٢٦ .

ـ والجريب والقفيز مكيالان للحبوب ، والجريب أربعة أقفزة ـ فقالوا يا موسى أدع لنا ربك أن يكشف عنا القمل فنؤمن لك ونرسل بنى إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فأبوا أن يرسلوا معه بنى إسرائيل. فبينما هو جالس عند فرعون إذ سمع نقيق ضفدع فقال لفرعون : ما تلق أنت وقومك من هذا فقال : وما عسى أن يكون كيد هذا ، فما أمسوا حتى كان الرجل يجلس إلى ذقنه فى الضفادع ، ويهم أن يتكلم فيثب الضفدع فى فيه فقالوا لموسى أدع لنا ربك أن يكشف عنا هذه الضفادع فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل فدعا ربه فكشف عنهم فلم يؤمنوا ، وأرسل الله عليهم الدم فكانوا ما استقوا من الأنهار والآبار ، وما كان فى أوعيتهم وجدوه دما عبيطا ، فشكوا إلى فرعون، فقالوا إنا قد ابتلينا بالدم فليس لنا شراب ، فقال : إنه قد سحركم ، فقالوا : من أين سحرنا ونحن لا نجد فى أوعيتنا شيئا من الماء إلا وجدناه دما عبيطا ؟ فأتوه وقالوا : يا موسى أدع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن لك ونرسل معك بنى إسرائيل ، فدعا ربه فلم يؤمنوا ولم يرسلوا معه بنى إسرائيل »[1] .

قال ابن كثير : وقد روي نحو هذا عن ابن عباس والسدى وقتادة وغير واحد من علماء السلف أنه أخبر بهذا .

ثم حكت السورة الكريمة نهايتهم الأليمة، بسبب نقضهم لعهودهم ومواثيقهم فى كل مرة ، وبسبب تكذيبهم لآيات الله . وعصيانهم لنبيهم موسى ـ عليه السلام ـ فقالت : فانتقمنا منهم فأغرقناهم فى اليم ، بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » أى : فانتقمنا منهم عند بلوغ الأجل المضروب لإهلاكهم . بأن أغرقناهم فى اليم ـ أى البحر ـ ، وذلك بسبب تكذيبهم لآياتنا الواضحة وحججنا الساطعة ، وكانوا عنها غافلين بحيث لا يتدبرونها ، ولا يتفكرون فيما تحمله من عظات وعبر .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٢٤١ .

والقرآن هنا يسوق حادث إغراق فرعون وملئه بصورة مجملة ، فلا يفصل خطواته كما فصلها فى مواطن أخرى ، وذلك لأن المقام هنا هو مقام لأخذ الحاسم بعد الإمهال الطويل ، فلا داعى إذن إلى طول العرض والتفصيل . إن الحسم السريع هنا أوقع فى النفس ، وأرهب للحس ، وأزجر للقلب ، وأدعى إلى العظة والاعتبار ، ولأن سورة الأعراف - كما سبق أن بينا - يغلب عليها هذا الأسلوب الذى يزلزل قلوب الطغاة ، ويغرس فى النفوس الرهبة والخوف وهى تقص على الناس ما أصاب الظالمين من عذاب دنيوى مضى وصار تاريخا يعلمونه ويتحدثون عنه ، وهو ما حل بالأمم السابقة التى كذبت رسلها وعتت عن أمر ربها .

ثم وهى تحكى لهم ما أعد للمستكبرين من عذاب أخروى بسبب عصيانهم وانتهاكهم لحرمات الله .

ثم بين - سبحانه - مظاهر فضله وكرمه على بنى إسرائيل بعد أن بين نهاية فرعون وآله فقال : « وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها » .

أى : وأعطينا القوم الذين كانوا يستضعفون فى مصر من فرعون وملئه بالاستعباد وقتل الأبناء ، وسوء العذاب ، أعطيناهم من طريق الاستخلاف - قبل أن يزيغوا ويضلوا - مشارق أرض الشام ومغاربها التى باركنا فيها بالخصوبة وسعة الأرزاق ، وبكونها مساكن الأنبياء والصالحين ليكون ذلك امتحانا لهم ، واختبارا لنفوسهم .

وجمع - سبحانه - بين صيغتى الماضى والمستقبل للدلالة على استمرار الاستضعاف وتجدده ، والمراد بهم بنو إسرائيل ، وذكروا بعنوان القوم ، إظهارا لكمال اللطف بهم ، وعظيم الإحسان إليهم ، حيث رفعوا من حضيض المذلة إلى أوج العزة .

وقوله : « وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا » ، أى : ونفذت كلمة الله الحسنى ومضت عليهم تامة كاملة ، حيث رزقهم - سبحانه - النصر على أعدائهم . والتمكين فى الأرض بسبب صبرهم على ظلم فرعون وملئه .

قال الزمخشرى : وحسبك به حاثا على الصبر . ودالا على أن من قابل البلاء بالجزع وكله الله إليه . ومن قابله بالصبر ، وانتظار النصر ، ضمن الله له الفرج »

وعن الحسن : عجبت ممن خف كيف خف وقد سمع قوله - تعالى- ثم تلا هذه الآية « وأورثنا القوم الذين كانوا .... » ومعنى « خف » طاش جزعا وقلة صبر ، ولم يرزق رزانة أولى الصبر[1] » .

ثم ختمت الآية بقوله - تعالى - ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه من بناء القصور الشاهقة والمنازل القوية ، وما كانوا يرفعونه من البساتين ، والصروح المشيدة ، كصرح هامان وغيره .

و « يعرشون » بكسر الراء وضمها - أى يرفعون من العرش وهو الشىء المسقف المرفوع .

قال الجمل : وقوله « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه » فى إعرابه أوجه ، أحدها : أن يكون فرعون اسم كان ويصنع خبر مقدم ، والجملة الكونية صلة والعائد محذوف . والتقدير : ودمرنا الذى كان فرعون يصنعه . الثانى : أن اسم كان ضمير عائد على ما الموصولة ، ويصنع مسند لفرعون . والجملة خبر عن كان ، والعائد محذوف ، والتقدير : ودمرنا الذى كان هو يصنعه فرعون . الثالث : أن تكون كان زائدة وما مصدريةوالتقديرودمرنا ما يصنع فرعون أى : صنعه ..[2] » .

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٤٩ .
(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ١٨٥ .

وهكذا تنهى السورة الكريمة هذا الدرس بذكر ما أصاب الظالمين والغادرين من دمار وخراب ، وما أصاب المستضعفين الصابرين من خير واستخلاف فى الأرض .

ثم بدأت السورة بعد ذلك مباشرة حديثاً طويلا عن هؤلاء المستضعفين من بنى إسرائيل بينت فيه ألوانا من جحودهم لنعم الله ، ونسيانهم لما كانوا فيه من ذل واستعباد ، وتفضيلهم عبادة الأصنام على عبادة الخالق - عز وجل وغير ذلك من أنواع كفرهم ومعاصيهم ، واستمع إلى القرآن وهو يحكى لونا من رذائلهم فيقول :

« وَجاَوَزْنا بِبَنِى إِسْرَائيلَ البَحْرَ فأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصنامٍ لَهُم ، قَالوا يا مُوسَى اجعلْ لَنَا إِلهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنكُمْ قومٌ تَجْهَلونَ (١٣٨) إِنَّ هؤُلَاء مُتَبَّرٌ مَاهُمْ فِيهِ وباطِلٌ ما كانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٩) قالَ أَغَيْرَ اللهِ أَبغيكُم إلهاً وهوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى العَالَمِينَ (١٤٠) وَإِذْ أَنجَيْنَاكُم مِنْ آلِ فِرعونَ يَسُومُونكُمْ سُوءَ العَذَابِ ، يقَتِّلونَ أَبْناءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِساءَكُم ، وفى ذلِكُم بلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (١٤١) » .

إن هذه الآيات تحكى قصة عجيبة لبنى إسرائيل ملخصها : أنهم بعد أن خرجوا من مصر بقيادة موسى - عليه السلام — تبعهم فرعون وجنوده ليعيدوهم إليها ، إلا أن الله - تعالى - انتقم لهم من فرعون وجنده فأغرقهم أمام أعينهم وسار بنو إسرائيل نحو المشرق متجهين إلى الأرض المقدسة بعد أن عبروا البحر ، ولكنهم ما إن جاوزوا البحر الذى غرق فيه عدوهم والذى مازالت رماله الرطبة عالقة بنعالهم ، حتى وقعت أبصارهم على قوم يعبدون الأصنام ، فماذا كان من بنى إسرائيل ؟

كان منهم أن عاودتهم طبيعتهم الوثنية ، فطلبوا من نبيهم موسى — عليه السلام ـ الذى جاء لهدايتهم وإنقاذهم مما هم فيه من ظلم أن يصنع لهم آلهة من جنس الآلهة التى يعبدها أولئك القوم .

وهنا غضب عليهم موسى غضباً شديداً . ووصفهم بأنهم قوم يجهلون الحق ، وبين لهم فساد ماعليه المشركون ، وذكرهم بما حباهم الله ـ تعالى ـ به من نعم جزيلة ، يوجب عليهم إفراده بالخضوع والعبادة والطاعة والشكر .

وقوله ـ تعالى ـ « وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر » بيان للمنة العظيمة التى منحهم الله إياها ، وهى عبورهم البحر بعد أن ضربه موسى بعصاه ، فأصبح طريقا يابسا يسيرون فيه بأمان واطمئنان حتى عبروه إلى الناحية الأخرى ، يصحبهم لطف الله ، وتحدوهم عنايته ورعايته .

وجاوز بمعنى أصل الفعل الذى هو جاز ، أى : قطعنا بهم البحر . يقال : جاز الوادى وجاوزه إذا قطعه وخلفه وراء ظهره .

والمراد بالبحر : بحر القلزم وهو المسمى الآن بالبحر الأحمر .

وقوله تعالى (فأتوا على القوم يعكفون على أصنام لهم) بيان لما شاهدوه من أحوال بعض المشركين عقب عبورهم البحر ونجاتهم من عدوهم ، فماذا كانت نتيجة هذه المشاهدة ؟ لقد كان المتوقع منهم أن يحتقروا ماشاهدوه ، وأن ينفروا مما أبصروه ، لأن العهد لم يطل بهم منذ أن كانوا يسامون سوء العذاب فى ظل عبادة الأصنام عند فرعون وقومه ، ولأن نجاتهم مما كانوا فيه من ذل وهوان ، قد تمت على يد نبيهم الذى دعاهم إلى توحيد الله ـ تعالى ـ لكى يزيدهم من فضله .

ولكن طبيعة بنى إسرائيل المعوجة لم تفارقهم ، فهاهم أولاء ما إن وقعت

أبصارهم على قوم يعكفون ويداومون على عبادة أصنام لهم[١]، حتى انجذبوا إليها وطلبوا من نبيهم الذى جاء لهدايتهم، أن يجعل لهم وثناً كغيرهم لكى يعبدوه من جديد. لقد حكى القرآن عنهم أنهم عندما شاهدوا هذا المنظر، مالبثوا أن قالوا لنبيهم (ياموسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة). قالوا ذلك لأن الإيمان لم يستقر فى قلوبهم، ولأن ما ألفوه من عبادة الأصنام أيام استعباد فرعون لهم، مازال متمكناً من نفوسهم، ومسيطراً على عقولهم، وهكذا عدوى الأمراض تصيب النفوس كما تصيب الأبدان، وهكذا طبيعة بنى إسرائيل ماتكاد تهتدى حتى تضل، وماتكاد ترتفع حتى تنحط؛ وماتكاد تسير فى طريق الاستقامة حتى ترتكس وتنتكس.

وفى قولهم لنبيهم (اجعل لنا إلها كما لهم آلهة) بصيغة الأمر، أكبر دليل على غباء عقولهم، وسوء أدبهم؛ لأنهم لو استئذنوه - مثلا - فى اتخاذ صنم يعبدونه كغيرهم لكان شأنهم أقل غرابة؛ ولكن الذى حصل منهم أنهم طلبوا منه — وهو نبيهم الداعى لهم إلى توحيد الله تعالى؛ والمنقذ لهم من عدوهم الوثنى الجبار — أن يقوم هو بنفسه بصناعة صنم لكى يعبدوه كغيرهم!!.

قال القرطبى: ونظيره قول جهال الأعراب وقد رأوا شجرة خضراء للكفار تسمى ذات أنواط - لأنهم كانوا ينوطون بها سلاحهم أى يعلقونه - وكان الكفار يعظمون هذه الشجرة فى كل سنة يوماً، قال الأعراب: يارسول الله اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله - صلى الله

---

(١) اختلف المفسرون فى شأن القوم الذين كانوا يعكفون على أصنامهم عند مرور بنى إسرائيل بهم، فقيل هم من عرب لخم. وقيل هم من لخم وجذام. وقيل كانوا من الكنعانيين الذين أمر موسى - قومه بقتالهم، وقيل إنهم من العرب الذين كانوا يقيمون بقرب حدود مصر.

عليه وسلم - « الله أكبر . قلتم والذى نفسى بيده كما قال قوم موسى « اجعل لنا إلها كما لهم آلهة » لتركبن سنن من قبلكم حذو القذة بالقذة[1] حتى إنهم لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » وكان هذا فى مخرجه إلى حنين »[2] .

واقد غضب موسى - عليه السلام - من طلبهم هذا - وهو الغضوب بطبيعته لربه ودينه - فرد عليهم رداً قوياً فيه توبيخ لهم وتعجب من قولهم بعد أن رأوا من المعجزات ما رأوا فقال: (إنكم قوم تجهلون) أى : إنكم يابنى إسرائيل بطلبكم هذا برهنتم على أنكم قوم قد ملأ الجهل قلوبكم ، وغطى على عقولكم ، فصرتم لا تفرقون بين ماعليه هؤلاء من ضلال مبين ، وبين مانستحقه الألوهية ماتستحقه الألوهية من صفات وتعظيم ولم يقيد مايجهلونه ليفيد أنه جهل كامل شامل يتناول فقد العلم ، وسفه النفس ، وفساد العقل . وسوء التقدير .

وبعد أن كشف لهم سوء حالهم ، وفرط جهالاتهم ، بين لهم فساد ماطلبوه فى ذاته ، وقبح عاقبة من أرادوا تقليدهم ، فقال لهم بأسلوب الاستئناف المفيد للتعليل (إن هؤلاء متبر ماهم فيه وباطل ما كانوا يعملون) .

متبر : من التتبير بمعنى الإهلاك أو التكسير والتحطيم يقال : تبره يتبره وتبره أى أهلكه ودمره .

أى : إن هؤلاء الذين تبغون تقليدهم فى عبادة الأوثان ، محكوم على ماهم فيه بالدمار ، ومقضى على مايعملونه من عبادة الأصنام بالاضمحلال والزوال لأن دين التوحيد سيظهر فى هذه الديار ، وستصير العبادة لله الواحد القهار .

وبهذا الرد يكون موسى - عليه السلام - قد كشف لقومه عن سوء مايطلبون ، وصرح لهم بأن مصير مايبغونه إلى الهلاك والتدمير .

---

(١) القذة : ريش السهم . قال ابن الأثير : يضرب مثلا للشيئين يستويان ولا يتفاوتان .

(٢) تفسير القرطبى حـ ٧ ص ٢٧٣ .

قال الإمام الرازى : (والمراد من بطلان عملهم أنه لا يعود عليهم من عبادة ذلك العجل نفع ولا دفع ضرر، وتحقيق القول فى هذا الباب أن المقصود من العبادة أن تصير المواظبة على تلك الأعمال سببا لاستحكام ذكر الله تعالى فى القلب حتى تصير الروح سعيدة بحصول تلك المعرفة فيهـا ، فإذا إشتغل الإنسان بعبادة غير الله تعلق قلبه بغيره ، ويصير ذلك التعلق سببا لأعراض القلب عن ذكره تعالى . وإذا ثبت هذا التحقيق ظهر أن الاشتغال بعبادة غير الله متبر وباطل وضائع . وسعى فى تحصيل ضد هذا الشىء ونقيضه . لأنا بينا أن المقصود من العبادة ، رسوخ معرفة الله - تعالى — فى القلب والاشتغال بعبادة غير الله يزيل معرفته عن القلب ، فكان هـذا ضد للغرض ونقيضا للمطلوب — والله أعلم —)[1] .

ثم مضى موسى — عليه السلام — يستنكر عليهم هذا الطلب ، ويبين لهم أن الله وحده هو المستحق للعبادة فقال : (أغير الله أبغيكم إلها وهو فضلكم على العالمين) .

أى قال موسى - عليه السلام مذكرا قومه بنعم الله عليهم الموجبة لإفراده بالعبادة والخضوع أغير الله أطلب لكم معبودا أحملكم على العبودية له ، وهو فضلكم على عالمى زمانكم ، وقد كان الواجب عليكم أى تخصوه بالعبادة ، كما إختصكم هو بشتى النعم الجليله . فالاستفهام فى الآية الكريمة للانكار المشرب معنى التعجب لابتغائهم معبودا سوى الله - تعـالى - الذى غمرهم بنعمه ، وأحاطهم بألوان إحسانه .

و « غيره » كما قال الجمل - منصوب على أنه مفعول به لأبغيكم على حذف اللام والتقدير : أأبغى لكم إلها ، فلما حذف الحرف وصل الفعل بنفسه وهو غير منقاس . و « إلها » تمييز لغير .

ثم ذكرهم - سبحانه - بنعمة إنجائهم من العذاب والتنكيل ، ليبتليهم

---

(١) تفسير الرازى ج ٤ ص ٢٩١

أيشكرون أم يكفرون ، فقال تعالى : (وإذ أنجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب ، يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) .

« إذ » بمعنى وقت ، وهى مفعول به لفعل ملاحظ فى الكلام وهو اذكروا أى: اذكروا وقت أن أنجيناكم من آل فرعون . والمراد من التذكير بالوقت تذكيرهم بما وقع فيه من أحداث .

وآل الرجل : أهله وخاصته وأتباعه . ويطلق غالباً على أولى الشأن والخطر من الناس ، فلا يقال آل الحجام أو الاسكاف .

و « يسومونكم سوء العذاب » يبغون لكم أشد العذاب وأفظعه من السوم وهو مطلق الذهاب ، أو الذهاب فى إبتغاء الشىء . يقال : سامت الابل فهى سائمة ، أى ذهبت إلى المرعى . وسام السلعة ، إذا طلبها وابتغاها .

والسوء - بالضم - كل ما يحزن الانسان ويغمه من الأمور الدنيوية أو الأخروية . ويستحيون : أى يستبقون . يقال : إستحياه أى : إستبقاه ، وأصله : طلب له الحياة والبقاء . والبلاء : الامتحان والاختبار ويكون بالخير والشر .

والمعنى : واذكروا يا بنى إسرائيل لتعتبروا وتتعظوا وتشكروا الله على نعمه وقت أن أنجيناكم من آل فرعون الذين كانوا يعذبونكم أشق العذاب وأصعبه ، حيث كانوا يزهقون أرواح ذكوركم ، ويستبقون نفوس نسائكم ليستخدموهن ويستذلوهن . وفى ذلكم العذاب وفى النجاة منه إمتحان لكم لتشكروا الله على نعمه ، ولتقلعوا عن السيئات التى تؤدى بكم إلى الاذلال فى الدنيا ، والعذاب فى الآخرى .

وجعلت النجاة هنا من آل فرعون ولم تجعل منه ، مع أنه هو الآمر بتعذيب بنى إسرائيل للتنبيه على أن حاشيته وبطانته كانت عوناً له على إذاقتهم سوء العذاب ، وفى إنزال ألوان الاذلال بهم .

وجعلت الآية الكريمة إستحياء النساء عقوبة لبنى إسرائيل - مع أنه

فى ظاهره نعمة لهم ـ لأن هذا الابقاء على النساء كان المقصود منه الاعتداء على أعراضهن، واستعمالهن فى شتى أنواع الخدمة ، وإذلالهن بالاسترقاق ، فبقاؤهن كذلك بقاء ذليل ؛ وعذاب أليم ، تأباه النفوس الكريمة ،والطباع الحرة الأبية .

قال الامام الرازى ما ملخصه : فى قتل الذكور دون الاناث مضرة من وجوه :

أحدها : أن ذبح الأبناء يقتضى فناء الرجال ، وذلك يقضى إنقطاع النسل ، لأن النساء إذا إنفردن فلا تأثير لهن البتة فى ذلك ، وهذا يقضى فى نهاية الأمر إلى هلاك الرجال والنساء جميعا .

ثانيها : أن هلاك الرجال يقتضى فساد مصالح النساء فى أمر المعيشة .

فإن المرأة لتتمنى الموت إذا انقطع عنها الرجال . لما قد تقع فيه من نكد العيش بالانفراد .

ثالثها : ان قتل الولد عقب الحمل الطويل ، وتحمل الكد،والرجاء القوى فى الانتفاع به من اعظم العذاب . فنعمة الله فى تخليصهم من هذه المحنة كبيرة .

رابعاً : ان بقاء النساءبدون الذكران من اقاربهن ، يؤدى الى صيرورتهن مستفرشات للأعداء . وذلك نهاية الذل والهوان (١)

وقد رجح كثير من المفسرين ان المراذ بالأبناء هنا الأطفال البالغين ، لأن اللفظ من حيث وضعه يفيد ذلك ، ولأن قتل الرجال لا يفيدهم حيث انهم كانوا يستعملونهم فى الأعمال الشاقه والحقيرة ، ولأنه كان المقصود بالذبح الرجال لما قامت ام موسى بإلقائه فى اليم وهو طفل صغير لتنجيه من الذبح .

ويرى بعض المفسرين أن المراد بالأبناء الرجال الأطفال،لأن لفظ الأبناء هنا جعل فى مقابلة النساء ، والنساء هن البالغات .

---

(١) تفسير الفخر الرازى جـ ١ ص ٢٨٥

والذى نرجحه هو القول الأول لما ذكرنا ، ولأنه أتم فى إظهار نعمة الانجاء ، حيث كان آل فرعون يقتلون الصغار قطعاً للنسل ، ويسترقون الأمهات إستعباداً لهن ، ويبقون الرجال للخدمة حتى ينقرضوا على سبيل التدرج ، وبقاء الرجال على هذه الحالة أشد عليهم من الموت .

وبهذا تكون الآيات الكريمة قد ردت على بنى إسرائيل فيما طلبوا أبلغ رد وأحكمه ، ووصفتهم بما هم أهله من سوء تدبير ، وسفاهة تفكير . فقد بدأت بإثبات جهلهم بربهم وبأنفسهم ، حيث طلبوا من نبيهم أن يجعل لهم الهاً كما لغيرهم آلهة ، ثم ثنت بإظهار فساد ما طلبوه فى ذاته ، لأن مصيره الى الزوال والهلاك ، وما كان كذلك لا يصلح ان يكون الهاًثم بينت بعد ذلك بأن العبادة لغير الله لا تجوز بأى حال ، لأنه هو وحده صاحب الخلق والأمر ، ثم ذكرتهم فى ختامها بوجوه النعم التى أسبغها الله عليهم ، لتشعرهم بأن ماطلبوه من نبيهم ، هو من قبيل مقابلة الاحسان بالجحود والنكران ، ولتحملهم على ان يتدبروا أمرهم ، ويراجعوا انفسهم ، ويتوبوا الى خالقهم توبة صادقة نصوحا . ان كانوا ممن ينتفع بالعظات ويعتبر بالمثلات .

ثم حكت لنا السورة الكريمة بعد ذلك مشهد تطلع موسى - عليه السلام - للقاء ربه ، ووصيته لأخيه هارون قبل ذهابه لهذا اللقاء العظيم فقالت :

« وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَاهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَاتُ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ، وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ (١٤٢) وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنْظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَنْ تَرَانِي وَلَـٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي ، فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ

دَكاً وَخَرَّ مُوسَى صَعِقاً ، فلمَّا أَفاقَ قالَ سُبْحانَكَ تُبْتَ إليكَ وَأَنا أَوَّلُ المُؤْمِنِينَ (١٤٣) قالَ مُوسَى إنِّى اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاتِي وَبِكلامِي فَخُذْ مَا آتيتُكَ وَكُنْ مِنْ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَكَتَبْنَا لَهُ فى الأَلوَاحِ مِنْ كُلِّ شَىْء مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلاً لِكلِّ شَىْء فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُم دَارَ الفَاسِقِينَ (١٤٥) » .

قال صاحب الكشاف : « روى ان موسى - عليه السلام - وعد بنى إسرائيل وهو بمصر ، إن اهلك الله عدوهم اتاهم بكتاب من عند الله ، فيه بيان ما يأتون وما يذرون ، فلما هلك فرعون سأل موسى ربه الكتاب فأمره بصوم ثلاثين يوما وهو شهر ذى القعدة ، فلما اتم الثلاثين انكر خلوف فمه فتسوك . فقالت له الملائكة : كنا نشم من فمك رائحة المسك فأفسدته بالسواك فأمره الله - تعالى - ان يزيد عليها عشرة ايام من ذى الحجة لذلك . وقيل امره الله ان يصوم ثلاثين يوما وان يعمل فيها بما يقربه من الله ثم انزل الله عليه فى العشر التوراة وكلمه فيها[1] » .

والمواعدة مفاعلة من الجانبين ، وهى هنا على غير بابها ، لأن المراد بها هنا ان الله - تعالى - امر موسى ان ينقطع لمناجاته اربعين ليلة تمهيداً لإعطائه التوراة ، ويؤيد ذلك قراءة ابى عمرو ويعقوب « وعدنا » .

وقيل المفاعلة على بابها على معنى ان الله - تعالى - وعد نبيه موسى ان يعطيه التوراة وامره بالحضور للمناجاة فوعد موسى ربه بالطاعة والامتثال ،

وقوله « ثلاثين » مفعول ثان لواعدنا بحذف المضاف ، اى : إتمام ثلاثين ليلة او إتيانها .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٥١ .

والضمير فى قوله « وأتممناها بعشر » يعود على المواعدة المفهومة من قوله « واعدنا » أى : وأتممنا مواعدته بعشر ، أو أنه يعود على ثلاثين :

وحذف تمييز عشر لدلالة الكلام عليه ، أى : وأتممناها بعشر ليال .

و « أربعين » منصوب على الحالية أى . فتم ميقات ربه بالغاً أربعين ليلة .

ثم حكى – سبحانه – ماوصى به موسى أخاه هارون فقال : « وقال موسى لأخيه هارون اخلفنى فى قومى » أى : قال موسى لأخيه هارون حين استودعه ليذهب لمناجاة ربه : كن خليفتى فى قومى ، ورافبهم فيما يأتون ويذرون فإنهم فى حاجة إلى ذلك لضعف إيمانهم ، واستيلاء الشهوات والأهواء عليهم « وأصلح ولاتتبع طريق المفسدين الذين إن يروا سبيل الرشد لايتخذوه سبيلا ، وإن يروا سبيل الغى يتخذوه سبيلا .

وإننا لنلمح من هـــذه الوصية أن موسى – عليه السلام – كان مترقعاً شراً من قومه ، ولقد صح ماتوقعه ، فإنهم بعد أن فارقهم موسى استغلوا جانب اللين فى هارون فعبدوا عجلا جسداً له خوار صنعه لهم السامرى . .

ثم حكى القرآن ما كان مع موسى عندما وصل إلى طور سيناء لمناجاة ربه فقال : « ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه » أى : وحين حضر موسى لموقتنا الذى وقتناه له وحددناه ، وكلمه ربه ، أى : خاطبه من غير واسطة ملك « قال رب أرنى أنظر إليك » أى : قال موسى حين كلمه ربه وسمع منه : رب أرنى ذاتك الجليلة . والمراد : مكنى من رؤيتك . أو تجل لى أنظر إليك وأراك .

و « أرنى » فعل أمر مبنى على حذف الياء . وياء المتكلم مفعول ، والمفعول الثانى محذوف أى : ذاتك او نفسك ولم يصرح به لأنه معلوم ، وزيادة فى التأدب مع الخالق – عز وجل – .

وجملة « قال لن ترانى » مستأنفة إستئنافاً بيانيا ، كأنه قيل : فاذا قال

الله - تعالى - حين قال موسى ذلك ، فكان الجواب « قال لن تراني » أي : لن تطيق رؤيتي ، وأنت في هذه النشأة وعلى الحالة التي أنت عليها في هذه الدنيا فنفي الرؤية منصب على الحالة الدنيوية ، أما في الآخرة فقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أن المؤمنين يرون ربهم في روضات الجنات .

ثم قال - تعالى - « ولكن أنظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف تراني » أي : لن تطيق رؤيتي ياموسى وأنت في هذه الحياة الدنيا ، ولكن أنظر إلى الجبل الذي هو أقوى منك ، فإن استقر مكانه أي ثبت مكانه حين أتجلى له ولم يتفتت من هذا التجلي ، فسوف تراني أي تثبت لرؤيتي إذا تجليت لك وإلا فلا طاقة لك برؤيتي .

وفي هذا الاستدراك « ولكن أنظر . . . ألخ » تسلية لموسى - عليه السلام - وتلطف معه في الخطاب ، وتكريم له ، وتعظيم لأمر الرؤية ، وأنه لايقوى عليها إلا من قواه الله بمعونته .

ثم بين - سبحانه - ماحدث للجبل عند التجلي فقال : « فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا » أي : فحين ظهر نوره - سبحانه - للجبل على الوجه اللائق بجلاله « جعله دكا » ، أي مدقوقا مفتتا ، فنبه - سبحانه - بذلك على أن الجبل مع شدته وصلابته مادام لم يستقر عند هذا التجلي ، فالآدمي مع ضعف بنيته أولى بأن لايستقر . والدك والدق بمعنى ، وهو تفتيت الشيء وسحقه وفعله من باب رد .

قال الآلوسي : وهذا كما لايخفى من المتشابهات التي يسلك فيها طريق التسليم وهو أسلم وأحكم ، أو التأويل بما يليق بجلال ذاته - تعالى - .

وقوله « وخر موسى صعقا » أي : سقط من هول مارأى من النور الذي حصل به التجلي مغشيا عليه ، كمن أخذته الصاعقه .

يقال : صعقتهم السماء تصعقهم صعقا فهو صعق أي : غشي عليه :

وقوله : « فلما أفاق قال سبحانك تبت إليك وأنا أول المؤمنين » أى: فلما أفاق موسى من غشيته ، وعاد إلى حالته الأولى التى كان عليها قبل أن يخر مغشيا عليه ، قال تعظيما لأمر الله « سبحانك » أى تنزيها لك من مشابهة خلقك فى شىء « تبت إليك » من الإقدام على السؤال بغير إذن « وأنا أول المؤمنين » بعظمتك وجلالك أو وأنا أول المؤمنين بأنه لا يراك أحد .

قال أبو العالية : قد كان قبله مؤمنون ، ولكن يقول أنا أول المؤمنين أنه لا يراك أحد من خلقك إلى يوم القيامة . قال ابن كثير : وهو قول حسن .

هذا ، وقد توسع بعض المفسرين عند تفسيره لهذه الآية فى الحديث عن رؤية الله - تعالى - وعلى رأس هـــذا البعض الإمام الآلوسى ، فقد قال - رحمه الله - : « واستدل أهل السنة المجوزون لرؤيته - سبحانه - بهذه الآية على جوازها فى الجملة ، واستدل بها المعتزلة النفاة على خلاف ذلك ، وقامت الحرب بينهما على ساق ، وخلاصة الكلام فى ذلك أن أهل السنة قالوا : إن الآية تدل على إمكان الرؤية من وجهين: الأول : أن موسى - عليه السلام - سألها بقوله « رب أرنى أنظر إليك » ولو كانت مستحيلة فإن كان موسى عالما بالإستحالة فالعالم فضلا عن النبى مطلقا ، فضلا عمن هو من أولى العزم لا يسأل المحال ولا يطلبه . وإن لم يكن عالما بذلك ، لزم أن يكون آحاد المعتزلة أعلم بالله وما يجوز عليه وما لا يجوز من النبى الصفى ، والقول بذلك غاية الجهل والرعونة وحيث بطل القول بالإستحالة تعين القول بالجواز .

والثانى : أن فيها تعليق الرؤية على استقرار الجبل وهو ممكن فى ذاته وما علق على الممكن ممكن » .

ثم قال ما ملخصه : واعترض الخصوم على الوجه الأول بوجوه منها أنا لا نسلم أن موسى سأل الرؤية وإنما سأل العلم الضرورى به - تعالى - إلا أنه عبر عنه بالرؤية مجازاً ... أو أنه سأل رؤية علم من أعلام الساعة بطريق

حذف المضاف ، أى : أرنى أنظر إلى علم من أعلامك الدالة على الساعة . أو أنه سأل الرؤية لا لنفسه ولكن لدفع قومه القائلين « أرنا الله جهرة » وإنما أضاف الرؤية إليه دونهم ليكون منعه أبلغ فى دفعهم وردعهم عما سألوه تنبيها بالأدنى على الأعلى ....

واعترضوا على الوجه الثانى بأنا لا نسلم أنه علق الرؤية على أمر ممكن ، لأن التعليق لم يكن على استقرار الجبل حال سكونه وإلا لوجدت الرؤية ضرورة وجود الشرط ، لأن الجبل حال سكونه كان مستقرا ، بل على استقراره حال حركته وهو محال لذاته .

ثم أورد الآلوسى بعد ذلك ما رد به كل فريق على الآخر مما لا مجال لذكره هنا(١) .

والذى نراه أن رؤية الله فى الآخرة ممكنة كما قال أهل السنة لورود الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الصحيحة التى تشهد بذلك ، أما فى الدنيا فقد منع العلماء وقوعها ، وقد بينا ذلك بشىء من التفصيل عند تفسيرنا لقوله ـ تعالى ـ « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار »(٢) .

ثم حكى القرآن بعد ذلك ما كرم الله ـ تعالى ـ به موسى ـ عليه السلام فقال : « قال ياموسى إنى اصطفيتك على الناس برسالاتى وبكلامى » .

الاصطفاء . افتعال من الصفوة ، وصفوة الشىء خالصه وخياره اى : قال الله ـ تعالى ـ لموسى إنى اخترتك واجتبيتك على الناس الموجودين فى زمانك لأن الرسل كانوا قبل موسى وبعده ، فهو اصطفاء على جيل معين من الناس بحكم هذه القرينة .

وقوله « برسالاتى » اى : بأسفار التوراة ، او بإرسالى إياك إلى من

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٩ من ص ٤٦ - ٥٥ .

(٢) راجع تفسير سورة الأنعام ص ٢٢٨ .

أرسلت إليهم . و« بكلامى » أى : بتكليمى إياك بغير واسطة قال ـ تعالى ـ « وكلم الله موسى تكليما » .

والجملة الكريمة مسوقة لتسليته ـ عليه السلام ـ عما أصابه من عدم الرؤية فكأنه ـ سبحانه ـ يقول له : إن منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظام ماأعطيتك فاغتنمه ودم على شكرى .

وقدم الرسالة على الكلام لأنها أسبق ، أو ليترقى إلى الأشرف .

ثم قال ـ تعالى ـ « فخذ ما آتيك وكن من الشاكرين » أى : فخذ ياموسى ماأعطيتك من شرف الأصطفاء والنبوة والمناجاة وكن من الراسخين فى الشكر على ما أنعمت به عليك ، فأنت أسوة وقدوة لأهل زمانك .

ثم فصل ـ سبحانه ـ بعض النعم التى منحها لنبيه موسى وقال : « وكتبنا له فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء » .

المراد بالألواح كما قال ابن عباس ـ ألواح التوراة ، واختلف فى عددها فقيل : سبعة ألواح وقيل عشرة ألواح وقيل أكثر من ذلك . كما اختلف فى شأنها فقيل كانت من سدر الجنة ، وقيل كانت من زبرجد أوزمرد ... ألخ .

والذى نراه تفويض معرفة ذلك إلى الله ـ تعالى ـ لأنه لم يرد نص صحيح عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فى عددها أو كيفيتها .

والمعنى : وكتبنا لموسى ـ عليه السلام ـ فى ألواح التوراة من كل شىء يحتاجون إليه من الحلال والحرام ، والمحاسن والقبائح . ليكون ذلك موعظة لهم من شأنها أن تؤثر فى قلوبهم ترغيباً وترهيباً ، كما كتبنا له فى تلك الألواح تفصيل كل شىء يتعلق بأمر هذه الرسالة الموسوية .

وإسناد الكتابة إليه ـ تعالى ـ إما على معنى أن ذلك كان بقدرته ـ تعالى ـ وصنعه ولا كسب لأحد فيه ، وإما على معنى أنها كتبها بأمره ووحيه سواء كان الكاتب لها موسى أوملك من ملائكته ـ عز وجل ـ .

قال صاحب المنار : قال بعض المفسرين : إن الألواح كانت مشتملة على التوراة ، وقال بعضهم بل كانت قبل التوراة . والراجح أنها كانت أول ما أوتيه من وحى التشريع فكانت أصل التوراة الإجمالى ، وكانت سائر الأحكام من العبادات والمعاملات الحربية والمدنية والعقوبات تنزل يخاطبه بها الله – تعالى – فى أوقات الحاجة إليها (١) » .

وقوله « موعظة وتفصيلا لكل شىء » بدل من قوله « من كل شىء » باعتبار محله وهو النصب لأن من مزيدة كما يرى كثير من النحاة . أى : كتبنا له فيها كل شىء من المواعظ وتفصيل الأحكام .

والضمير فى قوله – تعالى – فخذها بقوة » يعود إلى الألواح . والفاء عاطفة لمحذوف على كتبنا ، والمحذوف هو لفظ قلنا وقوله « بقوة » حال من فاعل خذها أى : كتبنا له فى الألواح من كل شىء ، وقلنا له خذها بقوة أى بجد وحزم ، وصبر وجلد ، لأنه – عليه السلام – قد أرسل إلى قوم طال عليهم الأمد وهم فى الذل والاستعباد ، فإذا لم يكن المتولى لإرشادهم وإلى مافيه هدايتهم ذا قوة وصبر ويقين ، فإنه قد يعجز عن تربيتهم . ويفشل فى تنفيذ أمر الله فيهم .

قال الجمل : وقوله – تعالى – « وأمر قومك يأخذوا بأحسنها » أى التوراة ومعنى بأحسنها بحسنها إذ كل ما فيها حسن ، أو أمروا فيها بالخير ونهوا عن الشر ، وفعل الخير أحسن من ترك الشر ، وذلك لأن الكلمة المحتملة لمعنيين أو لمعان تحمل على أشبه محتملاتها بالحق وأقربها إلى الصواب . أو أن فيها حسناً وأحسن كالقود والعفو ، والانتصار والصبر ، والمأمور به والمباح فأمروا بأن يأخذوا بما هو أكثر ثوابا (٢) .

---

(١) تفسير المنار جـ ٩ ص ١٩٠

(٢) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ١٩٠

وقوله - تعالى - « سأوريكم دار الفاسقين » توكيد لأمر القوم بالأخذ بالأحسن وبعث عليه على نهج الوعيد والتهديد .

أى : سأريكم عاقبة من خالف أمرى ، وخرج عن طاعتى ، كيف يصير إلى الهلاك والدمار ، فتلك سنتى التى لا تتغير ولا تتبدل .

قال إبن كثير : وإنما قال « سأوريكم دار الفاسقين » كما يقول القائل لمن يخاطبه : سأريك غداً مايصير اليه حال من خالفنى على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره (١) .

وقيل المراد بدار الفاسقين دار فرعون وقومه وهى مصر، كيف أقفرت منهم ودمروا لفسقهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فيصيبكم ما أصابهم .

وقيل المراد بها منازل عاد وثمود والأقوام الذين هلكوا بسبب كفرهم

وقيل المراد بها أرض الشام التى كان يسكنها الجبارون . فإنهم لم يدخلوها إلا بعد أربعين سنة من خروجهم من مصر على يد يوشع بن نون .

والذى نراه أن الرأى الأول أرجح ، لأن الآية الكريمة تحكى سنة من سنن الله فى خلقه ، وهذه السنة تتمثل فى أن كل دار تفسق عن أمر ربها تكون عاقبتها الذل والدمار ، ولأنه لم يرد حديث صحيح يعين المراد بدار الفاسقين .

فالآية الكريمة قد إشتملت على جانب من مظاهر نعم الله على نبيه موسى - عليه السلام - كما إشتملت على الأمر الصريح منه - سبحانه - له بأن يهيء نفسه لحمل تكاليف الرسالة بعزم وصبر ، وأن يأمر قومه بأن يأخذوا بأكملها وأعلاها بدون ترخيص أو تحايل ، لأنهم قوم كانت طبيعتهم رخوة وعزيمتهم ضعيفة ، ونفوسهم منحرفة . كما إشتملت على التحذير الشديد لكل من يخرج عن طاعة الله وينتهك حرماته .

ثم بين - سبحانه - عاقبة من يتكبرون فى الأرض بغير الحق فقال - تعالى - :

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٤٦

« سأَصْرِفُ عنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فى الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ، وَإِنْ يَرَوْا كلَّ آيةٍ لاَ يُؤْمِنُوا بها . وإنْ يَرَوْا سبيلَ الرُّشْدِ لاَ يَتَّخِذُوهُ سبيلاً ، وإنْ يَرَوْا سَبِيلَ الغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سبيلاً ، ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كذَّبُوا بِآيَاتِنَا وكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ (١٤٦) وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ولِقَاءِ الآخِرَةِ حَبِطَتْ أَعمَالُهُمْ هَلْ يُجْزَوْنَ إلاَّ ما كانوا يَعْمَلُونَ (١٤٧) » .

قوله ـ تعالى ـ « سأصرف عن آياتى الذين يتكبرون فى الأرض بغير الحق » استئناف مسوق لبيان أن أعداء دعاة الحق هم المستكبرون ، لأن من شأن التكبر أن يصرف أهله عن النظر والاستدلال على وجوه الخير . ومعنى صرف هؤلاء المتكبرين عن الانتفاع بآيات الله وحججه ، منعهم عن ذلك بالطبع على قلوبهم لسوء استعدادهم لايتفكرون ولا يتدبرون ولا يعتبرون .

أى : سأطبع على قلوب هؤلاء الذين يعدون أنفسهم كبراء ، ويرون أنفسهم أنهم أعلى شأناً من غيرهم ، مع أنهم أجهل الناس عقلا ، وأتعسهم حالا .

وقوله « بغير الحق » صلة للتكبر على معنى يتكبرون ويتطالون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل ، وسفههم المفرط ، أو متعلق بمحذوف هو حال من فاعله ، أى يتكبرون ملتبسين بغير الحق .

ثم بين ـ سبحانه ـ ماهم عليه من عناد وجحود فقال : « وإن يروا كل آيه لايؤمنوا بها » أى : وإن يروا كل آية من الآيات التى تهدى إلى الحق وترشد إلى الخير لايؤمنوا بها لفساد قلوبهم ، وحسدهم لغيرهم على

ما آتاه الله من فضله ، وتكبرهم على الناس. والجملة الكريمة معطوفة على جملة « يتكبرون فى الأرض بغير الحق » داخلة معها فى حكم الصلة .

والمقصود بالآية إما المنزلة فيكون المراد برؤيتها مشاهدتها والإحساس بها عن طريق السماع . وإماماً يعمها وغيرها من المعجزات ، فيكون المراد برؤيتها مطلق المشاهدة المنتظمة للسماع الإبصار .

« وأن يروا سبيل الرشد» أى : الصلاح والاستقامةوالسداد « لا يتخذوه سبيلا » أى : لا يتوجهون إليه ولا يسلكونه لمخالفته لأهوائهم وشهواتهم « وإن يروا سبيل الغى » أى : طريق الضلال عن الحق « يتخذوه سبيلا » أى : طريقاً يميلون إليه ، ويسيرون فيه بدون تفكر أو تدبر . وهذا شأن من مرد على الضلال ، وانغمس فى الشرور والآثام . إنه لإلفه المنكرات صار الحسن عنده قبيحا والقبيح حسنا ، وصدق الله إذ يقول: « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا » .

ثم ختم ـ سبحانه ـ الآية ببيان الأسباب التى أدت بهم إلى هذا الضلال العجيب فقال ـ تعالى : « ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين » أى : ذلك المذكور من التكبر وعدم الإيمان بشىء من الدلائل الدالة على الحق وإعراضهم عن سبيل الهدى . وإقبالهم التام على طريق الغواية، كائن بسبب إنهم كذبوا بآياتنا الدالة على بطلان ماهم عليه من أباطيل، وبسبب أنهم كانوا عن هذه الآيات غافلين لاهين لا يتفكرون فيها ، ولا يعتبرون بما اشتملت عليه من عظات :

فالله ـ تعالى ـ لم يخلقهم مطبوعين على شىء مما ذكر طبعاً ، ولم يجبرهم ويكرههم عليه إكراهاً ، بل كان ذلك بكسبهم واختيارهم للتكذيب بآياته الدال على الحق .

واسم الإشارة « ذلك » مبتدأ ، وخبره الجار والمجرور بعده ، أى : ذلك الصرف بسبب تكذيبهم .

ثم قال ـ تعالى ـ « والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة حبطت أعمالهم » أي : بطلت وفسدت وصارت هباء منثورا ، بسبب تكذيبهم لآيات الله ، وإنكارهم للآخرة ومافيها من ثواب وعقاب .

والاستفهام فى قوله « هل يجزون إلا ما كانوا يعملون » للنفى : أى : لايجزون يوم القيامة إلا الجزاء الذى يستحقونه بسبب أعمالهم فى الدنيا . فربك ـ سبحانه ـ لا يظلم أحدا .

وقوله « والذين كذبوا » فى خبره وجهان : أحدهما أنه الجملة من قوله : « حبطت أعمالهم » وهل يجزون خبر ثان أو مستأنف . والثانى : أن الخبر هل يجزون » والجملة من قوله « حبطت أعمالهم » فى محل نصب على الحال وقد مضمرة عند من يشترط ذلك ، وصاحب الحال فاعل كذبوا .

وقوله « ولقاء الآخرة » فيه وجهان : أحدهما أنه من باب إضافة المصدر لمفعوله والفاعل محذوف والتقدير : ولقائهم الآخرة . والثانى : أنه من باب إضافة المصدر إلى الظرف بمعنى : ولقاء ماوعد الله فى الآخرة[1] » .

ثم قصت السورة علينا رذيلة من رذائل بنى إسرائيل المتعددة ، وذلك أنهم بعد أن تركهم موسى ـ عليه ـ وذهب لمناجاة ربه مستخلفا عليهم أخاه هارون ، انتهزوا لين جانب هارون معهم، فعبدوا عجلا جسداً له خوار صنعه لهم السامرى من الحلى التى استعارها نساؤهم من نساء قبط مصر .

وحاول هارون ـ عليه السلام ـ أن يصدهم عن ذلك بشتى السبل ، ولكنهم أعرضوا عنه قائلين «لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى» ، وأعلم الله ـ تعالى ـ موسى بما حدث من قومه فى غيبته فعاد إليهم مغضبا حزينا ، فوبخهم على كفرهم وجهالاتهم ، وعاتب بشدة أخاه هارون لتركه

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ١٦١ .

إياهم يعبدون العجل ولكن هارون اعتذر له ،وأقنعه بأنه لم يقصر فى نصيحتهم ولكنهم قوم لا يحبون الناصحين .

وعلى مشهد من بنى إسرائيل أحرق موسى العجل ، وقال للسامرى رأس الفتنة ومدبرها « وانظر إلى إلهك الذى ظلت عليه عاكفا لنحرقنه ثم لننسفنه فى اليم نسفاً : إنما إلهكم الله الذى لا إله إلا هو وسع كل شىء علماً »،وبذلك أثبت موسى — عليه السلام — لقومه أن المستحق للعبادة إنما هو الله رب العالمين .

واستمع معى إلى هذه الآيات التى قصت علينا ماحدث منهم بأسلوبها البليغ فقالت :

« وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجلاً جَسَداً لَهُ خُوَارٌ ، أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لا يُكَلِّمُهُمْ ولا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً اتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ (١٤٨) وَلَمَّا سُقِطَ فى أَيْدِيهِم وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا ، قَالُوا لَئِنْ لَمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ (١٤٩) وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنْ بَعْدِى أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُم وأَلْقَى الألوَاحَ وأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابنَ أُمَّ إِنَّ القَوْمَ استَضْعَفُونِى وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلا تُشْمِتْ بِىَ الأَعْدَاء ولاتَجْعَلْنِى مَعَ القَوْمِ الظَّالِمِينَ(١٥٠) قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَلأَخِى وَأَدْخِلْنَا فى رَحْمَتِكَ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (١٥١) إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا العِجْلَ سَيَنَالُهُم غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِم وَذِلَّةٌ فى الْحَيَاةِ الدُّنيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُفْتَرِينَ (١٥٢) وَالَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيم (١٥٣) » .

قوله تعالى : (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسدا له خوار
بيان لما صنعه بنو إسرائيل بعد فراق موسى — عليه السلام — لهم ، وذهابه لتلقى التوراة عن ربه . مستخلفا عليهم أخاه هارون .

والحلى[١] — بضم الحاء والتشديد — جمع حلى — بفتح فسكون — كثدى وثدى — وهى اسم لما يتزين به من الذهب والفضة ، وهذه الحلى كان نساء بنى إسرائيل — قبيل خروجهن من مصر — قد استعرنها من نساء المصريين ، فلما أغرق الله — تعالى — فرعون وقومه ، بقيت تلك الحلى فى أيديهن ، فجمعها السامرى بحجة أنها لا تحل لهن ، وصاغ منها عجلا جسدا له خوار ، وأوهمهم بأن هذا إلههم وإله موسى فعبدوه من دون الله .

قال الحافظ ابن كثير : (وقد اختلف المفسرون فى هذا العجل هل صار لحما ودما له خوار ، أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر على قولين والله أعلم[٢] .

والمعنى : واتخذ قوم موسى من بعد فراقه لهم لأخذ التوراة عن ربه عجلا جسدا له صوت البقر ليكون معبودا لهم .

وقوله « عجلا » مفعول اتخذ بمعنى صاغ وعمل . وقيل إن اتخذ متعد إلى اثنين وهو بمعنى صير والمفعول الثانى محذوف أى : إلها .

و « جسدا » بدل من « عجلا » أو عطف بيان أو نعت له بتأويل متجسدا .

قال صاحب الكشاف : (فإن قلت لم قيل واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا والمتخذ هو السامرى ؟ قلت فيه وجهان : أحدهما : أن ينسب الفعل إليهم لأن رجلا منهم باشره ووجد بين ظهرانيهم ، كما يقال بنو تميم

---

(١) قال القرطبي : (من حليهم) هذه قراءة أهل المدينة وأهل البصرة وقرأ أهل الكوفة إلا عاصما (من حليهم) بكسر الحاء ، وقرأ يعقوب (من حليهم) بكسر الحاء وقرأ يعقوب حليهم (بفتح الحاء والتخفيف) . اه جـ ٧ ص ٢٨٤ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٤٧

قالوا كذا ، وفعلوا كذا والقائل والفاعل واحد . ولأنهم كانوا مريدين لاتخاذه راضين به فكأنهم أجمعوا عليه . والثانى : أن يراد واتخذوه إلها وعبدوه . فإن قلت لم قال من حليهم ولم تكن الحلى لهم إنما كانت عارية فى أيديهم ؟ قلت : الإضافة تكون بأدنى ملابسه وكونها عوارى فى أيديهم كفى به ملابسة على أنهم قد ملكوها بعد المهلكين كما ملكوا غيرها من أملاكهم ألا ترى إلى قوله تعالى : (فأخرجناهم من جنات وعيون . وكنوز ومقام كريم . كذلك وأورثناها بنى إسرائيل[١] اهـ .

وقوله تعالى : (ألم يروا أنه لا يكلمهم ولا يهديهم سبيلا) تقريع لهم على جهالاتهم . وبيان لفساد عقولهم ، والمعنى : أبلغ عمى البصيرة بهؤلاء القوم ، أنهم لم يفطنوا حين عبدوا العجل ، أنه لا يقدر على ما يقدر عليه آحاد البشر ، من الكلام والارشاد إلى أى طريق من طرق الافادة ، وليس ذلك من صفات ربهم الذى له العبادة ، لأن من صفاته — تعالى — أنه يكلم أنبياءه ورسله ، ويرشد خلقه إلى طريق الخير ، وينهاهم عن طرق الشر !!

ثم أكد — سبحانه — ذمهم بقوله (اتخذوه وكانوا ظالمين) أى : اتخذوا العجل معبودا لهم وهم يشاهدونه لا يكلمهم بأى كلام ، ولا يرشدهم إلى أى طريق ، ولا شك أنهم بهذا الاتخاذ كانوا ظالمين لأنفسهم بعبادتهم غير الله ، وبوضعهم الأمور فى غير مواضعها .

وفى التعبير عن ظلمهم بلفظ (كانوا) المفيد للدوام والاستمرار ، إشعار بأن هذا الظلم دأبهم وعادتهم قبل هذا الاتخاذ وأن ما صدر عنهم ليس بدعا منهم ولا أول مناكيرهم ، فقد سبق لهم أن قالوا لنبيهم بمجرد أن أتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم (يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة ، قال إنكم قوم تجهلون)!! .

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٥٩

ثم بين — سبحانه — ما كان منهم بعد أن رأوا ضلالهم فقال تعالى : « ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا ، قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين » أى وحين اشتد ندمهم على عبادة العجل ، وتبينوا ضلالهم واضحا كأنهم أبصروه بعيونهم قالوا متحسرين « لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين » أى لنكونن من الهالكين الذين حبطت أعمالهم .

وكان هذا الندم بعد رجوع موسى إليهم من الميقات وقد أعطاه الله التوراة ، بدليل أنه لما نصحهم هارون بترك عبادة العجل قالوا « لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى » وبدليل أن موسى — عليه السلام — لما رجع أنكر عليهم ما هم عليه وهذا دليل على أنهم كانوا مستمرين على عبادته إلى أن رجع موسى إليهم وبصرهم بما هم عليه من ضلال مبين .

ولذلك قال ابن جرير عند تفسيره لقوله تعالى « ولما سقط فى أيديهم » (ولما ندم الذين عبدوا العجل الذى وصف - جل ثناؤه - صفته ، عند رجوع موسى إليهم ، واستسلموا لموسى وحكمه فيهم ، وكذلك تقول العرب لكل نادم على أمر فات منه أو سلف ، وعاجز عن شىء : قد سقط فى يديه وأسقط . لغتان فصيحتان ، وأصله من الاستئسار ، وذلك يضرب الرجل الرجل أو يصرعه ، فيرمى به من بين يديه إلى الأرض ليأسره ، فالمرمى به مسقوط فى يدى الساقط به ، فقيل لكل عاجز عن شىء ومتندم على ما فاته : سقط فى يديه وأسقط)[1] .

وعبر - سبحانه - عن شدة ندمهم بقوله تعالى : « ولما سقط فى أيديهم » لأن من شأن من اشتد ندمه وحسرته أن يعض يده غما فتصير يده مسقوطا

---

(١) تفسير ابن جرير ج ٩ ص ٦٢ .

فيها ، لأن فاه قد وقع فيها . وكأن أصل الكلام ولما سقطت أفواههم في أيديهم، أي ندموا أشد الندم .

قال صاحب تاج العروس : وفى (العباب) هذا نظم لم يسمع به قبل القرآن ولا عرفته العرب (والأصل فيه نزول الشيء من أعلى إلى أسفل) ، ووقوعه على الأرض ، ثم اتسع فيه فقيل للخطأ من الكلام (سقط) لأنهم شبهوه بما لا يحتاج إليه ، وذكر اليد لأن الندم يحدث فى القلب . وأثره يظهر فى اليد ، كقوله تعالى : « فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها » ولأن اليد هى الجارحة العظمى ، فربما يسند إليها ما لم تباشره كقوله تعالى . « ذلك بما قدمت يداك »[1] اهـ .

وقوله تعالى : « ولما رجع موسى إلى قومه غضبان أسفا » بيان للحالة التى كان عليها موسى ـ عليه السلام ـ عند رجوعه من الطور ، ومشاهدته للعجل الذى عبده قومه ، فهو كان غاضبا عليهم لعبادتهم غير الله ـ تعالى ـ وحزينا لفتنتهم بعبادتهم عجلا جسدا له خوار .

قال الإمام الرازى : فى الأسف قولان : الأول : أن الأسف الشديد الغضب ، وهو قول أبى الدرداء وعطاء عن ابن عباس ، واحتجوا له بقوله تعالى : « فلما آسفونا انتقمنا منهم » أى : أغضبونا : والثانى : أن الأسف هو الحزين ، وهو قول الحسن والسدى وغيرهما ، واحتجوا له بحديث عائشة أنها قالت : « إن أبا بكر رجل أسيف أى حزين » .

قال الواحدى : والقولان متقاربان لأن الغضب من الحزن ، والحزن من الغضب ، فإذا جاءك ما تكره ممن هو دونك غضبت . وإذا جاءك ممن هو فوقك حزنت ، فتسمى إحدى هاتين الحالتين حزنا والأخرى غضبا . . . »[2] .

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٧ ص ٢٨٥٩ .

(٢) تفسير الرازى جـ ٤ ص ٣٠٢ .

وقوله « غضبان أسفاً » منصوبان على الحال من موسى عند من يجيز تعدد الحال . وعند من لا يجيزه يجعل أسفا حالا من الضمير المستكن فى غضبان فتكون حالا متداخلة .

وقول موسى لقومه :(بئسما خلفتمونى من بعدى) ذم منه لهم ، والمعنى : بئس خلافة خلفتمونيها من بعد ذهابى عنكم إلى مناجاة ربى ، وبئس الفعل فعلكم بعد فراقى إياكم . حيث عبدتم العجل ، وأشربت قلوبكم محبته ، ولم تعيروا التفاتا لما عهدت به اليكم ، من توحيد الله ، وإخلاص العبادة والسير على سنتى وشريعتى .

قال الجمل : و « بئس » فعل ماض لإنشاء الذم ، وفعله مستتر تقديره هو وما تمييز بمعنى خلافة، وجملة خلفتمونى صفة لما. والرابط محذوف، والمخصوص بالذم محذوف ، والتقدير بئس خلافة خلفتمونيها من بعدى خلافتكم [١] .

وقوله (من بعدى) معناه : من بعد ما رأيتم منى توحيـــد الله ، ونفى الشركاء عنه ، وإخلاص العبادة له ، أو من بعد ما كنت احمل بنى إسرائيل على التوحيد واكفهم عما طمحت نحوها ابصارهم من عبادة البقر حين قالوا (إجعل لنا إلها كما لهم آلهة) . ومن حق الخلفاء ان يسيروا بسيرة المستخلف من بعده ولا يخالفوه .

وقوله تعالى (أعجلتم أمر ربكم) معناه أسبقتم بعبادة العجل ما امركم به ربكم وهو إنتظارى حافظين لعهدى. وما أوصيتكم به من التوحيد وإخلاص العبادة لله حتى آتيكم بكتاب الله ، فغيرتم وعبدتم العجل قيل : كانوا قد استبطأوا نزوله من الجبل، فخدعهم السامرى وصنع لهم العجل فعبدوه، وجعلوا يغنون ويرقصون حوله ويقولون : هذا هو الإله الحق الذى انقذنا من الظلم قال صاحب الكشاف (يقال عجل عن الأمر إذا تركه غير تام . ويضمن معنى سبق فعدى تعديته فقال : عجلت الأمر . والمعنى : اعجلتم عن أمر ربكم

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ١٩٣

وهو إنتظار موسى حافظين لعهده وما وصاكم به ، فبنيتم الأمر على أن الميعاد قد بلغ آخره ولم أرجع اليكم ، فحدثتم أنفسكم بموتى فغيرتم كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم .

وروى أن السامرى قال لهم حين أخرج لهم العجل : هذا إلهكم وإله موسى ، وأن موسى لن يرجع وانه قد مات .

وروى أنهم عدوا عشرين يوما بلياليها فجعلوها أربعين ثم أحدثوا ما أحدثوا (١) .

ثم بين — سبحانه — أن غضب موسى ترتب عليه أمران يدلان على شدة الإنفعال : أولها : قوله تعالى : (وألقى الألواح) أى طرحها من يديه لما إعتراه من فرط الدهش ، وشدة الضجر ، حين أشرف على قومه وهم عاكفون على عبادة العجل ، فإلقاؤه الألواح لم يكن إلا غضبا لله ، وحمية لدينه ، وسخطا على قومه الذين عبدوا ما يضرب به المثل فى البلادة .

قال الآلوسى : « قوله - تعالى - » « وألقى الألواح » حاصلة أن موسى لما رأى من قومه ما رأى . غضب غضبا شديدا حمية لدينه فعجل فى وضع الألواح لتفرغ يده فيأخذ برأس أخيه فعبر عن ذلك الوضع بالإلقاء تفظيعا لفعل قومه حيث كانت معاينته سببا لذلك وداعيا اليه ، وليس فيه ما يتوهم منه الإهانة لكتاب الله بوجه من الوجوه . وإنكسار بعض الألواح حصل من فعل مأذون فيه ولم يكن غرض موسى ولا مر بباله ولا ظن ترتيبه على ما فعل . وليس هناك إلا العجلة فى الوضع الناشئة من الغيرة لله . وقد أنكر بعض العلماء أن يكون شىء منها قد تكسر ، لأن ظاهر القرآن خلافة . نعم أخرج أحمد وغيره عن ابن عباس قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم - « يرحم الله موسى ، ليس

---

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ٥١٠

المعاين كالمخبر أخبره ربه أن قومه فتنوا بعده فلم يلق الألواح فلما رآهم وعاينهم ألقى الألواح فتكسر منها ».(١)

وثانيهما: قوله تعالى : (وأخذ برأس أخيه يجره اليه) أى . أخذ موسى بشعر رأس أخيه هارون يجره اليه غضبا منه ، لظنه أنه قد قصر فى نصحهم وزجرهم عن عبادة العجل . ولكن هارون — عليه السلام — أخذ يستجيش فى نفس موسى عاطفة الأخوة الرحيمة ، ليسكن من غضبه الشديد . وليكشف له عن طبيعة الموقف ، وليبرىء ساحته من مغبة التقصير، فقال له :(يابن أم إن القوم إستضعفونى وكادوا يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء ولا تجعلنى مع القوم الظالمين . أى : قال هارون لموسى مستعطفا : يا ابن أمى — بهذا النداء الرقيق وبتلك الوشيجة الرحيمة — لاتعجل بلومى وتعنيفى ، فإنى ما آليت جهدا فى الإنكار عليهم ، وما قصرت فى نصيحتهم ولكنهم لم يستمعوا إلى ، بل قهرونى وإستضعفونى ، وأوشكوا ان يقتلونى عندما بذلت أقصى طاقتى لأخفف هياجهم وإندفاعهم نحو العجل ، فلا تفعل بى ما هو أمنيتهم ومحل شماتتهم ، من الاستهانة بى والإساءة إلى ، فإن من شأن الأخوة التى بيننا أن تكون ناصرة معينة حين يكون هنــاك أعداء ، ولا تجعلنى فى زمرة القوم الظالمين ، فإنى برىء منهم . ولقد نصحتهم ولكنهم قوم لا يحبون الناصحين

وهنا إقتنع موسى — عليه السلام — ببراءة هارون من مغبة التقصير فقال :

(رب إغفر لى ولأخى وأدخلنا فى رحمتك وأنت أرحم الراحمين) اى : قال موسى ليرضى اخاه، وليظهر لأهل الشماتة رضاه عنه بعد ان ثبتت براءته رب إغفر لى ما فرط منى من قول اوفعل فيه غلظة على اخى . واغفر له كذلك ما عسى ان يكون قد قصر فيه مما انت اعلم به منى، وادخلنا فى رحمتك التى وسعت كل شىء فأنت ارحم بعبادك من كل راحم .

(١) تفسير الآلوسى ج ٩ ص ٦٧ .

وبهذا يكون القرآن الكريم قد برأ ساحة هارون من التقصير ، واثبت انه قد عرض نفسه للأذى فى سبيل ان يصرف عابدى العجل عن عبادته وفى ذلك تصحيح لما جاء فى التوراة (الفصل الثانى والثلاثين من سفر الخروج) من ان هارون - عليه السلام - هو الذى صنع العجل لبنى إسرائيل ليعبدوه فى غيبة موسى - عليه السلام - .

ثم اصدر القرآن الكريم حكمه الفاصل فى شأن عبدة العجل فقال تعالى: (إن الذين اتخذوا العجل سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا وكذلك نجزى المفترين) .

والمعنى . إن الذين اتخذوا العجل معبودا ، واستمروا على ضلالتهم سيحيق بهم سخط شديد من ربهم ، ولا تقبل توبتهم إلا إذا قتلوا انفسهم ، وسيصيبهم كذلك هوان وصغار فى الحياة الدنيا ، وبمثل هذا الجزاء نجازى المفترين جميعا فى كل زمان ومكان ، لخروجهم عن طاعتنا ، وتجاوزهم لحدودنا ، فهو جزاء متكرر كلما تكررت الجريمة من بنى إسرائيل وغيرهم .

ثم فتح - سبحانه - بابه لكل تائب صادق فى توبته فقال تعالى : (والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعدها وآمنوا إن ربك من بعدها لغفور رحيم) .

والمعنى : والذين عملوا السيئات ثم تابوا من بعد فعلهم لها توبة صادقة نصوحا ، ورجعوا إلى الله - تعالى - معتذرين نادمين مخلصين الإيمان له ، فإن الله - تعالى - من بعد الكبائر التى أقلعوا عنها لساتر عليهم اعمالهم السيئة ، وغير فاضحهم بها ، رحيم بهم وبكل من كان مثلهم من التائبين .

وإلى هنا تكون الآيات الكريمة - بعد ان دمغت بنى إسرائل بما يستحقونه من تقريع ووعيد - قد فتحت أمامهم وأمام غيرهم باب التوبة ليفيؤا إلى نور الحق ، وليتركوا ما إنغمسوا فيه من ضلالات وجهالات .

ثم بين - سبحانه - ما فعله موسى بعد أن هدأ غضبه فقال :

« وَلَمَّا سَكَتَ عَنْ مُوسَى الْغَضَبُ أَخَذَ الْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ (١٥٤) » .

السكوت فى أصل اللغة ترك الكلام ، والتعبير القرآنى هنا يشخص الغضب كأنما هو كائن حى يدفع موسى ويحركه ، ثم تركه بعد ذلك . ففى الكلام استعارة مكنية حيث شبه الغضب بشخص آمر ناه وأثبت له السكوت على طريق التخييل .

قال صاحب الكشاف : قوله : « ولما سكت عن موسى الغضب » هذا مثل . كأن الغضب كان يغريه على ما فعل ويقول له :قل لقومك كذا،وألق الألواح ، وجر برأس أخيك إليك ، فترك النطق بذلك،وقطع الإغراء.ولم يستحسن هذه الكلمة ولم يستفصحها كل ذى طبع سليم وذوق صحيح إلا لذلك ولأنه من قبيل شعب البلاغة . وإلا ، فما لقراءة معاوية بن قرة «ولما سكن عن موسى الغضب » لاتجد النفس عندها شيئا من تلك الهزة ، وطرفا من تلك الروعة »(١) .

والمعنى : وحين سكت غضب موسى بسبب إعتذار أخيه وتوبة قومه أخذ الألواح التى كان قد ألقاها .

وظاهر الآية يفيد أن الألواح لم تتكسر ، ولم يرفع من التوراة شىء ، وأنه أخذها بعينها .

وقوله « وفى نسختها هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون » أى : أخذ موسى الألواح التى سبق له أن ألقاها ، وفيما نسخ فى هذه الألواح أى:كتب هداية عظيمة إلى طريق الحق ، ورحمة واسعة للذين هم لربهم يرهبون . أى : يخافون أشد الخوف من خالقهم — عز وجل —

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٦٣

والنسخ : الكتابة ، ونسخة هنا بمعنى منسوخة أى . مكتوبة ، والمراد وفى منسوخها ومكتوبها هدى ورحمة .

و « هم » مبتدأ . ويرهبون خبره ، والجملة صلة الموصول ، واللام فى « للذين » متعلقة بمحذوف صفة لرحمة أى : كائنة لهم . أو هى لام العلة أى . هدى ورحمة لأجلهم . واللام فى لربهم » لتقوية عمل الفعل المؤخر كما فى قوله - تعالى - : « إن كنتم للرؤيا تعبرون » أو هى أيضا لام العلة والمفعول محذوف ، أى : يرهبون المعاصى لأجل ربهم لا للرياء والتباهى .

ثم تمضى السورة فى حديثها عن بنى إسرائيل فتحكى لنا قصة موسى مع السبعين الذين إختارهم من قومه فتقول :

« واخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلاً لِمِيقَاتِنَا ، فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ ، أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ، إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَنْ تَشَاءُ وَتَهْدِي مَنْ تَشَاءُ ، أَنْتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ (١٥٥) وَاكْتُبْ لَنَا فِي هَٰذِهِ الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَا إِلَيْكَ ، قَالَ عَذَابِي أُصِيبُ بِهِ مَنْ أَشَاءُ وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ، فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ (١٥٦) » .

قال الآلوسى : قوله - تعالى - « واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا » تتمة لشرح أحوال بنى إسرائيل وقال البعض : إنه شروع فى بيان كيفية إستدعاء التوبة وكيفية وقوعها . واختار - من الاختيار بمعنى الانتخاب

والاصطفاء - وهو يتعدى إلى اثنين ثانيهما مجرور بمن وقد حذفت هنا وأوصل الفعل والأصل من قومه ، والمفعول الأول سبعين ،[١] .

أي : اختار موسى سبعين رجلا من قومه للميقات الذي وقته الله له ، ودعاهم للذهاب معه .

وهؤلاء السبعون كانوا من خيرتهم أو كانوا خلاصتهم، لأن الجملة الكريمة جعلتهم بدلا من القوم جميعا فى الاختيار ، وكأن بنى إسرائيل على كثرتهم لا يوجد من بينهم فضلاء سوى هؤلاء السبعين .

وتختلف روايات المفسرين فى سبب هذا الميقات وزمانه ، فمنهم من يرى أنه الميقات الكلامى الذى كلم الله فيه موسى تكليما فقد كان معه سبعون رجلا من شيوخ بنى إسرائيل ينتظرونه فى مكان وضعهم فيه غير مكان المناجاة ، فلما تمت مناجاة موسى لربه طلبوا منه أن يخاطبوا الله - تعالى - وأن يكلموه كما كلمه موسى ، وأن يروه جهرة فأخذتهم الصاعقة ، وكان ذلك قبل أن يخبر الله - تعالى - موسى أن قومه قد عبدوا العجل فى غيبته .

والذى ترجحه وعليه المحققون من المفسرين والسياق القرآنى يؤيده أن هذا الميقات الذى جاء فى هذه الآية غير الميقات الأول ، وأنه كان بعد عبادة بنى إسرائيل للعجل فى غيبة موسى ، فقد عرفنا أن الله قد أخبره بذلك عند ذهابه إليه لتلقى التوراة ، فرجع موسى إليهم مسرعا ووبخهم على صنيعهم وأحرق العجل ، وأمره الله - تعالى - بعد ذلك أن يأتيه مع جماعة من بنى إسرائيل ليتوبوا إليه من عبادة العجل فاختار موسى هؤلاء السبعين ، وهناك روايات ترجح ذلك منها ما جاء عن محمد بن إسحاق قال : إن موسى - عليه السلام - لما رجع إلى قومه فرأى ماهم فيه من عبادة العجل ، وقال لأخيه والسامرى ما قال وحرق العجل وذراه فى اليم ، اختار من بنى إسرائيل سبعين

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ٧١

رجلا الخير فالخير وقال: انطلقوا إلى الله فتوبوا إليه مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم، فصوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم. فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه، وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم، فقال له السبعون — فيما ذكر لى — حين صنعوا ما أمرهم به وخرجوا معه للقاء ربه ياموسى: اطلب لنا نسمع كلام ربنا. فقال: أفعل. فلما دنا موسى من الجبل، وقع عليه عمود الغمام حتى تغشى الجبل كله، ودنا موسى فدخل فيه، وقال للقوم: ادنوا. وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهة موسى نور ساطع، لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه. ودنا القوم حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجودا فسمعوه وهو يكلم موسى، يأمره وينهاه، أفعل ولا تفعل، فلما انكشف عن موسى الغمام أقبل إليهم فقالوا له: «لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة، وهى الصاعقة التى يحصل منها الاضطراب الشديد فماتوا جميعاً فقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول: «رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى، قد سفهوا، أتهلك من ورائى من بنى إسرائيل»[1].

وهكذا نرى أن هؤلاء السبعين المختارين من بنى إسرائيل قد طلبوا من نبيهم موسى — عليه السلام — مالا يصح لهم أن يطلبوه فأخذتهم الرجفة بسبب ذلك، أو بسبب أنهم عندما عبد بنو إسرائيل العجل فى غيبة موسى لم ينهوهم عن المنكر ولم يأمروهم بالمعروف.

وقوله: فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى، أى: فلما أخذت هؤلاء السبعين المختارين الرجفة قال موسى يارب إننى أتمنى لو كانت سبقت مشيئتك أن تهلكهم من قبل خروجهم معى إلى هذا المكان وأن تهلكنى معهم حتى لا أقع فى حرج شديد مع بنى إسرائيل، لأنهم سيقولون لى: قد ذهبت بخيارنا لإهلاكهم.

ويرى بعض المفسرين أن هذه الرجفة التى أخذتهم وصعقوا منها أدت إلى

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٤٩

موتهم جميعا ثم أحياهم الله - تعالى - بعد ذلك، ويرى آخرون أنهم غشى عليهم ثم أفاقوا.

وقد قال موسى هذا القول لاستجلاب العفو من ربه عن هذه الجريمة التى اقترفها قومه. بعد أن من عليهم - سبحانه - بالنعم السابقة الوافرة، وأنقذهم من فرعون وقومه. فكأنه يقول: يا رب لقد رحمتهم من ذنوب كثيرة ارتكبوها فيما سبق فارحمهم الآن كما رحمتهم من قبل جرياً على مقتضى كرمك.

ومفعول المشيئة محذوف، أى: لو شئت إهلاكهم لأهلكتهم.

وقوله «وإياى» معطوف على الضمير فى «أهلكتهم»، وقد قال موسى ذلك تسليما منه لأمر الله وقضائه وإن كان لم يسبق منه ما يوجب هلاكه، بل الذى سبق منه إنما هو الطاعة الكاملة لله رب العالمين.

والاستفهام فى قوله «أتهلكنا بما فعل السفهاء منا» للاستعطاف الذى بمعنى النفى أى: ألجأ إليك يا مولانا ألا تهلكنا بذنب غيرنا، فلئن كان هؤلاء السفهاء قد خرجوا عن طاعتك، وانتهكوا حرماتك. فنحن يارب مطيعون لك وخاضعون لأمرك.

قوله «إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى بها من تشاء» استئناف مقرر لما قبله، و«إن» نافية. والفتنة: الابتلاء والاختبار، والباء فى «بها» للسببية أى: ما الفتنة التى وقع فيها السفهاء إلا اختبارك وابتلاؤك وامتحانك لعبادك، فأنت الذى ابتليتهم واختبرتهم، فالأمر كله لك وبيدك. لا يكشفه إلا أنت. كما لم يمتحن به ويختبر إلا أنت. فنحن عائذون بك منك. ولاجئون منك إليك. ما شئت كان وما لم تشأ لم يكن.

وقوله «أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين» أى: أنت القائم بأمورنا كلها لا أحد غيرك، فاغفر لنا ما فرط منا، وارحمنا برحمتك التى وسعت كل شىء، وأنت خير الغافرين إذ كل غافر سواك إنما يغفر لغرض

نفسانى «كحب الثناء، واجتلاب المنافع، أما أنت - يا إلهنا - فمغفـــرتك لا لطلب عوض أو غرض وإنما هى لمحض الفضل والكرم.

ثم أضاف موسى إلى هذه الدعوات الطيبات دعـوات أخرى فقال - كما حكى القرآن عنه - «واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة وفى الآخرة». أى: أثبت لنا فى هذه الدنيا ما يحسن من نعمة وطاعة وعافية وتوفيق، وأثبت لنا فى الآخرة - أيضا - ما يحسن من مغفرة ورحمة وجنة عرضها السموات والأرض.

وقوله «إنا هدنا إليك» استئناف مسوق لتعليل الدعاء فإن التوبة الصادقة تجعل الدعاء جديرا بالاجابة، أى: لأنا تبنا إليك من المعاصى التى جئناك للاعتذار منها. فاكتب لنا الحسنات فى الدارين، ولا تحرمنا من عطائك الجزيل.

وهدنا: بمعنى تبنا. يقال: هاد يهود إذا رجع وتاب.

وصدرت الجملة الكريمة بـ «إن» المفيدة للتحقيق لإظهار كمال النشاط والرغبة فى مضمونها. وقوله: «قال عذابى أصيب به من أشاء ورحمتى وسعت كل شىء» استئناف وقع جوابا عن سؤال ينساق إليه الجواب، كأنه قيل: فماذا قال الله - تعالى - عند دعاء موسى، فكان الجواب: قال عذابى ... الخ.

ثم قال الله - تعالى - لموسى ردا على دعائه: يا موسى إن عـذابى الذى تخشى أن يصيب قومك اصيب به من اشاء تعذيبه من العصاة، فلا يتعـين ان يكون قومك محلا له بعد توبتهم، فقد اقتضت حكمتى ان اجازى الذين اساءوا بما عملوا واجازى الذين احسنوا بالحسنى.

«ورحمتى وسعت كل شىء» فلا تضيق عن قومك، ولا عن غيرهم من خلقى ممن هم اهل لها.

وقد استفاضت الآيات والأحاديث التى تصرح بأن رحمة الله - تعالى - قد

وسعت كل شيء ومن ذلك قوله - صلى الله عليه وسلم - : إن لله عز وجل مائة رحمة فنها رحمة يتراحم بها الخلق ، وبها تعطف الوحوش على أولادها ، وأخر تسعة وتسعين إلى يوم القيامة .

ثم بين - سبحانه - من هم أهـــل لرحمته فقال : «فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون » .

أى : فسأكتب رحمتى للذين يصـــونون أنفسهم عن كل مايغضب الله ويؤدون الزكاة المفروضة عليهم فى أموالهم .

وتخصيص إيتاء الزكاة بالذكر مع اقتضاء التقوى له للتعريض بقوم موسى . لأن إيتاءها كان شاقاً على نفوسهم لحرصهم الشديد على المال .

ولعل الصلاة لم تذكر مع أنها مقدمة على سائر العبادات . اكتفاء عنها بالاتقاء الذى هو عبارة عن فعل الواجبات بأسرها . وترك المنهيات عن آخرها .

وسأكتبها كذلك للذين هم بآياتنا يؤمنون إيمانا تاما خالصاً لارياء فيه . ولانقص معه .

ثم أضاف - سبحانه - صفات أخرى لمن هم أهل لرحمته ورضوانه .

وهذه الصفات تنطبق كل الانطباق على محمد صلى الله عليه وسلم الذى أمر بنو إسرائيل وغيرهم باتباعه فقال تعالى :

« الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الذى يَجِدُونَهُ مَكْتُوباً عِنْدَهُمْ فى التَّوْرَاةِ والإنجيلِ ، يَأْمُرُهُمْ بالمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنْ المُنْكَرِ ، ويُحِلُّ لَهُم الطَّيِّبَاتِ ويُحَرِّمُ عَلَيهِمُ الْخَبَائِثَ ويَضَعُ عَنْهُم إصْرَهُمْ والأغْلاَلَ التى كانَتْ عَلَيْهِمْ ، فالذينَ آمَنُوا به وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الذى أُنزِلَ معهُ أُولئِكَ هُمُ المُفْلِحُونَ (١٥٧) قُلْ يَا أَيُّهَا

النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٥٨) » .

قوله — تعالى — « الذين يتبعون الرسول النبي الأمى » فى محل جر على أنه نعت لقوله : « للذين يتقون » أو بدل منه . أو مرفوع على أنه خبر لمبتدأ محذوف . أى : هم الذين يتبعون ... الخ .

وقد وصف الله — تعالى — رسوله محمدا صلى الله عليه وسلم بأوصاف كريمة تدعو العاقل المنصف إلى اتباعه والإيمان به .

الوصف الأول : أنه رسول الله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً .

والوصف الثانى : أنه نبى أوحى الله إليه بشريعة عامة كاملة باقية إلى يوم الدين .

الوصف الثالث : أنه أمى ماقرأ ولا كتب ولا جلس إلى معلم ولا أخذ علمه عن أحد ولكن الله — تعالى — أوحى إليه بالقرآن الكريم عن طريق جبريل — عليه السلام — ، وأفاض عليه من لدنه علوما نافعة ومبادىء توضح ما أنزله عليه من القرآن الكريم ، فسبق بذلك الفلاسفة والمشرعين والمؤرخين وأرباب العلوم الكونية والطبيعية ، فأميته مع هذه العلوم التى يصلح عليها أمر الدنيا والآخرة ، أوضح دليل على أن مايقوله إنما هو بوحى من الله إليه .

قال تعالى : « وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ماالكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا[1] » .

وقال — سبحانه — « وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون[2] » .

---

(١) سورة الشورى آية ٥٢ — (٢) سورة العنكبوت آية ٤٨

الصفة الرابعه : أشار إليها بقوله (الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التورا والانجيل) أى هذا الرسول النبى الأمى من صفاته أن أهل الكتاب يجدو اسمه ونعته مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل ، ووجود اسمه ونعته فى كتبه من أكبر الدواعى إلى الايمان به وتصديقه واتباعه ولقد كان اليهود يبشرو ببعثة النبى صلى الله عليه وسلم قبل زمانه ويقرؤون فى كتبهم ما يدل على ذلك فلما بعث الله — تعالى - نبيه بالهدى ودين الحق آمن منهم الذين فتحـــو قلوبهم للحق ، وخافوا مقام ربهم ونهوا أنفسهم عن الهوى ، وأما الذير استنكفوا واستكبروا ، وحسدوا محمدا صلى الله عليه وسلم على ما آتاه الله من فضله فقد أخذوا يحذفون من كتبهم ما جاء عن النبى صلى الله عليه وسل فيها ، أو يؤولونه تأويلا فاسداً أو يكتمونه عن عامتهم .

ورغم حرصهم على حذف ما جاء عن الرسول فى كتبهم أو تأويلهم السقي له ، أو كتمانه عن الأميين منهم . أبى الله — تعالى — إلا أن يتم نوره ، إذ بق فى التوراة والانجيل ما بشر بالنبى صلى الله عليه وسلم وصرح بنعوته وصفاته بل وباسمه صريحا .

وقد تحدث العلماء الأثبات عن بشارات الأنبيا. بمحمد صلى الله عليه وسل وجمعوا عشرات النصوص التى ذكرت نعوته وصفاته ، وها نحن نذكر طرف مما قاله العلماء فى هذا الشأن .

قال الامام الماوردى فى (أعلام النبوة) : (وقد تقدمت بشائر من سلف من الأنبياء ، بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم مما هو حجة على أممهم ، ومعجزة تدل على صدقه عند غيرهم ، بما أطلعه الله - تعالى - على غيبه ، ليكون عونا للرسل ، وحثا على القبول ، فمنهم من عينه باسمه ، ومنهم من ذكره بصفته ومنهم من عزاه إلى قومه ، ومنهم من أضافه إلى بلده ، ومنهم من خصه بأفعاله ، ومنهم من ميزه بظهوره وانتشاره ، وقد حقق الله — تعالى —

هذه الصفات جميعها فيه ، حتى صار جلياً بعد الاحتمال ، ويقيناً بعد الارتياب[١]) .

وجاء في (منية الأذكياء في قصص الأنبياء) : (إن نبينا - عليه الصلاة والسلام - قد بشر به الأنبياء السابقون ، وشهدوا بصدق نبوته ، ووصفوه وصفا رفع كل احتمال ، حيث صرحوا باسمه وبلده وجنسه وحليته وأطواره وسمته ، ومع أن أهل الكتاب حذفوا اسمه من نسخهم الأخيرة إلا أن ذلك لم يجدهم نفعا ، لبقاء الصفات التى اتفق عليها المؤرخون من كل جنس وملة وهى أظهر دلالة من الاسم على المسمى ، إذ قد يشترك اثنان فى اسم ، ويمتنع اشتراك اثنين فى جميع الأوصاف . لكن من أمدغير بعيدقد شرعوافى تحريف بعض الصفات ليبعد صدقها على النبى صلى الله عليه وسلم فترى كل نسخه متأخرة تختلف عما قبلها فى بعض المواضع اختلافا لا يخفى على اللبيب أمره ، ولا ما قصد به . ولم يفدهم ذلك غير تقوية الشبهة عليهم . لانتشار النسخ بالطبع وتيسير المقابلة بينها[٢] .

وقال المرحوم الشيخ (رحمة الله الهندى) فى كتابه (إظهار الحق) : (إن الأخبار الواقعة فى حق محمد صلى الله عليه وسلم توجد كثيرة إلى الآن - أيضا - مع وقوع التحريفات فى هذه الكتب . ومن عرف أولا طريق أخبار النبي المتقدم عن النبي المتأخر . ثم نظر ثانيا بنظر الانصاف إلى هذه الاخبارات وقابلها بالاخبارات التى نقلها الانجيليون فى حق عيسى - عليه السلام - جزم بأن الاخبارات المحمديه فى غاية القوة[٣]) .

وقد جمع صاحب كتاب (إظهار الحق) وغيره من العلماء والمؤرخين

---

(١) الباب الخامس عشر : فصل (بشائر الأنبياء بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم) .

(٢) نقلا عن تفسير القاسمى حـ ٧ ص ٢٨٧٤ .

(٣) كتاب (إظهار الحق) للشيخ رحمه الله الهندى.

كثيراً من البشائر التي وردت في التوراة والإنجيل خاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم ومبينة نعوته وصفاته .

ومن أجمع ما جاء في التوراة خاصاً بالنبي صلى الله عليه وسلم ما أخرجه البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - قال : (قرأت في التوراة صفة النبي صلى الله عليه وسلم (محمد رسول الله : عبدي ورسولي، سميته المتوكل ، ليس بفظ ، ولا غليظ ، ولا صخاب في الأسواق ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، بل يعفو ويصفح ، ولن أقبضه حتى أقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا : لا إله إلا الله[1]) .

كذلك مما يشهد بوجود النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة، ما أخرجه الإمام أحمد عن أبي صخر العقيلي قال : (حدثني رجل من الأعراب فقال : جلبت حلوبة[2] . إلى المدينة في حياة النبي صلى الله عليه وسلم فلما فرغت مر بيعي قلت لألقين هذا الرجل فلأسمعن منه ، قال : فتلقاني بين أبي بكر وعمر يمشيان ، فتبعتهم حتى إذا أتوا على رجل من اليهود وقد نشر التوراة يقرؤها يعزى بها نفسه عن ابن له في الموت كأجمل الفتيان وأحسنها ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنشدك بالذي أنزل التوراة هل تجد في كتابك هذ صفتي ومخرجي) فقال برأسه هكذا ، أي : لا ، فقال ابنه : أي والذي أنزل التوراة إنا لنجد في كتابنا صفتك ومخرجك ، وإني أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أنك رسول الله ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم (أقيموا اليهودي عن اخيكم (ثم تولى كفنه والصلاة عليه) .

هذا ، ومن أراد مزيد معرفة بتلك المسألة فليراجع ما كتبه العلماء في ذلك[3]

---

(١) صحيح البخاري . باب « كراهة الصخب في الأسواق » من « كتاب البيوع » جـ ٣ ص ٨٣ .

(٢) الحلوبة : الشاة ذات اللبن وهي للواحد والجمع .

(٣) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٢٥١ .

ثم وصف الله ـ تعالى ـ رسوله ـ صلى الله عليه وسلم بصفة خامسة فقال تعالى : « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر » أى هذا الرسول النبى الأمى الذى يجده أهل الكتاب مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل من صفاته كذلك أنه يأمرهم بالمعروف الذى يتناول الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر كما يتناول مكارم الأخلاق ومحاسن الشيم وغير ذلك من الأمور التى جاء بها الشرع الحنيف . وارتاحت لها العقول السليمة ، والقلوب الطاهرة وينهاهم عن المنكر الذى يتناول الكفر والمعاصى ومساوىء الأخلاق .

ثم وصف الله ـ تعالى ـ رسوله محمداً صلى الله عليه وسلم بصفة سادسة فقال تعالى : « ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث » أى : يحل لهم ما حرمه الله عليهم من الطيبات كالشحوم وغيرها بسبب ظلمهم وفسوقهم عقوبة لهم ، ويحل لهم كذلك ما كانوا قد حرموه على أنفسهم دون أن يأذن به الله كلحوم الإبل وألبانها ، ويحرم عليهم ما هو خبيث كالدم ولحم الميتة والخنزير فى المأكولات ، وكأخذ الربا وأكل أموال الناس بالباطل فى المعاملات وفى ذلك سعادتهم وفلاحهم .

ثم وصف الله تعالى ـ رسوله صلى الله عليه وسلم بصفة سابعة فقال تعالى : « ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » .

الأصر : الثقل الذى يأصر صاحبه . أى يحبسه عن الحركة لثقله ، ويطلق على العهد كما فى قوله تعالى : « قال أأقررتم وأخذتم على ذلك إصرى » أى عهدى .

قال القرطبي : « وقد جمعت هذه الآية المعنيين ، فإن بنى إسرائيل قد كان أخذ عليهم عهد أن يقوموا بأعمال ثقال فوضع عنهم بمحمد صلى الله عليه وسلم ذلك العهد وثقل تلك الأعمال ، كغسل البول ، وتحليل الغنائم ، ومجالسة الحائض ، ومؤاكلتها ومضاجعتها . فإنهم كانوا إذا أصاب ثوب أحدهم بول قرضه . وإذا

جمعوا الغنائم نزلت نار من السماء فأكلتها وإذا حاضت المرأة لم يقربوها . إلى غير ذلك مما ثبت فى الصحيح وغيره »(١) ،

والأغلال : جمع غل . وهو مايوضع فى العنق أو اليد من الحديد . والتعبير بوضع الإصر والأغلال عنهم استعارة لما كان فى شرائعهم من الأشياء الشاقة والتكاليف الشديدة كاشتراط قتل النفس لصحة التوبة . فقد شبه - سبحانه - ما أخذ به بنو إسرائيل من الشدة فى العبادات والمعاملات والمأكولات جزاء ظلمهم بحال من يحمل أثقالا يئن من حملها وهو فوق ذلك مقيد بالسلاسل ؛ والأغلال فى عنقه ويديه ورجليه .

والمعنى : إن من صفات هذا الرسول النبى الأمى أنه جاءهم ليرفع عنهم ماثقل عليهم من تكاليف كلفهم الله بها بسبب ظلمهم . لأنه - عليه الصلاة والسلام جاء بالتبشير والتخفيف . وبعث بالحنيفة السمحة . ومن وصاياه : « بشروا ولا تنفروا ويسروا ولا تعسروا » .

قال الإمام ابن كثير : « وقد كانت الأمم التى قبلنا فى شرائعهم ضيق عليهم . فوسع الله على هذه الأمة أمورها . وسهلها لهم . ولهذا قال رسول الله صلى الله عليهم وسلم « إن الله تجاوز لأمتى ماحدثت به أنفسهم مالم تقل أو تعمل » وقال : « رفع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه » ولهذا قال : أرشد الله هذه الأمة أن يقولوا : « ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به . واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين » . وثبت فى صحيح مسلم أن الله تعالى قال بعد كل سؤال من هذه : « قد فعلت قد فعلت »(٢) .

إذاً ، فمن الواجب على بنى إسرائيل أن يتبعوا محمداً صلى الله عليه وسلم

(١) تفسير القرطبى جـ ٧ ص ٣٠٠
(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٥٤

الذى هذه صفاته ، والذى فى اتباعه سعادتهم فى دنياهم وآخرتهم ، ولهذا ختم الله - تعالى - الآية الكريمة ببيان حالة المصدقين لنبيه فقال تعالى :

« فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أولئك هم المفلحون » .

أى : فالذين آمنوا بهذا الرسول النبى الأمى من بنى إسرائيل وغيرهم وعزروه ، بأن منعوه وحموه من كل من يعاديه ، مع التعظيم والتوقير له ونصروه بكل وسائل النصر « واتبعوا النور الذى أنزل معه » وهو القرآن والوحى الذى جاء به ودعا إليه الناس ، « أولئك هم المفلحون » أى الفائزون الظافرون برحمة الله ورضوانه .

وبذلك تكون الآية الكريمة قد وصفت النبى صلى الله عليه وسلم بأحسن الصفات وأكرم المناقب ، وأقامت الحجة على أهل الكتاب بما يجدونه فى كتبهم وعلى ألسنة رسلهم بأنه ماجاء إلا لهدايتهم وسعادتهم ، وأنهم إن آمنوا به وصدقوه ، كانوا من « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولوا الألباب » .

ثم أمر الله رسوله أن يبين للناس أنه مرسل إلى الناس كافة . فقال تعالى: (قل يأيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً) أى : قل يامحمد لكافة البشر من عرب وعجم ، إنى رسول الله إليكم جميعاً ، لافرق بين نصرانى أو يهودى ، وإنما رسالتى إلى الناس عامة ، وقد جاء فى القرآن الكريم وفى السنة النبوية مايؤيد عموم رسالته .

أما فى القرآن الكريم ، فمن ذلك قوله تعالى: وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين» وقال تعالى : « وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً » .
وقال تعالى : « وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ » .
أى وأنذر من بلغه القرآن ممن سيوجد إلى يوم القيامة من سائر الأمم

وفى ذلك دلالة على عموم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم وعلى أن أحكام القرآن تعم الثقلين إلى يوم الدين .

وأما فى السنه فمن ذلك مارواه البخاري عن جابر عبد الله أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلى نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجداً وطهوراً فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة ، وبعثت إلى الناس عامة[1] » .

وفى صحيح مسلم عن أبي موسى الأشعرى — رضى الله عنه — قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « والذى نفسى بيده لايسمع بى رجل من هذه الأمة يهودى ولا نصرانى ثم لايؤمن بى إلا دخل النار »[2] .

قال الامام ابن كثير : والآيات فى هذا كثيرة ، كما أن الأحاديث فى هذا أكثر من أن تحصر ، وهو معلوم من دين الاسلام ضرورة أنه رسول إلى الناس كلهم[3] هـ.

ثم وصف الله تعالى ذاته بما هو أهل له من صفات القدرة والوحدانية فقال تعالى : (الذى له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحي ويميت) أى : قل — يامحمد — للناس إنى رسول إليكم من الله الذى له التصرف فى السموات والأرض ، والذى لامعبود بحق سواه والذى بيده الاحياء والإماتة ، ومن كان هذا شأنه فمن الواجب أن يطاع أمره ، وأن يترك مانهى عنه ، وأن يصدق رسوله . ثم بنى — سبحانه — على هذه النعوت

---

(١) صحيح البخارى (باب التيمم) حـ ١ ص ٧٧ .
(٢) صحيح مسلم (كتاب المساجد) .
(٣) تفسير ابن كثير حـ ٢ ص ٢٥٥

الجليلة التي وصف بها نفسه الدعوة إلى الإيمان فقال تعالى : (فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون) أي فآمنوا أيها الناس جميعاً بالله الواحد الأحد وآمنوا - أيضاً برسوله محمد (صلى الله عليه وسلم) النبي الأمي الذي يؤمن بالله ، وبما أنزل عليه وعلى من تقدمه من الرسل من كتبه ووحيه واسلكو سبيله ، واقتفوا آثاره ، في كل ما يأمر به أو ينهى عنه رجاء أن تهتدوا إلى الصراط المستقيم .

وفي وصفه صلى الله عليه وسلم بالأمية مرة ثانية ، إشارة إلى كمال علمه ، لأنه مع عدم مطالعته للكتاب ، أو مصاحبته لمعلم . فتح الله له أبواب العلم ، وعلمه مالم يكن يعلم من سائر العلوم التي تعلمها الناس عنه ، وصاروا بها أئمة العلماء وقادة المفكرين ، فأكرم بها من أميه تضاءل بجانبها علم العلماء في كل زمان ومكان .

وبذلك تكون الآيتان الكريمتان قد وصفتا رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بأشرف الصفات وأقامتا أوضح الحجج وأقواها على صدقه في نبوته ودعتا اليهود بل الناس جميعاً - إلى الإيمان به لأنه قد بشرت به الكتب السماوية السابقة ولأنه صلى الله عليه وسلم ماجاءهم إلا بالخير ، وما نهاهم إلا عن الشر . ولأن شريعته تمتاز باليسر والسماحة ، ولأن أنصاره وأتباعه هم المفلحون ، ولأن رسالته عامة للجن والانس ، ومن كانت هذه صفاته ، وتلك شريعته ، جدير أن يتبع ، وقمين أن يصدق ويطاع ، وما يعرض عن دعوته إلا من طغى وآثر الحياة الدنيا .

ثم بين القرآن الكريم أن قوم موسى لم يكونوا جميعا ضالين . وإنما كان فيهم الأخيار وفيهم الأشرار فقال - تعالى - :

« وَمِنْ قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ (١٥٩) » .

أي : ومن قوم موسى جماعة عظيمة يهدون الناس بالحق الذي جاءهم به

من عند الله ، وبالحق - أيضا - يسيرون فى أحكامهم فلا يجورون ، ولا يرتشون ، وإنما يعدلون فى كل شئونهم :

والمراد بهم أناس كانوا على خير وصلاح فى عهد موسى - عليه السلام ، مخالفين لأولئك السفهاء من قومه .

وقيل المراد بهم من آمن بالنبي - صلى الله عليه وسلم - عند بعثته .

وهذا لون من ألوان عـــدالة القرآن فى أحكامه ، وإنصافه لمن يستحق الانصاف من الناس . إنه لايسوق أحكامه مغممة بحيث يندرج تحتها الصالح والطالح بدون تمييز ، كلا وإنما القرآن يسوق أحكامه بإنصاف واحتراس ، فهو يحكم للصالحين بما يستحقون ، وتلك هى العدالة التى ما أحوج الناس فى كل زمان ومكان إلى السير على طريقها ، وشبيه بهذه الآية قوله - تعالى - :

ليسوا سواء . من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون » .

وقوله : « وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لايشترون بآيات الله ثمنا قليلا ... » .

وقوله « بالحق » الباء للملابسة ، وهى مع مدخولها فى محل الحال من الواو فى يهدون . أى : يهدون الناس حال كونهم ملتبسين بالحق .

ثم ذكر القرآن بعض النعم التى أنعم الله بها على بنى إسرائيل ، وكيف وقفوا من هذه النعم موقف الجاحد الكنود فقال - تعالى :

« وقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى إِذِ اسْتَسْقَاهُ قَوْمُهُ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانْبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ، قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَشْرَبَهُمْ ، وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ الْغَمَامَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْهِمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَى كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ، وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِنْ

كانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١٦٠) وإذْ قِيلَ لَهُمْ اسْكُنُوا هٰذِهِ القَرْيَةَ وكُلُوا مِنْها حيثُ شِئْتُمْ ، وَقُولوا حِطَّةٌ وادْخُلوا البَابَ سُجَّداً نَغْفِرْ لَكُم خَطِيئَاتِكُم ، سَنَزِيدُ المُحْسِنِينَ (١٦١) فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلاً غيرَ الذى قِيلَ لَهُمْ ، فأَرْسَلْنا عَلَيهم رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانوا يَظْلِمُونَ (١٦٢) » .

قوله « وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما » أى : فرقناقوم موسى وصيرناهم اثنتى عشرة أمة لتتميز كل أمة عن الأخرى .

والأسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى العرب . والسبط : ولد الولدفهو كالحفيد . وقد يطلق السبط على الولد .

وكان بنو إسرائيل اثنتى عشرة قبيلة من اثنى عشر ولداً هم أولاديعقوب — عليه السلام — قالوا : والظاهر أن قطعناهم متعد لواحد لأنه لم يضمن معنى مايتعدى لاثنين ، فعلى هذا يكون اثنتى عشرة حالا من مفعول « قطعناهم » وهو ضمير الغائبين «هم» .

ويرى الزمخشرى وغيره أن « قطعناهم » بمعنى صيرناهم وأن « اثنتى عشرة » مفعول ثان ، وتمييز اثنتى محذوف لفهم المعنى والتقدير وقطعناهم اثنتى عشرة فرقة .

و « أسباطا » بدل من ذلك التمييز ، و « أمما » بدل بعد بدل من اثنتى عشرة .

والجملة الكريمة معطوفة على ماقبلها من أخبار بنى إسرائيل ، لمشاركتها لها فى كل مايقصد به من العظات والعبر .

وقوله: «وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا » .

الاستسقاء : طلب السقيا عند عدم الماء أوحبس المطر. وذلك عن طريق الدعاء لله - تعالى - فى خشوع واستكانة ، وقد سأل موسى - عليه السلام - ربه أن يسقى بنى إسرائيل الماء بعد أن استبد بهم العطش بعد ما كانوا فى التيه .

فعن ابن عباس أنه قال : كان ذلك فى التيه ضرب لهم موسى الحجر فصار منه اثنتا عشرة عينا من ماء لكل سبط منهم عين يشربون منها »[1] .

وقيل : كان الاستسقاء فى البرية ولكن الآثار التى تدل على أنه كان فى التيه أصح وأكثر .

والمعنى : وأوحينا إلى موسى حين طلب منه قومه الماء أن اضرب بعصاك الحجر فضربه فخرج منه الماء من اثنتى عشرة عينا ليروا بأعينهم مظاهر قدرتنا ، وليشاهدوا دليلا من الأدلة المتعددة التى تؤيد موسى فى أنه صادق فيما يبلغه عن ربه - عز وجل - .

وقوله « إذ استسقاه قومه » يفيد أن الذى سأل ربه السقيا هو موسى وحده ، لتظهر كرامته لدى ربه عند قومه ، وليشاهدوا بأعينهم كيف أن الله - تعالى - قد أكرمه حيث أجاب دعاءه ففجر لهم الماء من الحجر .

وأل فى « الحجر » لتعريف الجنس ، أى : اضرب أى حجر شئت بدون تعيين ، وقيل للعهد ، ويكون المراد حجرا معينا معروفا لموسى - عليه السلام - بوحى من الله - تعالى - وقد أورد بعض المفسرين فى ذلك آثاراً حكم عليها المحققون من العلماء بالضعف ، ولذا لم نعتد بها .

والذى نرجحه أن « أل » هنا لتعريف الجنس ، لأن انفجار الماء من أى حجر بعد ضربه أظهر فى إقامة البرهان على صدق موسى — عليه السلام — وأدعى لايمان بنى إسرائيل وانصياعهم للحق بعد وضوحه ، وأبعد عن التشكيك فى إكرام الله لنبيه موسى ، إذ لو كان انفجار الماء من حجر معين

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ١٠٠ .

لأمكن أن يقولوا إن انفجار الماء منه لمعنى خاص بهذا الحجر ، وليس لكرامة موسى عند ربه - عز وجل - .

والفاء فى قوله « فانبجست منه اثنتا عشرة عينا » معطوفة على محذوف والتقدير : فضرب فانبجست ..

قال بعضهم : والانبجاس والانفجار واحد . يقال بجست الماء أبجسه فانبجس ، بمعنى فجرته فانفجر :

وقيل : إن الانبجاس خروج الماء من مكان ضيق بقلة ، والانفجار خروجه بكثرة .

ولاتنافى بين قوله - تعالى - فى سورة البقرة « فانفجرت » وبين قوله هنا « فانبجست » لأنه انبجس أولا ثم انفجر ثانيا . وكذا العيون يظهر الماء منها قليلا ثم يكثر لدوام خروجه .

وكانت العيون اثنتى عشرة عينا بحسب عدد أسباط بنى إسرائيل إتماما للنعمة عليهم حتى لا يقع بينهم تنازع أو تشاجر .

وقوله « قد علم كل أناس مشربهم » إرشاد وتنبيه إلى حكمة الانقسام إلى اثنتى عشرة عينا . أى : قد عرف كل سبط من أسباط بنى إسرائيل مكان شربه فلا يتعداه إلى غيره ، وفى ذلك مافيه من استقرار أمورهم ، واطمئنان نفوسهم ، وعدم تعدى بعضهم على بعض .

ثم ذكر — سبحانه — نعما أخرى مما أنعم به عليهم فقال : « وظللنا عليهم الغمام » .

الغمام : جمع غمامة وهى السحابة : وخصه بعض علماء اللغة بالسحاب الأبيض .

أى : وسخرنا لبنى إسرائيل الغمام بحيث يلقى عليهم ظله ليقيهم من حر الشمس .

وقوله « وأنزلنا عليهم المن والسلوى » معطوف على ماقبله .

والمن : اسم جنس لا واحد له من لفظه ، وهو – على أرجح الأقوال – مادة صمغية تسقط من الشجر تشبه حلاوته حلاوة العسل .

والسلوى : اسم جنس جمعى واحدته سلواه، وهو طائر برى لذيذ اللحم ، سهل الصيد يسمى بالسمانى ، كانت تسوقه لهم ريح الجنوب كل مساء فيمسكونه قبضا بدون تعب .

وتظليلهم بالغمام وإنزال المن والسلوى عليهم كان فى مدة تيههم بين مصر والشام المشار إليه بقوله ـ تعالى ـ : « قال إنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض .

قال السدى : « لما دخل بنو إسرائيل التيه قالوا لموسى – عليه السلام – كيف لنا بما ها هنا ؟ أين الطعام ؟ فأنزل الله عليهم المن فكان ينزل على شجر الزنجبيل « والسلوى وهو طائر يشبه السمانى فكان يأتى أحدهم فينظر إلى الطير فإن كان سمينا ذبحه وإلا أرسله ، فإذا أسمن أتاه ، فقالوا : هذا الطعام فأين الشراب ؟ فأمر الله موسى أن يضرب بعصاه الحجر فضربه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا ، فشرب كل سبط من عين . فقالوا: هذا الشراب فأين الظل؟ فظلل الله عليهم بالغمام فقالوا : هذا الظل فأين اللباس ؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان ولا يتمزق لهم ثوب فذلك قوله ـ تعالى ـ « وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى ... »[1] .

وقوله « كلوا من طيبات ما رزقناكم » أى : وقلنا لهم كلوا من طيبات ما رزقناكم ، واشكروا ربكم على هذه النعم لكى يزيدكم منها .

وقوله : « وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون » معطوف على محذوف أى : فعصوا أمر ربهم وكفروا بهذه النعم الجليلة وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون .

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٩٧

ويرى البعض أنه لا حاجة إلى هذا التقدير ، وأن جملة « وما ظلمونا » معطوفة على ما قبلها لأنها مثلها فى أنها من أحوال بنى إسرائيل .

والتعبير عن ظلمهم لأنفسهم بكلمة « كانوا » والفعل المضارع « يظلمون » يدل على أن ظلمهم لأنفسهم كان يتكرر منهم ، لأنك لا تقول فى ذم إنسان « كان يسىء إلى الناس » إلا إذا كانت الإساءة تصدر منه المرة تلو الأخرى .

قال ابن جرير عند تفسيره لهذه الجملة الكريمة ما ملخصه : « هذا من الذى استغنى بدلالة ظاهره على ما ترك منه وذلك أن معنى الكلام : كلوا من طيبات ما رزقناكم فخالفوا ما أمرناهم به ، وعصوا ربهم ، ثم رسولنا إليهم وما ظلمونا » فاكتفى بما ظهر عما ترك . وقوله : « وما ظلمونا » أى : ما ظلمونا بفعلهم ذلك ومعصيتهم ، وما وضعوا فعلهم ذلك وعصيانهم إيانا موضع مضرة علينا ومنقصة لنا ، ولكنهم وضعوه من أنفسهم موضع مضرة عليها ومنقصة لها . فان الله - تعالى - لا تضره معصية عاص ، ولا يتحيف خزائنه ظلم ظالم ولا تنفعه طاعة مطيع ، ولا يزيد فى ملكه عدل عادل . بل نفسه يظلم الظالم ، وحظها يبخس العاصى ، وإياها ينفع المطيع ، وحظها يصيب العادل »(١).

وقوله - تعالى - « وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية وكلوا منها حيث شئتم وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا ... الخ » . تذكير لهم بصفة جليلة مكنوا منها فما أحسنوا قبولها ، وما رعوها حق رعايتها ، وهى نعمة تمكينهم من دخول بيت المقدس ونكولهم عن ذلك .

قال الآلوسى : وقوله « وإذ قيل لهم » معمول لفعل محذوف تقديره : اذكر . وإيراد الفعل هنا مبنيا للمفعول جريا على سنن الكبريا مع الإيذان بأن الفاعل غنى عن التصريح . أى : أذكر لهم وقت قولنا لأسلافهم »(٢).

---

(١) تفسير ابن جرير ج ١ ص ٢٣٧

(٢) تفسير الآلوسى ج ٩ ص ٨٨

والقرية هي البلدة المشتملة على مساكن ، والمراد بها هنا بيت المقدس - على الراجح - وقيل المراد بها أريحاء .

والحطة : كجلسة : إسم للهيئة ، من الحط بمعنى الوضع والإنزال، وأصله إنزال الشيء من علو . يقال : إستحطه وزرة : سأله أن يحطه عنه وينزله .

وهي خبر مبتدأ محذوف أي : مسألتنا حطة ،والأصل فيها النصب بمعنى: حط عنا ذنوبنا حطة ، وإنما رفعت لتعطى معنى الثبات .

والمعنى : وإذكروا أيها المعاصرون للعهد النبوى من بنى إسرائيل وقت أن قيل لأسلافكم إسكنوا قرية بيت المقدس بعد خروجهم من التيه ، وقيل لهم كذلك كلوا من خيراتها أكلا واسعا ، وأسألوا الله أن يحط عنكم ذنوبكم ، وأدخلوا من بابها خاضعين خاشعين شكرا لله على نعمه ، فإنكم إن فعلتم ذلك غفرنا لكم خطيئاتكم .

وقوله - تعالى - « وكلوا منها حيث شئتم » فيه إشعار بكمال النعمة عليهم وإتساعها وكثرتها ، حيث أذن لهم فى التمتع بثمرات القرية وأطعمتها من أى مكان شاءوا .

وقوله : « وقولوا حطة وأدخلوا الباب سجدا » إرشاد لهم إلى مايجب عليهم عمله نحو خالقهم ، وتوجيهم إلى مايعينهم على بلوغ غاياتهم بأيسر الطرق وأسهل السبل لأن كل ماكلفهم الله - تعالى - به أن يضرعوا اليه بأن يحط عنهم خطيئاتهم ، وأن يدخلوا من باب المدينة التى فتحها الله عليهم مخبتين .

وقوله « نغفر لكم خطيئاتكم » مجزوم فى جواب الأمر .

وهذه الجملة الكريمة بيان للثمرة التى تترتب على طاعتهم وخضوعهم لخالقهم وإغراء لهم على الإمتثال والشكر - لو كانوا يعقلون - لأن غاية ما يتمناه العقلاء هو غفران الذنوب .

وقوله - تعالى - « سنزيد المحسنين » وعد بالزيادة من خيرى الدنيا والآخرة لمن أسلم وجهه لله وهو محسن .

وقد أمر الله - تعالى - أن يفعلوا ذلك ، وأن يقولوا هذا القول ، لأن تغلبهم على أعدائهم نعمة من أجل النعم التى تستدعى منهم الشكر الجزيل لله - تعالى - . ولهذا كان النبى - صلى الله عليه وسلم - يظهر أقصى درجات الخضوع ، وأسمى ألوان الشكر عند النصر والظفر وبلوغ المطلوب،فعند ماتم له فتح مكة دخل إليها من الثنية العليا وهو خاضع لربه،حتى إن رأسه الشريف ليكاد يمس عنق ناقته شكرا لله على نعمة الفتح،وبعد دخوله مكة إغتسل وصلى ثمانى ركعات سماها بعض الفقهاء صلاة الفتح .

ومن هنا إستحب العلماء للفاتحين من المسلمين إذا فتحوا بلدة أن يصلوا فيها ثمانى ركعات عندأول دخولها شكرا لله،وقدفعل ذلك سعد بن أبى وقاص عندما دخل إيوان كسرى . فقد ثبت أنه صلى بداخله ثمانى ركعات .

ولكن ماذا كان من بنى إسرائيل بعد أن أتم الله لهم نعمة الفتح ،

لقد حكى القرآن ما كان منهم من جحود وبطر فقال : « فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم » .

قال صاحب الكشاف : « أى وضعوا مكان حطة قولا غيرها ، يعنى أنهم أمروا بقول معناه التوبة والاستغفار فخالفوه إلى قول ليس معناه معنى ماأمروا به ، ولم يمتثلوا أمر الله ، وليس الغرض أنهم أمروا بلفظ بعينه وهو لفظ الحطة فجاءوا بلفظ آخر ، لأنهم لو جاءوا بلفظ آخر مستقل بمعنى ما أمروا به لم يؤخذوا به . كما لو قالوا مكان حطة نستغفرك ونتوب إليك ، أو اللهم أعف عنا وما أشبه ذلك » (١)

وقال الامام ابن كثير : « وحاصل ماذكره المفسرون ومادل عليه السياق

(١) تفسير الكشاف ج ١ ص ١٤٣

أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل. فقد أمروا أن يدخلوا الباب سجدا فدخلوا يزحفون على أستاههم رافعي رؤسهم. وأمروا أن يقولوا حطة ـ أي احطط عنا ذنوبنا ـ فاستهزؤا وقالوا حنطة في شعيرة. وهذا في غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وخروجهم عن طاعته »(١)

وأخرج البخاري عن أبي هريرة عن النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال: « قيل لبني إسرائيل إدخلوا الباب سجدا وقولوا حطة فبدلوا ودخلوا يزحفون على أستاههم وقالوا. حبة في شعيرة »(٢).

والعبرة التي تؤخذ من هذه الجملة الكريمة أن من أمره الله ـ تعالى بقول أو فعل فتركه وأتى بآخر لم يأذن به الله دخل في زمرة الظالمين، وعرض نفسه لسوء المصير.

وقوله ـ تعالى ـ « فأرسلنا عليهم رجزا من السماء بما كانوا يظلمون » تصريح بأن ما أصابهم من عذاب كان نتيجة عصيانهم وتمردهم وجحودهم لنعم الله.

والرجز: هو العذاب، سواء أكان بالأمراض المختلفة أو بغيرها.

وفي النص على أن الرجز قد أتاهم من السماء إشعار بأنه عذاب لا يمكن دفعه، وأنه لم يكن له سبب أرضي مزعدوى أو نحوها، بل رمتهم به الملائكة من جهة السماء. فأصيب به الذين ظلموا دون غيرهم.

هذا وقد وردت في سورة البقرة آيتان تشبهان في ألفاظهما هاتين الآيتين التين معنا هنا في سورة الأعراف، أما آيتا سورة البقرة فهما قوله ـ تعالى ـ

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٩٩

(٢) صحيح البخاري باب « وإذ قلنا أدخلوا هذه القرية » ج ٦ ص ٢٢

«وإذ قلنا أدخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم رغدا وأدخلوا الباب سجدا وقولوا حطة ، نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين . فبـــدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم فأنزلنا على الذين ظلموا رجزا من السماء بما كانوا يفسقون » .

وقد عقد الإمام الرازى مقارنة بين أسلوب الآيتين فى كل من السورتين فقال ما ملخصه : إن الفاظ الآيتين فى سورة الأعراف تخالف ألفاظ آيتى سورة البقرة من وجوه :

الأول : انه قال ـ سبحانه ـ فى سورة البقرة : وإذ قلنا أدخلوا هـذه القرية ، وهنا قال : وإذ قيل لهم أسكنوا هذه القرية .

الثانى : أنه قال فى سورة البقرة : « فكلوا » بالفاء ، وقال هنا « وكلوا » بالواو .

التالث : أنه قال فى سورة البقرة : « رغدا » وهذه الكلمة غير مذكورة هنا .

الرابع : أنه قال فى سورة البقرة: «وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة» وقال هنا على التقديم والتأخير .

الخامس : أنه قال فى ســـــورة البقرة : نغفر لكم خطاياكم ، وقال ههنا « نغفر لكم خطيئاتكم » .

السادس : أنه قال فى سورة البقرة : « وسنزيد المحسنين » وههنا حذف حرف الواو .

السابع : أنه قال فى سورة البقرة : « فأنزلنا على الذين ظلموا » وقال ههنا « فأرسلنا عليهم » .

الثامن : أنه قال فى سورة البقرة : « بما كانوا يفسقون » وقال ههنا « بما كانوا يظلمون » .

واعلم أن هذه الألفاظ متقاربة ولا منافاة بينها ألبتة ، ويمكن ذكر فوائد هذه الألفاظ المختلفة من وجوه .

الأول : وهو أنه قال فى سورة البقرة ، أدخلوا هذه القرية ، وقال ههنا أسكنوا ، فالفرق أنه لابد من دخول القرية أولا ثم سكناها ثانيا .

الثانى : أنه هناك قال « فكلوا » بالفاء وهنا بالواو . والفرق أن الدخول حالة مخصوصة ، فإنه إنما يكون داخلا فى أول دخوله ، وأما مابعد ذلك فيكون سكونا لا دخولا إذا ثبت هذا فنقول . الدخول حالة منقضية زائلة وليس لها إستمرار فلا جرم يحسن ذكر فاء التعقيب بعده ، فلهذا قال : أدخلوا هـــذه القرية ، وأما السكون فحاله مستمرة باقية فيكون الأكل حاصلا معه لاعقيبه ، فظهر الفرق .

وأما الثالث : وأنه ذكر هناك « رغدا » ولم يذكره هنا ، فالفرق أن الأكل عقيب دخول القرية يكون ألذ ، لأن الحاجة إلى ذلك الأكل كانت أكمل وأتم ، ولما كان الأمر كذلك ذكر كلمة « رغدا » وأما الأكل حال سكون القرية فالظاهر أنه لا يكون فى محل الحاجة الشديدة ما لم تكن اللذة فيه متكاملة . فلا جرم ترك قوله « رغدا » فيه .

وأما الرابع : وهو قوله هناك « وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة » وهنا على العكس . فالمراد التنبيه على أنه لا منافاة فى ذلك ، لأن المقصود هو تعظيم أمر الله وإظهار الخضوع والخشوع له ، فلم يتفاوت الحال بحسب التقديم والتأخير .

وأما الخامس : وهو أنه قال هناك « خطايا كم » وقال هنا « خطيئاتكم » فهو إشارة إلى أن هذه الذنوب سواء كانت قليلة أو كثيرة فهى مغفورة عند الإتيان بهذا التضرع والدعاء .

وأما السادس : وهو قوله هناك « وسنزيد المحسنين » بالواو ، وقال هنا «سنزيد» بحذفها ، فالفائدة فى حذف الواو أنه تعالى وعد بشيئين : بالغفران

وبالزيادة المحسنين من الثواب وإسقاط الواو لايخل بذلك لأنه إستئناف مرتب على تقدير قول القائل ماذا بعد الغفران فقيل : إنه سيزيد المحسنين .

وأما السابع : وهو الفرق بين أنزلنا وبين أرسلنا ،فلأن الإنزال لايشعر بالكثرة والإرسال يشعر بها . فكأنه - سبحانه - بدأ بإنزال العذاب القليل ثم جعله كثيراً .

وأما الثامن : فهو الفرق بين قوله هناك «يفسقون» وقوله هنا «يظلمون» فذلك لأنهم موصوفون بكونهم ظالمين لأجل أنهم ظلموا أنفسهم، وبكونهم فاسقين لأجل أنهم خرجوا عن طاعة الله . فالفائدة فى ذكر هذين الوصفين التنبيه على حصول هذين الأمرين منهم .

ثم قال : فهذا ما خطر بالبال فى ذكر فوائد هذه الألفاظ المختلفة، وتمام العلم بها عند الله — تعالى — »(1) .

وبذلك تكون الآيات الكريمة قد بينت أن بنى إسرائيل مكنوا من النعمة فنفروا منها ، وفتحت لهم أبواب الخير فأبوا دخولها ، فكانت عاقبتهم أن محقت النعم من بين أيديهم ، وسلط الله عليهم عذاباشديدا من عنده بسبب ظلمهم وفسوقهم عن أمره .

وفى ذلك إثارة لحسرة اليهود المعاصرين للعهد النبوى على ما ضاع من أسلافهم بسبب إنتهاكهم لحرمات الله ، وتحذير لهم من سلوك طريق آبائهم حتى لا يصيبهم ما أصابهم من عذاب أليم .

ثم تحدث القرآن بعد ذلك عن رذيلة أخرى من رذائل بنى إسرائيل الكثيرة ، وهى تحايلهم على إستحلال محارم الله بسبب جهلهم وجشعهم وضعف إرادتهم .

وذلك أن الله — تعالى — أخذ عليهم عهدا بأن يتفرغوا لعبادته فى يوم

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٤ من ص ٢٠٧

السبت « وحرم عليهم الاصطياد فيه دون سائر الأيام ، واختبارا منه سبحانه لإيمانهم ووفائهم بعهودهم أرسل إليهم الحيتان فى يوم السبت دون غيره ، فكانت تتراءى لهم على الساحل فى ذلك اليوم ، قريبة المأخذ ، سهلة الاصطياد .

وهنا سال لعاب شهواتهم ومطامعهم وفكروا فى حيلة لاصطياد هذه الحيتان فى يوم السبت فقالوا : لامانع من أن نحفر إلى جانب ذلك البحر الذى يزخر بالأسماك فى يوم السبت أحواضا تنساب إليها المياه ومعها الأسماك ، ثم نترك هذه الأسماك محبوسة فى الأحواض فى يوم السبت — لأنها لاتستطيع الرجوع إلى البحر لضآلة الماء الذى فى الأحواض . ثم نصطادها بعد ذلك فى غير يوم السبت ، وبذلك نجمع بين احترام ماعهد إلينا فى يوم السبت وبين ماتشتهيه أنفسنا من الحصول على تلك الأسماك .

ولقد نصحهم الناصحون بأن عملهم هذا هو احتيال على محارم الله ، وأن حبس الحيتان فى الأحواض هو صيد لها فى المعنى ، وهو فسوق عن أمر الله ونقض لعهوده .

ولكنهم لجهلهم واستيلاء المطامع على نفوسهم لم يعبأوا بنصح الناصحين بل نفذوا حيلتهم الشيطانية ، فغضب الله عليهم ومسخهم قردة ، وجعلهم عبرة لمن عاصرهم ولمن أتى بعدهم وموعظة للمتقين .

واستمع إلى سورة الأعراف وهى تحكى لنا هذه القصة بأسلوبها البليغ فتقول :

« واسألْهُمْ عَنِ القَرْيَةِ التى كانَتْ حاضِرَةَ البَحْرِ إذْ يَعْدُونَ فى السَّبْتِ ، إذ تَأْتيهِم حِيتَانُهُم يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعاً وَيَوْمَ لا يسبِتُونَ لاَ تَأْتيهِمْ ، كَذَلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا كانوا يفْسُقُونَ (١٦٣) وَإذْ قالَتْ أُمَّةٌ مِنْهم لِمَ تَعِظُونَ قَوْماً اللهُ مُهْلِكُهُم أو مُعَذِّبُهُم عَذَاباً شَدِيداً ،

قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَى رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (١٦٤) فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٥) فَلَمَّا عَتَوْا عَمَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ (١٦٦) » .

قوله - تعالى - « واسألهم عن القرية ... ألخ » معطوف على اذكر المقدر فى قوله - تعالى - : وإذ قيل لهم اسكنوا . والخطاب للنبى - صلى الله عليه وسلم وضمير الغيبة للمعاصرين له من اليهود .

أى : سل يا محمد هؤلاء اليهود المعاصرين لك كيف كان حال أسلافهم الذين تحايلوا على استحلال محارم الله فإنهم يجدون أخبارهم فى كتبهم ولا يستطيعون كتمانها .

والمقصود من سؤالهم تقريعهم على عصيانهم ، لعلهم أن يتوبوا ويرجعوا إلى الحق ، ولا يعرضوا أنفسهم لعقوبات كالتى نزلت بسابقيهم ، وتعريفهم بأن هذه القصة من علومهم المعروفة لهم والتى لا يستطيعون إنكارها ، والتى لا تعلم إلا بكتاب أو وحى ، فإذا أخبرهم بها النبى الأمى الذى لم يقرأ كتابهم كان ذلك معجزة له . ودليلا على أنه نبى صادق موحى إليه بها .

قال الإمام ابن كثير عند تفسيره للآية الكريمة : (أى واسأل - يا محمد - هؤلاء اليهود الذين بحضرتكم عن قصة أصحابهم الذين خالفوا أمر الله ففاجأتهم نقمته على اعتدائهم واحتيالهم فى المخالفة ، وحذر هؤلاء من كتمان صفتك التى يجدونها فى كتبهم لئلا يحل بهم ما حل بإخوانهم وسلفهم وهذه القرية هى « أيلة » وهى على شاطىء بحر القلزم ، أى - البحر الأحمر -)[1] .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٢٥٦ .

وقال الإمام القرطبي : وهذا سؤال تقرير وتوبيخ . وكان ذلك علامة لصدق النبي صلى الله عليه وسلم إذ أطلعه الله على تلك الأمور من غير تعلم وكانوا يقولون : نحن أبناء الله وأحباؤه، لأنا من سبط إسرائيل . ومن سبط موسى كليم الله ، ومن سبط ولده عزير فنحن أولادهم ، فقال الله - عز وجل - لنبيه سلهم - يا محمد - عن القرية . أما عذبتهم بذنوبهم ، وذلك بتغيير فروع الشريعة [1] .

وجمهور المفسرين على أن المراد بهذه القرية . قرية (أيلة) التي تقع بين مدين والطور ، وقيل هي قرية طبرية ، وقيل هي مدين .

ومعنى كونها (حاضرة البحر) : قريبة منه ، مشرفة على شاطئه ، تقول كنت بحضرة الدار أي قريبا منها .

وقوله « إذ يعدون في السبت » أي يظلمون ويتجاوزون حدود الله — تعالى — بالصيد في يوم السبت ويعدون بمعنى يعتدون ، يقال : عدا فلان الأمر وإعتدى إذا تجاوز حده .

وقوله تعالى (إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ، ويوم لا يسبتون لا تأتيهم) بيان لموضع الاختبار والامتحان .

و « إذ تأتيهم حيتانهم » ظرف ليعدون . وحيتان جمع حوت وهو السمك الكبير . وشرعا : أي : شارعة ظاهرة على وجه الماء . جمع شارع ، من شرع عليه إذا دنا وأشرف وكل شيء دنا من شيء فهو شارع ، وقوله : شرعا حال من الحيتان .

والمعنى : إذ تأتيهم حيتانهم في وقت تعظيمهم ليوم السبت ظاهرة على وجه الماء دانية من القرية بحيث يمكنهم صيدها بسهولة ، فإذا مر يوم السبت وإنتهى لا تأتيهم كما كانت تأتيهم فيه ، إبتلاء من الله - تعالى - لهم .

قال ابن عباس : (اليهود أمروا باليوم الذي أمرتم به ، وهو يوم الجمعة ، فتركوه واختاروا السبت فابتلاهم الله — تعالى — به ، وحرم عليهم الصيد

---

(١) تفسير القرطبي جـ ٧ ص ٣٠٤ طبعة دار الكتب المصرية سنة ١٩٣٨

فيه ، وأمرهم بتعظيمه ، فإذا كان يوم السبت شرعت لهم الحيتان ينظرون اليها في البحر ، فأذا إنقضى السبت ذهبت وماتعود إلا في السبت المقبل ، وذلك بلاء ابتلاهم الله به ، فذلك معنى قوله تعالى (ويوم لايسبتون لاتأتيهم[1]) .

وقال الإمام القرطبي : (وروى في قصص هذه الآية أنها كانت فى زمن داود — عليه السلام — وأن إبليس أوحى اليهم فقال إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت ، فاتخذوا الحياض ، فكانوا يسوقون الحيتان اليها يوم السبت فتبقى فيها ، فلا يمكنها الخروج منها لقلة الماء . فيأخذونها يوم الأحد[2]) .

وقوله تعالى (كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون) معناه : بمثل هذا الابتلاء ، وهو ظهور السمك لهم في يوم السبت ، وإختفائه في غيره نبتليهم ونعاملهم معاملة من يختبرهم ، لينالوا ما يستحقونه من عقوبة بسبب فسقهم وتعديهم حدود ربهم ، وتحايلهم القبيح على شريعتهم ، فقد جرت سنة الله بأن من أطاعه سهل له أمور دنياه ، وأجزل له ثواب أخراه، ومن عصاه أخذه أخذ عزيز مقتدر .

ثم بين ـ سبحانه ـ طوائف هذه القرية وحال كل طائفة فقال تعالى : (وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً ، قالوا معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون) .

والذى يفهم من الآية الكريمة ، ـ وعليه جمهور المفسرين ـ أن أهل القرية كانوا ثلاث فرق .

١ ـ فرقة المعتدين فى السبت ، المتجاوزين حدود الله عن تعمد وإصرار
٢ ـ فرقة الناصحين لهم بالانتهاء عن تعديهم وفسوقهم .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ج ٤ ص٢١٦ طبعة الاميرية الأزهرية سنة١٣٠٨ هـ
(٢) تفسير القرطبى ج ٧ ص ٣٠٦

٣ - فرقة اللائمين للناصحين ليأسهم من صلاح العادين فى السبت .

وهذه الفرقة الثالثة هى التى عبر القرآن الكريم عنها بقوله : (وإذ قالت أمة منهم لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً) أى : قالت فرقة من أهل القرية ، لإخوانهم الذين لم يألوا جهدا فى نصيحة العادين فى السبت ، لم تعظون قوما لافائدة من وعظهم ولا جدوى من تحذيرهم، لأن الله تعالى قد قضى باستئصالهم وتطهير الأرض منهم ، أو بتعذيبهم عذاباً شديداً، جزاء تماديهم فى الشر ، وصممهم عن سماع الموعظة فكان رد الناصحين عليهم (معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون) .

فهم قد عللوا نصيحتهم للعادين بعلتين :

الأولى : الاعتذار إلى الله - تعالى - من مغبة التقصير فى واجب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

والثانية : الأمل فى صلاحهم وانتفاعهم بالموعظة حتى ينجوا من العقوبة ، ويسيروا فى طريق المهتدين .

وقيل : أن أهل القرية كانوا فرقتين ، فرقه أقدمت على الذنب فاعتدت فى السبت ، وفرقة أحجمت عن الاقدام ، ونصحت المعتدين بعدم التجاوز لحدود الله - تعالى - فلما داومت الفرقة الواعظه على نصيحتها للفرقه العادية ، قالت لها الفرقة العادية على سبيل التهكم والاستهزاء : لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديدا فى زعمكم ؟ فأجابتهم الناصحة بقولها . معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون .

والذى نرجحه إن أهل القرية كانوا ثلاث فرق كما قال جمهور المفسرين - لأن هذا هو الظاهر من الضمائر فى الآية الكريمة، إذ لو كانوا فرقتين لقالت الناهية للعاصية (ولعلكم تتقون) بكاف الخطاب ، بدل قولهم (ولعلهم يتقون) الذى يدل على أن المحاورة قد دارت بين الفرقة اللائمه ، والفرقة الناصحة .

قال الإمام القرطبى عند تفسيره الآية الكريمة : إن بنى إسرائيل افترقت ثلاث فرق « فرقت عصت وصدت ، وكانوا ، نحوا من سبعين ألفاً ، فرقة نهت واعتزلت ، وكانوا نحوا من إثنى عشر ألفاً ، وفرقة اعتزلت ولم تنه ولم تعص ، وأن هذه الطائفة هى التى قالت للناهية ، لم تعظون قوما ـ عصاة ـ الله مهلكهم ، أو معذبهم على غلبه الظن . وما عهد حينئذ من فعل الله تعالى بالأمم العاصية ؟) [1]

وقوله « معذرة » بالنصب على أنها مفعول لأجله أى : وعظناهم لأجل المعذرة ، أو منصوبة على أنها مصدر لفعل مقدر من لفظها أى : نعتذر معذرة وقرئت « معذرة » بالرفع على أنها خبر لمبتدأ محذوف أى : موعظتنا معذرة وقد اختار سيبويه هذا الوجه وقال فى تعليله : لأنهم لم يريدوا أن يعتذروا إعتذارا مستأنفاً ولكنهم قيل لهم لم تعظون ؟ فقالوا موعظتنا معذرة .

ثم بين ـ سبحانه ـ عاقبة كل من الفرقة الناهية والعاصية فقال تعالى (فلما نسوا ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس بما كانوا يفسقون) أى : فلما لج الظالمون فى طغيانهم ، وعموا وصموا عن النصيحة أنجينا الناصحين ، وأخذنا العادين بعذاب شديد لارحمة فيه بسبب خروجهم على أوامر الله .

والآية الكريمة صريحة فى بيان أن الذين أخذوا بالعذاب البئيس هم الظالمون المعتدون وأن الذين نجواهم الناهون عن السوء. أما الفرقة الثالثة التى لامت الناهين عن السوء على وعظهم للمعتدين ، فقد سكتت عنها :

ويرى بعض المفسرين : أنها لم تنج ، لأنها لم تنه عن المنكر . فضلا عن أنها لامت الناصحين لغيرهم .

ويرى جمهور المفسرين : أنها نجت ، لأنها كانت كارهة لما فعله العادون

(١) تفسير القرطبى ج ٧ ص ٣٠٧

فى السبت ولم ترتكب شيئاً مما ارتكبوه ، وإذا كانت قد سكتت عن النصيحة ، فلأنها كانت يائسة من صلاح المعتدين ، ومقتنعة بأن القوم قد أصبحوا محل سخط الله وعذابه ، فلا جدوى وراء وعظهم ، وإلى هذا الرأى ذهب صاحب الكشاف وغيره .

قال صاحب الكشاف : (فإن قلت : الأمة الذين قالوا لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً — من أى الفريقين هم ؟ أمن فريق الناجين أم من فريق المعذبين . قلت من فريق الناجين ، لأنهم من فريق الناهين ، وما قالوا ما قالوا إلا سائلين عن علة الوعظ والغرض فيه ، حيث لم يروا فيه غرضاً صحيحاً لعلمهم بحال القوم . وإذا علم الناهى حال المنهى ، وأن النهى لا يؤثر فيه ، سقط عنه النهى ،وربما وجب الترك لدخوله فى باب العبث، ألا ترى أنك لو ذهبت إلى المكاسين القاعدين على المآصر والجلادين المرتبين للتعذيب، لتعظهم وتكفهم عما هم فيه ، كان ذلك عبثاً منك ، ولم يكن إلا سبباً للتلهى بك ، أما الآخرون فإنهم لم يعرضوا عنهم ، إما لأن يأسهم لم يستحكم كما استحكم يأس الأولين ، ولم يخبروهم كما خبروهم . أو لفرط حرصهم وجدهم فى أمرهم ، كما وصف الله تعالى رسوله عليه الصلاة والسلام فى قوله (فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفاً)[1] .

وقال الإمام ابن كثير : (ويروى عن ابن عباس — رضى الله عنهما — أنه قال عندما سئل عن مصير الفرقة اللائمة ، ماأدرى مافعل بهم ، ثم صار إلى نجاتهم لما قال له غلامه عكرمة : ألا ترى أنهم قد كرهوا ماهم عليه وخالفوهم فقالوا (لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذاباً شديداً) قال عكرمة : فلم أزل به حتى عرفته أنهم نجوا فكسانى حلة)[2] .

---

(١) تفسير الكشاف حـ ١ ص ٥١٥ .

(٢) تفسير ابن كثير حـ ٢ ص ٢٦٧

والذى نرجحه أن مصير هذه الفرقة مفوض إلى الله ، لأنه لم يرد نص صحيح فى شأنها، فإن الآية الكريمة قد ذكرت صراحة عاقبة كل من الناصحين والعادين ولم تذكر مصير الفرقة اللائمة للناصحة ولعل ذلك مرجعه إلى أنهما وقفت من العادين فى السبت موقفاً سلبياً إستحقت معه الإهمال ، إن لم تكن بسببه أهلا للمؤاخذة .

ثم فصل - سبحانه - ما عوقبوا به من العذاب البئيس الذى أصابهم فقال تعالى : فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين ؛ أى فلما تكبروا عن ترك ما نهاهم عنه الواعظون . قلنا لهم كونوا قردة صاغرين فكانوا كذلك .

قال الآلوسى : (والأمر فى قوله تعالى (قلنا) تكوينى لا تكليفى ، لأنه ليس فى وسعهم حتى يكلفوا به ، وهذا كقوله تعالى (إنما أمرنا لشىء إذا اردناه أن نقول له كن فيكون)فى أنه يحتمل أن يكون هناك قول وأن يكون الغرض مجرد التمثيل)(١) .

وقيل فى تفسير الآية : إن الله تعالى - عاقب القوم أولا بالعذاب البئيس الذى يتناول البؤس والشقاء والفقر فى المعيشة ، فلما لم يرتدعوا ويثوبوا إلى رشدهم ، مسخهم مسخا خلقيا وجسميا ، فكانوا قردة على الحقيقة ، وهو الظاهر من الآية ، وعليه الجمهور :

وقيل : مسخهم مسخاً خلقياً ونفسياً ، فصاروا كالقردة فى شرورها وإفسادها لما تصل اليه أيديها ، وهذا مروى عن مجاهد .

وتلك العقوبة كانت جزاء إمعانهم فى المعاصى ، وتأبيهم عن قبول النصيحة ، وضعف إرادتهم أمام مقاومه أطماعهم . وإنتكاسهم إلى عالم

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٩ ص ٩٣ .

الحيوان لتخليهم عن خصائص الإنسان . فكانوا حيث أرادوا لأنفسهم من الصغار والهوان .

هذا وقد استدل العلماء بهذه الآيات الكريمة على تحريم الحيل القبيحة التى يتخذها بعض الناس ذريعة للتوصل إلى مقاصدهم الذميمة . وغاياتهم الدنيئة ومطامعهم الخسيسة .

وقد أفاض الإمام ابن القيم فى كتابه (إغاثة اللهفان) فى إيراد الأدلة الدالة على هذا التحريم ، فقال ماملخصه : (ومن مكايد الشيطان التى كادبها الإسلام وأهله ، الحيل والمكر والخداع الذى يتضمن تحليل ماحرم الله وإسقاط مافرضه ، ومضادته فى أمره ونهيه ، وهى من الباطل الذى اتفق السلف على ذمه ، فإن الرأى رأيان : رأى يوافق النصوص وتشهد له بالصحة والاعتبار ، وهو الذى اعتبره السلف وعملوا به . ورأى يخالف النصوص وتشهد له بالإبطال والإهدار ، وهو الذى ذموه وأهدروه .

وكذلك الحيل نوعان : نوع يتوصل به إلى فعل ما أمر الله — تعالى — به وترك مانهى عنه ، والتخلص من الحرام وتخليص الحق من الظالم المانع له ، وتخليص المظلوم من يد الظالم الباغى ، فهذا النوع محمود يثاب فاعله ومعلمه . ونوع يتضمن إسقاط الواجبات ، وتحليل المحرمات ، وقلب المظلوم ظالما ، والظالم مظلوما ، والحق باطلا ، والباطل حقا . فهذا الذى اتفق السلف على ذمه ، وصاحوا بأهله من أقطار الأرض .. ثم قال :

إن الله تعالى أخبر عن أهل السبت من اليهود بمسخهم قردة ، لما تحايلوا على إباحة ماحرمه الله — تعالى — عليهم من الصيد ، بأن نصبوا الشباك يوم الجمعة ، فلما وقع فيها الصيد ، أخذوه يوم الأحد .

قال بعض الأئمة : ففى هذا زجر عظيم لمن يتعاطى الحيل على المناهى الشرعية، ممن يتلبس بعلم الفقه وهو غير فقيه ، إذ الفقيه من يخشى الله - تعالى - بحفظ

حدوده ، وتعظيم حرماته ، والوقوف عندها ، وليس المتحيل على إباحة محارمه، وإسقاط فرائضه ، ومعلوم أنهم لم يستحلوا ذلك تكذيباً لموسى — عليه السلام — وكفراً بالتوراة ، وإنما هو استحلال تأويل واحتيال ، ظاهره ظاهر الإيفاء، وباطنه باطن الاعتداء ، ولهذا مسخوا قردة ، لأن صورة القردة فيها شبه من صورة الإنسان ، فلما مسخ أولئك المعتدون دين الله تعالى بحيث لم يتمسكوا إلا بما يشبه الدين فى بعض مظاهره دون حقيقته ، مسخهم سبحانه قردة يشبهونهم فى بعض ظواهرهم دون الحقيقة جزاء وفاقا ، وفى الحديث الشريف (لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود ، وتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل)(١) .

وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال: (قاتل الله اليهود ، حرمت عليهم الشحوم فباعوها وأكلوا ثمنها)(٢) .

وعن ابن عباس — رضى الله عنهما — قال : « بلغ عمر — رضى الله عنه — أن سمرة باع خمراً فقال : قاتل الله سمرة . ألم يعلم أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : لعن الله اليهود، حرمت عليهم الشحوم فجملوها — أى أذابوها — فباعوها(٣)) .

وبهذا تكون الآيات الكريمة قد دمغت العادين فى السبت من اليهود ، برذيلة الجهالة وضعف الإرادة ، وتحايلهم القبيح على استحلال محارم الله ، مما جعلهم أهلا للعذاب الشديد والمسخ الشنيع ، جزاء إمعانهم فى المعصية وصممهم عن سماع الموعظة ، وما ربك بظلام للعبيد .

---

(١) إغاثة اللهفان ج ١ ص ٣٥٨ .

(٢) صحيح البخارى : باب (لا يذاب شحم الميتة) ج ٣ ص ١٠٢ ، وأخرجه مسلم فى « كتاب المساقاة » ج ٢ ص ١٢٠٦ طبعة الحلبى .

(٣) صحيح البخارى : باب (لا يذاب شحم الميتة) ج ٣ ص ١٠٢ ، وأخرجه مسلم فى « كتاب المساقاة » ج ٢ ص ١٢٠٧ .

ثم بين ـ سبحانه ـ ماتوعد به أولئك اليهود من عقوبات بسبب كفرهم وفسوقهم وإفسادهم فى الأرض فقال ـ تعالى ـ :

« وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِم إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُم سُوءَ الْعَذَابِ ، إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ (١٦٧) وَقَطَّعْنَاهُمْ فِى الْأَرْضِ أُمَماً مِنْهُم الصَّالِحُونَ وَمِنْهُم دُونَ ذَلِكَ ، وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُم يَرْجِعُونَ (١٦٨) » .

قوله « وإذ تأذن ربك » منصوب على المفعولية بمقدر معطوف على « واسألهم » أى : واذكر يامحمد لليهود وقت أن تأذن ربك .

وتأذن بمعنى آذن ، أى : أعلم . يقال : آذن الأمر وبالأمر أى : أعلمه . وأذن تأذيناً : أكثر الإعلام .

وأجرى مجرى فعل القسم كعلم الله وشهد الله ، ولذلك جىء بلام القسم ونون التوكيد فى جوابه وهو قوله ـ تعالى ـ « ليبعثن عليهم . . . الخ » .

وقوله « إلى يوم القيامة » متعلق بقوله « ليبعثن » .

والمعنى : واذكر يامحمد وقت أن أعلم الله ـ تعالى ـ هؤلاء اليهود وأسلافهم بأنهم إن غيروا وبدلوا ولم يؤمنوا بأنبيائهم ، ليسلطن عليهم إلى يوم القيامة من يذيقهم سوء العذاب كالإذلال وضرب الجزية وغير ذلك من صنوف العذاب إن ربك لسريع العقاب لمن أقام على الكفر ، وجانب طريق الحق ، وإنه لغفور رحيم لمن تاب وآمن وعمل صالحاً . وهذا من باب قرن الترغيب بالترهيب حتى لا ييأس العاصى من رحمة الله بسبب ذنوبه السابقة إذا هو اقبل على الله بالتوبة والعمل الصالح كما قال ـ تعالى ـ « وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحاً ثم اهتدى » .

ولقد يبدو للبعض أن هذا الوعيد لليهود قد توقف بسبب مانرى لهم الآن من دولة وصولة ولكن الذى نعتقده أن هذا الوعيد ماتوقف مع مالهم من

دولة . فإنهم مازالوا محل احتقار الناس وبغضهم « وحتى الدول التى تناصرهم إنما تناصرهم لأن السياسة تقتضى ذلك بينما شعوب هذه الدول تكره أولئك اليهود وتزدريهم وتنفر منهم .

وماقامت لليهود تلك الدوله إلا لأن المسلمين قد فرطوا فى حق خالقهم ، وفى حق أنفسهم ، ولم يأخذوا بالأسباب التى شرعها الله لهم لحرب أعداءهم فكانت النتيجة أن أقام اليهود دولة لهم فى قلب البلاد الاسلامية وعندما يعود المسلمون إلى الأخذ التام الكامل بتعاليم دينهم وإلى مباشرة الأسباب التى شرعها الله مباشرة سليمة ، عندما يفعلون ذلك تعود إليهم عزتهم المسلوبة وكرامتهم المغصوبة .

وصدق الله إذ يقول : « ذلك بأن الله لم يك مغيراً نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ... »

هذا وقوله - تعالى - « وقطعناهم فى الأرض أمماً » إخبار عن عقوبة أخرى من عقوباتهم المتنوعة بسبب كفرهم وجحودهم ، وتتمثل هذه العقوبة فى تفريقهم فى الأرض ، وتمزيقهم شر ممزق حتى لاتكون لهم شوكه .

و « أمماً » حال من مفعول « قطعناهم » أو مفعول ثان لقطعناهم على أنه بمعنى صيرناهم .

أى : أن هؤلاء اليهود قد مزقناهم فى الأرض شر ممزق بسبب عصيانهم وفسوقهم ، وصيرناهم فرقا متقطعة الأوصال ، مشتتة الأهواء . وقوله « منهم الصالحون ومنهم دون ذلك » بيان لحالهم .

أى : من هؤلاء اليهود قلة آمنت بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر فصلح حالها ، وحسنت عاقبتها ، ومنهم كثرة منحطة عن رتبة أولئك المؤمنين الصالحين ، بسبب فسوقهم عن أمر الله ، وانتهاكهم لحرماته .

والجملة من المبتدأ والخبر ، فى موضع نصب على أنها صفة لـ « أمماً » .

وقوله « ومنهم دون ذلك » الجار والمجرور خبر مقدم و « دون ذلك » نعت لمنعوت محذوف هو المبتدأ والتقدير : ومنهم ناس أو جماعة دون ذلك.
وهذه الجملة الكريمة تدل على أن القرآن الكريم يستعمل الإنصاف والعدالة وتقرير الحقائق مع أعدائه وأتباعه على السواء، فهو يمدح من يستحق المديح ، ويذم من هو أهل الذم ، وما أحوج الناس فى كل زمان ومكان إلى التخلق بهذه الأخلاق.

وقوله — تعالى — « وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون » أى عاملناهم معاملة المبتلى الممتحن تارة بالنعم الكثيرة كالصحة والخصب وسعة الأرزاق ، وتارة بالنقم المتنوعة كالجدب والأمراض والشدائد ، لعلهم يرجعون إلى طاعة ربهم ، ويتركون ما نهوا عنه من المعاصى والسيئات .
يقال : بلاه يبلوه بلوا ، وابتلاه ابتلاء، إذا جربه واختبره. ولقد كانت نتيجة هذا الابتلاء والاختبار أن تكشفت الحقائق عن أن الكثرة من بنى إسرائيل سلكت طريق الضلالة والغواية، والقلة هى التى آمنت وأصلحت ولذا عاقب الله تلك الكثرة بالعقوبة التى تناسبها جزاءاً ووفاقا .
هذا ، وما أخبر به القرآن من أن الله — تعالى — قد توعد بنى إسرائيل وأخبرهم بأنه سيسلط عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب بسبب كفرهم وفسوقهم قد شهد بصدقة التاريخ ، وأيدته الحوادث ، وهذه نماذج قليلة من تلك العقوبات التى نزلت بهم فى الأزمنة المختلفة[١].
أولا : بعد وفاة سليمان ـ عليه السلام ـ حوالى سنة ٩٧٥ ق م انقسمت مملكته إلى قسمين : مملكة الشمال ، واسمها (إسرائيل) ومقرها (السامرة[٢]) وتتكون من الأسباط العشرة .

---

(١) ذكرنا هنا نماذج قليلة من تلك العقوبات ومن أراد معرفة المزيد فليرجع إلى كتابنا «بنو إسرائيل فى القرآن والسنة» جـ٢ ص ٣٢٦ وما بعدها.
(٢) السامرة وهى نابلس الآن .

ومملكة الجنوب واسمها (يهوذا) ومقرها (أورشليم[1]) وتتكون من سبطى يهوذا وبنيامين .

وقد استمرت المنازعات بين المملكتين مدة طويلة ، انتهت بانقضاض (سرجون) ملك آشور على مملكة الشمال (إسرائيل) سنة ٧٢١ ق م فقتل الآلاف من رجالها ، وأسر البقية منهم فرحلهم إلى ماوراء نهر الفرات، وقضى على هذه المملكة قضاء لم تقم لها بعده قائمة .

وأما مملكة الجنوب (أورشليم) فقد حاولت أن تتشبث بالبقاء ، ولكن معاول الهدم غزتها من الشرق ومن الجنوب وكانت نهايتها على يد بختنصر البابلى سنة ٥٨٦ ق م .

ويصور أحد الكتاب الغربيين قصة النكبات التى أدت إلى زوال مملكة (يهوذا وإسرائيل) فيقول : (هى قصة نكبات وقصة تحررات لاتعود عليهم إلا بإرجاء النكبة القاضية ، هى قصة ملوك همج يحكمون شعبا من الهمج ، حتى إذا وافت سنة ٧٢١ ق م ، محت يد الأسر الآشورى مملكة إسرائيل من الوجود ، وزال شعبها من التاريخ زوالا تاما ، وظلت مملكة يهوذا تكافح حتى أسقطها البابليون سنة ٥٨٦ ق م .

ثانيا : استرد اليهود بعض أنفاسهم بعد وقوعهم تحت حكم الفرس من حوالى سنة ٥٣٦ إلى سنة ٣٣٢ ق م فقد عادوا فى هذه الفترة إلى فلسطين ، ووقعوا تحت سيطرة الإسكندر المقدونى سنة ٣٣٠ ق م .

وفى سنة ٣٢٠ ق م ، سار إليهم (بطليموس) خليفة الإسكندر ، فهدم القدس ، ودك أسوارها ، وأرسل منهم مائة ألف أسير إلى مصر ، لأنهم ثاروا عليه .

---

(١) أورشليم هى بيت المقدس الآن .

ثالثاً : فى سنة ٢٠٠ ق م تقريبا ، وقع اليهود تحت سيطرة السلوقيين السوريين بعد انتصارهم على البطالسة ، ورأى بعض الحكام السلوقيين من اليهود تمردا وعصيانا . فأنزلوا بهم أشد العقوبات فى عدة مواقع ، وكان من أبرز المنكلين باليهود (انطوخيوس) مابين سنة ١٧٠ . وسنة ١٦٨ ق م فقد هاجم (أورشليم) وهدم أسوارها وهيكلها . ونهب مافيها من أموال وقتل من أهلها أربعين ألفا فى ثلاثة أيام ، وباع مثل ذلك العدد عبيدا منهم ولم يفلت من يده إلا اليهود الذين هربوا إلى الجبال ، وقد أقام (انطوخيوس) قمة على أحد الجبال ليشاهد منها كل من يقترب من اليهود إلى أورشليم ليقتله ، وقد وصل به الحال أنه أكره عدداً كبيراً منهم على ترك الديانة اليهودية وجعل هيكلهم فى أوشليم معبدا لإلهه .

رابعاً : وفى سنة ٦٣ ق م أغار الرومان بقيادة (بامبيوس) على أورشليم فاحتلوها . واستمر احتلالهم حتى سنة ٦١٤ م . وخلال احتلال الرومان لفلسطين قام اليهود بعدة ثورات باءت كلها بالفشل ، ولقوا بسبب تمردهم وعصيانهم من الرومان ألوانا من القتل والسبي والتشريد .

كان من أشهرها ما أنزله بهم « تيطس » الرومانى سنة ٧٠ م فقد اقتحم فى هذه السنة أورشليم فدمرها تدميرا ، وقتل الآلاف من اليهود وأحرق هيكلهم .

خامساً : بعد هذه النماذج التى سقناها لما أنزله الرومان من عقوبات على اليهود ، نتابع سيرنا فى سرد بعض العقوبات التى أنزلها المسلمون باليهود بسبب بغيهم وخياناتهم فنقول :

بعد هجرة النبي صلى الله عليه وسلم إلى المدينة ، عامل اليهود القاطنين والمجاورين لها معاملة طيبة ، وعقد بينهم معاهدة ضمنت لهم حقوقهم ولكنهم نقضوا عهودهم ، ولم يتركوا وسيلة من وسائل الكيد للإسلام والمسلمين إلا فعلوها ، وحاول الرسول صلى الله عليه وسلم أن يثنيهم عن جحودهم وبغيهم ولكنهم لم يستجيبوا له . فعاقب صلى الله عليه وسلم كل طائفة منهم بالعقوبة

التي تناسب جرمهم وخياناتهم وتكفل للمسلمين أن يعيشوا فى مأمن من شرورهم ، ومن بين العقوبات التى أنزلها النبي صلى الله عليه وسلم بهم إجلاؤه لبنى قينقاع ولبنى النضير عن المدينة ، وقتله لبني قريظة وإهداره لدم بعض كبرائهم ككعب بن الأشرف وسلام بن أبي الحقيق ، ومحاربته ليهود خيبر ومصالحته لهم بعد مقتل عدد كبير منهم ، ورفعهم راية الأمان ، والاستسلام، وقبولهم الشروط التى اشترطها عليهم النبي صلى الله عليه وسلم .

ولقد كان من آخر الكلمات التى نطق بها الرسول صلى الله عليه وسلم قبل وفاته قوله موصيا أصحابه (أخرجوا اليهود من جزيرة العرب لا يبقى فى جزيرة العرب دينان)[1] .

وفى عهد عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - تم إخراج جميع اليهود من جزيرة العرب ، إستجابة لوصية الرسول صلى الله عليه وسلم .

سادساً : وفى ختام عرضنا لبعض العقوبات التى نزلت باليهود فى الأزمنة المختلفة جزاء إجرامهم وإثارتهم للفتن نسوق بعض الأمثلة لما حل بهم على أيدى بعض الدول الأوربية .

(ا) ففى بريطانيا : لقى اليهود فى بعض العهود ألواناً من التعذيب، وصنوفا من القتل والتشريد .

١ - من ذلك أن الملك الإنجليزى (يوحنا) أصدر أمراً بحبسهم فى جميع أنحاء مملكته .

وفى سنة ١٩٢٨ م جأر الشعب البريطانى بالشكوى من اليهود ، فأصدر الملك ادوارد الأول أمرا بطرد اليهود من جميع البلاد البريطانية فى غضون ثلاثة أشهر ، إلا أن الشعب البريطانى لم يصبر على اليهود حتى تنقضى تلك المدة ، بل أخذ يقتل منهم العشرات والمئات وفى قلعة (بورك) التى احتمى بها عدد كبير من اليهود أحرق الإنجليز أكثر من خمسمائة يهودي وقد اضطر الملك

(١) صحيح البخارى باب إخراج اليهود جـ ٤ ص ١٢٠

إلى ترحيلهم قبل انقضاء المدة لئلا يفتك الشعب بهم جميعا فى كل مكان ، وظلت بريطانيا خالية من اليهود طوال ثلاثة قرون تقريبا . ولكن عادوا إليها سنة ١٦٥٦ م فى عهد الطاغية (كرومويل) الذى اغتصب الملك (شارل الأول) بعد أن قدم له اليهود الأموال الطائلة فى سبيل بلوغ أغراضه .

(ب) وفى فرنسا : تعرض اليهود فى أزمنة مختلفة لنقمة الشعب الفرنسى وغضبه ، لأنهم دمروا اقتصاده الوطنى ، وخنقوه بالربا الفاحش ، والمعاملات السيئة .

١ — ففى عهد (لويس التاسع) تدهورت الحالة الاقتصادية فى فرنسا فأصدر أمرا بإلغاء ثلث ما لليهود على الفرنسيين من ديون ، ثم أصدر أمرا بإحراق جميع كتبهم المقدسة ، وخاصة التلمود . وقد قال أحد المؤرخين إنهم أحرقوا فى باريس وحدها حمول أربع وعشرين مركبة من نسخ التلمود وغيرها)[1] .

٢ — وخلال تولى (فيليب الجميل) حكم فرنسا . أنزل الفرنسيون باليهود صنوفا من القتل والنهب والتشريد ، ثم طردوا من فرنسا نهائيا . ولكنهم عادوا إليها بعد أن دفعوا (لفيليب) ثلثى الديون التى لهم فى فرنسا .

٣ — وفى سنة ١٣٢١ م هاجمهم الشعب الفرنسى وذبح عددا كبيرا منهم ، ونكل بهم تنكيلا شديدا ، ثم طردوا من فرنسا بعد أن نهبت أموالهم ولم يستطيعوا العودة إليها إلا فى أواسط القرن السادس عشر .

٤ — وفى أوائل القرن التاسع عشر حاول (نابليون) أن يستغلهم لبلوغ مطامعه ، ولكنهم خانوه ، فاحتقرهم ، وبطش بعدد منهم . وقال عنهم إنهم حثالات البشر وجراثيمه .

ولم ينج اليهود من بطش الشعب الفرنسى إلا فى القرنين التاسع عشر والعشرين .

(١) تاريخ الإسرائيليين ص ٨٣ شاهين مكاريوس .

(ح) وفى إيطاليا ، حاربهم البابوات حربا شعواء وأطلقوا عليهم اسم (الشعب المكروه) وأغروا الشعب الإيطالى بهم فأعمل فيهم القتل والتشريد وقد أصدر البابوات مراسيم عديدة لتكفير اليهود وتسفيه ديانتهم القائمة على التلمود .

وفى سنة ١٢٤٢ م أعلن البابا (جريجورى) التاسع اتهامات صريحة ضد التلمود الذى يطعن فى المسيح والمسيحية ، وأصدر أوامره بإحراقه فأحرقت جميع نسخه .

وفى سنة ١٥٤٠ ثار الشعب الإيطالى على اليهود ثورة عارمة قتل فيها الآلاف منهم وطردوا من بقى حيا خارج إيطاليا .

(د) وفى أسبانيا : ذاق اليهود من الشعب الأسبانى وملوكه صنوف الذل وألوان الهوان ، ولم يظفروا بالراحة إلا فى أيام الحكم الإسلامى لأسبانيا . ولنكتف بذكر عقوبة واحدة من العقوبات المتعددة التى نزلت بهم فى تلك البلاد .

فى عهد الملك (فرديناند) وزوجته (إيزابلا) وصلت موجة السخط على اليهود أقصاها : لتغلغلهم فى الحياة الأسبانية ، واستيلائهم على اقتصادها وإشعالهم نار الخلافات الدينية بين الطوائف ... فرأى الملك وزوجته أن خير وسيلة لوقاية البلاد من شرورهم هى طردهم من أسبانيا طردا نهائيا .

وفى ٣١ من مارس سنة ١٩٥٢ صدر المرسوم التالى عن الملك (فرديناند): (يعيش فى مملكتنا عدد غير قليل من اليهود ، ولقد أنشأنا محاكم التفتيش منذ اثنتى عشرة سنة . وهى تعمل دائما على توقيع العقوبة على المذنبين، وبناء على التقارير التى رفعتها لنا محاكم التفتيش ، ثبت بأن الصدام الذى يقع بين المسيحيين واليهود يؤدى إلى ضرر عظيم ، ويؤدى بالتالى إلى القضاء على المذهب الكاثوليكى ، ولذا قررنا نفى اليهود ذكورا وإناثا خارج حدود مملكتنا وإلى

الأبد وعلى اليهود جميعا الذين يعيشون فى بلادنا وممتلكاتنا ومن غير تميز فى الجنس أو الأعمار أن يغادروا البلاد فى غضون فترة أقصاها نهاية يوليو من نفس العام ، وعليهم ألا يحاولوا العودة تحت أى ظرف أو سبب ... »[1] .

وبمقتضى هذا القرار طرد اليهود شر طردة من أسبانيا بعد أن أرغموا على ترك ذهبهم ونقودهم ، وبعد أن نفثوا سمومهم فى أسبانيا زهاء سبعة قرون وكان عددهم عندما خرجوا منها مطرودين يبلغ نصف مليون نسمه ويعتبر بعض اليهود هذا القرار وما تلاه من طرد وتشريد أسوأ من خراب أورشليم .

(هـ) وفى روسيا: كان يعيش نصف يهود العالم تقريبا خلال القرن التاسع عشر وقد استعملوا طول مدة إقامتهم فى روسيا كل وسائلهم الخبيثة للتدمير والتخريب ، ففتحوا الخانات وتاجروا فى الخمور ، وأقرضوا بالربا الفاحش ، واستولوا على الكثير من أموال الدولة بالطرق المحرمة ، وقتلوا الكثير من أبناء الشعب الروسى عندما مكنتهم الظروف من ذلك وكونوا الجمعيات السرية التى عملت على هدم نظام الحكم القيصرى واستمرت فى نشاطها حتى أزالته بواسطة الثورة الشيوعية فى سنة ١٩١٧ م هذه الثوره التى كان معظم قوادها من اليهود . ولم ينس الروس لليهود ما قاموا به نحوهم من عدوان واستغلال ، فانقضوا عليهم عدة مرات للتخلص منهم وأعملوا فيهم الذبح والقتل بلا رحمة ، وكان من أبرز المذابح التى أوقعها الروس باليهود مذبحة سنة ١٨٨١م ومذبحه سنة ١٨٨٢ م فقد حاول الفلاحون الروس أن يدمروا اليهود تدميرا فى هاتين السنتين .

وعندما نشر الكاتب الروسى (نيلوس) نسخا قليلة من (بروتوكولات حكماء صهيون) سنة ١٩٠٢ م التى تفضح نيات اليهود الإجرامية تجاه العالم أجمع ، جن جنونهم خوفا وفزعا . وعمت المذابح عندهم فى روسيا حتى لقد قتل منهم فى إحداها نحو عشرة آلاف يهودى .

---

(١) خطر اليهود العالمية على (الإسلام والمسيحية) ص١٨ لعبدالله التل .

(و) وفى ألمانيا : انتشر اليهود فى كثير من مدنها منذ القرن الثامن الميلادى، وسكنوا على ضفاف نهر الراين، واستغلوا الشعب الألمانى أسوأ استغلال حتى كادوا يستولون على أمواله عن طريق الربا الفاحش واستخدام الوسائل المختلفة لجمع المال الحرام . ولقد هاج الشعب الألمانى ضدهم فى أوقات مختلفة، واستعمل معهم كل وسائل القتل والسلب والطرد .

يقول صاحب كتاب (تاريخ الإسرائيليين) وظل القتل والذبح منتشرا فى اليهود إلى أن صدرت الأوامر بطردهم من أنحاء — ألمانيا — فى أزمنة متتابعة ، وذلك ما بين القرنين الثانى عشر والرابع عشر ، حتى لم يكد يبقى منهم واحدا فيها ...)[١] .

وكان آخر ما لاقوه من عذاب وتقتيل وتشريد على يد « هتلر » ابتداء من توليه الحكم ألمانيا سنة ١٩٣٣ إلى أن سقط حكمه سنة ١٩٤٥ .

وفى كل البلاد التى نزل بها اليهود ، تعرضوا لنقمة السكان وغضبهم وازدرائهم ، يستوى فى ذلك تاريخهم القديم والوسيط والحديث ، لقد أنزل العالم بهم ضربات قاصمة، وعقوبات صارمة ، شملت التنكيل والطرد والسجن والقتل ومصادرة الأموال .

ويقرر أحد الكتاب الغربيين أن كل الأمم المسيحية اشتركت فى اضطهاد اليهود وإنزال مختلف العقوبات بهم ، وكانت القسوة مع اليهود تعد مأثرة يمتدح المسيحيون بعضهم بعضا عليها[٢] .

هذا ، والشىء الذى نؤكده بعد سرد هذه النماذج من العقوبات التى نزلت باليهود فى مختلف العصور والأمم ، هو أن اليهود هم المسئولون عن كل اضطهاد وقع بهم ، وأنهم مستحقون لهذه العقوبات لأسباب من أهمها :

---

(١) تاريخ الإسرائيليين ص ٨٨

(٢) (اليهودية ص ٧٣ للدكتور أحمد شلبى) .

أولا : أنانيتهم وأطماعهم التى لاحدود لها ، فقد سوغت لهم أنانيتهم أن العالم ملك لهم بكل من فيه وما فيه ، وأن عليهم متى حلوا فى أى دولة أن ينهبوا خيراتها بكل وسيلة وإن يجمعوا أموالها بأى طريقة ، فإن المال هو معبود اليهود من قديم .

وأنانيه اليهود وجشعهم وأكلهم أموال الناس بالباطل ، جعلهم محل نقمة العالم وغضبه ، ولقد فطن بعض الزعماء العقلاء إلى خطر تغلغـل اليهود فى بلاده ، فأخذ يطردهم منها ، ويحذر أبناء أمته من شرورهم ، ومن هؤلاء الزعماء العقلاء (بنيامين فرانكلين) أحد رؤساء الولايات المتحدة ، فإنه ألقى خطابا سنة ١٧٨٩ قال فيه : (هناك خطر عظيم يهدد الولايات المتحدة الأمريكية ، وذلك الخطر هو (اليهود) . أيها السادة : حيثما إستقر اليهود ، تجدونهم يوهنون من عزيمة الشعب ، ويزعزعون الخلق التجارى الشريف . إنهم لا يندمجون بالشعب . لقد كونوا حكومة داخل الحكومة . وحينما يجدون معارضة من أحد فإنهم يعملون على خنق الأمه ماليا كما حدث للبرتغال وأسبانيا .. إذا لم يمنع اليهود من الهجرة بموجب الدستور . فى أقل من مائتى سنة سوف يتدفقون على هذه البلاد بأعداد ضخمة تجعلهم يحكموننا ويدمروننا ويغيرون شكل الحكومة التى ضحينا وبذلنا لإقامتها دماءنا وحياتنا وأموالنا وحريتنا . إذا لم يستثن اليهود من الهجرة فإنه لم يمض أكثر من مائتى سنة ليصبح ابناؤنا عمالا فى الحقول لتأمين الغذاء لليهود ..، إنى أحذركم أيها السادة . إذا لم نستثنوا اليهود من الهجرة إلى الأبد فسوف يلعنكم أبناؤكم وأحفادكم فى قبوركم ، إن عقليتهم تختلف عنا حتى لو عاشوا بيننا عشرة أجيال . والنمر لا يستطيع تغيير لونه . اليهود خطر على هذه البلاد . وإذا دخوها فسوف يخربونها ويفسدونها ...)[1] .

---

(١) كتاب (اليهودية العالمية وحربها المستمرة على المسيحية) ص ١٣٠ لإيليا أبو الروس .

وللتعليق على هذا الخطاب نقول : ما أصـــدق ماتوقعه (فرانكلين) لولا أنه قد أخطأ التقدير فى المدة اللازمة لتحويل أمريكا إلى بقرة حلوب لليهود ، فقد قدر (فرانكلين) هذه المدة بمائتى سنة أى فى سنة ١٩٨٩ ، بينما استطاع اليهود أن يسخروا سياسة أمريكا وأسلحتها ، وأموالها وعلمها ونفوذها وخيراتها ، لمنفعتهم الخاصة فى مدة تقل عما توقعه بأكثر من خمسين سنه .

ثانيا : غرورهم وتعاليهم : فاليهود يعتبرون أنفسهم أبناء الله وأحباؤه ، وشعبه المختار . ومن قديم الزمن وهم يقسمون العالم إلى قسمين متقابلين : قسم إسرائيل وهم صفوة الخلق وأصحاب الحظوة عند الله ، وقسم آخر يسمونه الامم (الجوييم) أى غير اليهود ومعنى (جوييم) عندهم ، وثنيون وكفره وبهائم وأنجاس . وقد أدى هذا الغرور والتعالى باليهود إلى إهدار كل حق لغيرهم عليهم ، وأن من حق اليهود أن يسرقوا من ليس يهودياً وأن يغشوه ويكذبوا عليه ويقتلوه إذا أمنوا اكتشاف جرائمهم ، وقد أشار القرآن الكريم إلى تلك الرذيلة التى تمكنت من اليهود بقوله . (ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائما ، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأميين سبيل ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون) .

وكتب اليهود — لاسيما التلمود — طافحة بالوصايا التى تبيح لهم أن يعاملوا غيرهم بمعاملة تخالف معاملتهم مع بعضهم ، من ذلك ماجاء فى التلمود: إذا خدع يهودى أحداً من الأمم وجاء يهودى آخر واختلس من الأممى بعض ماعنده بنقص الكيل أو زيادة الثمن ، فعلى اليهوديين أن يقتسما الغنيمة التى أرسلها إليهما (يهواه)[1] ويهواه هو إله اليهود .

---

(١) الصهيونية العالمية ص ٤٤ للأستاذ عباس محمود العقاد .

ونتيجة لهذا الغرور والتعالى الذى تميز به اليهود ، وأهدروا بسببه كل حق أو كرامة لسواهم من الناس ، قام غيرهم من الأمم ليدافع عن حقه الذى سلبوه منهم ، وليوقع بهم أقسى العقوبات جزاء غرورهم الكاذب ، وتعاليهم الباطل .

ثالثا : عزلتهم وعصبيتهم وخيانتهم للبلاد التى آوتهم فهم متعصبون متحزبون ، لايجمعهم حب بعضهم لبعض ولكن تجمعهم كراهية من ليس على ملتهم ، كما يجمعهم الحقد على العالم بأسره . وقد أصبحت العزلة والعصبية والعنصرية طابع اليهود الذى لاحيد لهم عنه ،

ويصف الدكتور (ويزمان) أول رئيس لإسرائيل طابع العزلة فى اليهود بقوله : (وكان اليهود فى موتول (مسقط رأسه) بروسيا ، يعيشون كما يعيش اليهود فى مئات المدن الصغيرة والكبيرة منعزلين منكمشين ، وفى عالم غير عالم الناس الذين يعيشرن معهم) .

ولعل أدق صورة للتحريض على العزلة والتمسك بها ، ماذكره (سلامون شحتر) فى خطابه بمدرسة اللاهوت اليهودية العليـــا حيث قال : (إن معنى الاندماج فى الأمم هو فقدان الذاتية.وهذا النوع من الاندماج مع مايترتب عليه من النتائج ، هو ما أخشاه أكثر مما أخشى المذابح والاضطهادات)[1] .

وقد تسبب عن عزلتهم وعصبيتهم أمور خطيرة،فقد نظروا إلى من سواهم من الأمم نظرة كلها عداء وريبة وحذر ، وصار طابعهم فى كل زمان ومكان عدم الإخلاص لاية هيئة دينية أو دنيوية.وعدم الولاء للأوطان التى يعيشون فيها ويأكلون من خيراتها ، وإنما يجعلون ولاءهم لجماعتهم ومصالحهم الخاصة دون غيرها ، لأن اليهودى يهودى قبل كل شىء ، مهما تكن جنسيته،ومهما يعتنق من عقائد ومبادىء فى الظاهر ، وإذا تعارضت جنسيته مع يهوديته

(١) كتاب (اليهودية) ص ٣٣ للدكتور أحمد شلبى .

ناصر يهوديته ، وحاول أن يشيع الخراب والدمار فى الأمة التى هو فرد من أفرادها خصوصا إذا أمن العقاب والصهيونية العالمية تأمر اليهود فى كل مكان أن يجعلوا ولاءهم لإسرائيل وليس للدول التى يعيشون فيها .

تقول جولدا مايير وزيرة خارجية إسرائيل سابقا : (إن اليهود المقيمين خارج إسرائيل طوائف مشتتة تعيش فى المنفى ، وأنهم مواطنون إسرائيليون قبل كل شىء ، ويتحتم عليهم الولاء المطلق لهذه الدولة الجديدة مهما تكن جنسيتهم الرسمية التى يسبغونها على أنفسهم ، وإن اليهودى الإنجليزى الذى ينشد بحكم إنجليزيته نشيد (حفظ الله الملكة) لا يمكن أن يكون فى نفس الوقت صهيونيا)[1] .

وما أكثر الحوادث التى قام فيها اليهود بدور العيون والجواسيس على الأوطان التى يعيشون فيها لحساب أعدائها ، واظهر مثل على ذلك ماقام به اليهود المقيمون فى ألمانيا من خيانات لها خلال الحرب العالمية الأولى، وكان ثمرة هذه الخيانات هزيمة ألمانيا ، ومنح اليهود جزاء غدرهم الوطنى وعد (بلفور) من الحكومة البريطانية سنة ١٩١٧ م .

وقد عـــدد (هتلر) خيانات اليهود لألمانيا فذكر منها استنزاف أموال الشعب بالربا الفادح وإفساد التعليم والسيطرة لصالحهم على المصارف والبورصة والشركات التجارية ، والسيطرة على دور النشر ، والتدخل فى سياسة الدولة لغير مصلحة ألمانيا وفى القمة من خياناتهم التجسس ضد ألمانيا الذى احترفه عدد كبير منهم) .

ويختم هتلر حديثه الطويل عن اليهود بقوله (وإذا قيض لليهودى أن يتغلب على شعوب هذا العالم ، فسيكون تاجه إكليل جنازة البشرية ، وعندما يستأنف كوكبنا السيار طوافه فى الأثير كما فعل منذ ملايين السنين لن يكون هناك بشر على سطحه .. لهذا أعتقد أنى تصرفت معهم حسبما شاء خالقنا ،

---

(١) من محاضرة مطبوعة عن (اليهود ودولة إسرائيل) .

لأنى بدفاعى عن نفسى ضد اليهودى ، إنما أناضل فى سبيل الدفاع ، عن عمل الخالق)[1] .

وإذن فعزلة اليهود ، وعصبيتهم ، وخيانتهم للأوطان التى آوتهم ، كان جزاؤها العادل ما حل بهم من دمار وتشريد خلال العصور المختلفة.

رابعاً : اضطهادهم لغيرهم متى ملكوا القدرة الظاهرة أو الخفية لذلك وتاريخ اليهود ملطخ بجرائم القتل والذبح والنهب والسلب والغدر والبطش بغيرهم وملىء بالمجازر التى قاموا بها ضد الشعوب التى كان لهم النصر عليها ، وقد ساعدهم على ذلك ما أمرتهم به كتبهم من قتل وإذلال لغيرهم متى واتتهم الفرصة عليه، ففى سفر الخروج مانصه .

(حين تقترب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن إجابتك فكل الشعب الموجود فيها يكون للتسخير ، ويستعبد لك ، وإن لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها ، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف ، هكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك جداً، وأما مدن هؤلاء الشعوب التى يعطيك الرب إياها فلا تستبق منها نسمة ما)[2] .

ولقد طبق اليهود هذه التعاليم أسوأ تطبيق فى كل أدوار تاريخهم فلقد قتلوا فى روما وحدها مائة ألف مسيحى سنة ٢٠٤ م بإيعاز من الإمبراطور (مارك أوريل) .

ومالنا نذهب بعيداً فى الاستشهاد على إجرامهم ، ومعارك فلسطين مازالت ماثلة فى أذهاننا ، يقول أحد الكتاب المعاصرين : (إن مذبحة دير ياسين كانت من أبشع المذابح التى ارتكبها اليهود .فقد قتلوا مائتين وخمسين إنسانا فى قرية صغيرة ومثلوا بأجسامهم ،وذبحوا الأطفال فى أحضان أمهاتهم وأمام

---

(١) كتاب « كفاحى » لهتلر .

(٢) سفر التثنية ، الإصحاح العشرون ٢٠ — ١٧ .

أعينهن ...) . وحدث مايشبه هذه المذابح فى كثير من مدن فلسطين كحيفا ويافا وقبية وكفر قاسم .

والحق ، أن مفاهيم اليهود الباطلة ، وأنانيتهم الطاغية ، وطباعهم اللئيمة وأخلاقهم الفاسدة ، وعصبيتهم الذميمة ، وقلوبهم القاسية ، واستباحتهم لقتل غيرهم ، وإهدار كرامته ، كل ذلك جعلهم محل نقمة العالم وغضبه ، وبسبب هذه الأخلاق المرذولة سلط الله عليهم من يسومهم سوء العذاب إلى يوم القيامة ، ومن يمزقهم شر ممزق .

ويعجبنى فى هذا المقام قول المؤرخ اليهودى « يوسيفوس » « لا توجد أمة فى الأرض فى كل أجيال التاريخ منذ بدء الخليقة إلى الآن تحملت ما تحمل بنو إسرائيل من الكوارث والآلام ، على أن هذه الكوارث والآلام لم تكن إلا من صنع بنى إسرائيل أنفسهم » .

والآن ، بعد سرد هذه العقوبات التى حلت ببنى إسرائيل فى مختلف العصور تأييداً لقوله - تعالى - « ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب ... » بسبب أعمالهم السيئة نعود إلى السورة الكريمة فنراها تحدثنا عن لون من ألوان الدعاوى الباطلة التى حكاها القرآن عنهم ، وهو زعمهم أن ذنوبهم مغفورة لهم ، وأنهم مهما فعلوا من ذنوب ، وارتكبوا من موبقات ، واستحلوا من أموال حرام ، فلن يحاسبهم الله على ذلك إلا حسابا يسيراً لأنهم أبناؤه وأحباؤه ، واستمع إلى السورة الكريمة وهى تحكى ذلك عنهم فتقول:

« فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هٰذَا الْأَدْنَى ، وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا ، وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِثْلُهُ يَأْخُذُوهُ ، أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ ، وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ

أَفَلاَ تَعقِلونَ (١٦٨) والَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بالكِتَابِ وأَقَامُوا الصَّلاَةَ إنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ المُصْلِحِين (١٦٩) » .

قال الإمام القرطبي : الخلف – بسكون اللام – الأولاد ، الواحد والجمع فيه سواء ، الخلف – بفتح اللام – البدل ، ولداً كان أو غريبا . وقال ابن الأعرابي : الخلف – بفتح اللام – الصالح ، وبسكونها الصالح ، ومنه قيل للردى من الكلام خلف – بسكون اللام – ومنه المثل السائر ، سكت ألفا ونطق خلفا ، قال لبيد .

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم – وبقيت فى خلف كجلد الأجرب .

فخلف فى الذم بالإسكان ، وخلف بالفتح فى المدح ، هذا هو المستعمل المشهور ، وفى الحديث الشريف (يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله) وقد يستعمل كل واحد منهما موضع الآخر[1] .

والعرض – بفتح الراء – متاع الدنيا وحطامها من الدل وغيره .

قال صاحب الكشاف : (قوله تعالى : يأخذون عرض هذا الأدنى أى حطام هذا الشيء الأدنى ، يريد الدنيا ومايتمتع به منها ، وفى قوله هذا تخسيس وتحقير ، والأدنى إما من الدنو بمعنى القرب ، لأنه عاجل قريب ، وإما من دنو الحال وسقوطها وقلتها والمراد ماكانوا يأخذونه من الرشا فى الأحكام على تحريف الكلم للتسهيل على العامة)[2] .

والضمير فى قوله (من بعدهم) يعود إلى اليهود الذين وصفهم الله فى الآية السابقة بقوله (وقطعناهم فى الأرض أمما منهم الصالحون ومنهم دون ذلك وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) .

والمعنى : فخلف من بعد أولئك القوم الذين قطعناهم فى الأرض أمما خلف سوء ، ورثوا كتاب الله وهو التوراة فقرأوه وتعلموه، ووقفوا على مافيه من تحليل وتحريم وأمر ونهى ولكنهم لم يتأثروا به بل خالفوا أحكامه ، واستحلوا

---

(١) تفسير القرطبى ج ٧ ص ٣١٠ (٢) تفسير الكشاف ج ١ ص ٥١٦

محارمه مع علمهم بها ، فهم يتهافتون على حطام الدنيا ومتاعها و يتقبلون المال الحرام بشراهة نفس . ويأكلون السحت أكلا لما ويقولون وهم والغون فى المعاصى ومصرون على الذنوب : إن الله سيغفر لنا ذنوبنا ولا يؤاخذنا بما أكلنا من أموال ، لأننا من نسل أنبيائه ، فنحن شعبه الذى اصطفاه من سائر البشر ، إلى غير ذلك من الأقاويل التى يفترونها على الله وهم يعلمون .

وجملة « يأخذون عرض هذا الأدنى » مستأنفة لبيان مايصنعون بالكتاب بعد وراثتهم إياه . وقيل هى حال من الضمير فى ورثوا .

ثم أخبر — سبحانه — عنهم بأنهم أهل إصرار على ذنوبهم ، وليسوا بأهل إنابة ولا توبة فقال تعالى : (وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه) أى أنهم يأخذون عرض الحياة الدنيا ويعرضون عن شريعة الله التى أنزلها عليهم فى التوراة ويزعمون أن الله لايؤاخذهم بما فعلوا . ثم هم بعد ذلك لا يتوبون إلى الله ولا يستغفرونه ، وإنما حالهم أنهم إن لاح لهم عرض حرام آخر مثل الذى أخذوه أولا بالباطل ، تهافتوا عليه من جديد واستحلوه وأكلوه فى بطونهم . وبدون توبة أو ندم .

قال مجاهد قوله تعالى (وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه) لايشرف لهم شىء من متاع الدنيا إلا أخذوه حلالا كان أو حراما ، ويتمنون المغفرة (ويقولون سيغفر لنا) وإن يجدوا عرضا مثله يأخذوه[1] .

وقال السدى : (كانت بنوا إسرائيل لا يستقضون قاضيا إلا ارتشى فى الحكم وإن خيارهم اجتمعوا ، فأخذ بعضهم على بعض العهود أن لا يفعلوا ولا يرتشوا ، فجعل الرجل منهم إذا استقضى ارتشى ، فيقال له ماشأنك ترتشى فى الحكم ؟ فيقول سيغفر لى ، فيطعن عليه البقية الآخرون من بنى إسرائيل

---

(١) تفسير الكشاف جـ ١ ص ٥١٩ .

صنعه فإذا مات أو نزع وجعل مكانه رجل ممن كان يطعن عليه قبل الرشوة يقول الله : وإن يأت : وإن يأت الآخرين عرض الدنيا يأخذوه)[1] .

ثم أنكر — سبحانه — عليهم مازعموه بقولهم : (سيغفر لنا) وهم مصرون على معصيتهم فقال تعالى . (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا مافيه) .

والمعنى : لقد أخذ الله العهد فى التوراة على هؤلاء المرتشين فى أحكامهم : والقائلين سيغفر الله فعلنا هذا ألا يقولوا على الله إلا القول الحق ، ولا يخبروا عنه إلا بالصدق ولا يخالفوا أمره . ولا ينقضوا عهده ، ولا يتجاوزوا حدوده ، وقد درس هؤلاء الكتاب ،أي : قرءوه وفهموه ، ولكنهم لم يعملوا بما أخذ عليهم من عهود ولم تتبعوا أو امر كتابهم ونواهيه ، لأنهم درسوه ولم يتأثروا به ، ولم تخالط تعاليمه شغاف قلوبهم ، فضيعوه واشتروا به ثمناً قليلا فبئس مايشترون .

وقوله ، أن لا يقولوا على الله إلا الحق ، بدل من ميثاق الكتاب أو عطف بيان له . وقيل إنه مفعول لأجله أي : لئلا يقولوا .

وجملة (ودرسوا مافيه) معطوفة فى المعنى على قوله تعالى (ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب) أي أن الله تعالى قد أخذ عليهم الميثاق فى التوراة ودرسوه .

قال ابن دريد : (كان يأتيهم المحق برشوة فيخرجون له كتاب الله فيحكمون له به ، فإذا جاء المبطل أخذوا منه الرشوة وأخرجوا له كتابهم الذى كتبوه بأيديهم وحكموا له[2] .

ثم بين الله لهم أن ما أعده فى الآخرة للمتقين الذين يتعففون عن السحت وعلى أكل أموال الناس بالباطل خير من متاع الدنيا وزهرتها الذى آثره هؤلاء الذين يفترون على الله الكذب فقال تعالى : (والدار الآخرة خير للذين

---

(١) تفسير ابن كثير جـ٢ ص ٢٦٠ (٢) تفسير القرطبي جـ٧ ص٣١٢.

يتقون أفلا تعقلون) أي : والدار الآخرة وما أعده فيها من نعيم لأولئك الذين يتقونه حق تقاته فى السر والعلن ، خير من عرض هذا الأدنى الذى استحله هؤلاء اليهود بدون حق وآثروه على ماعند الله من نعيم مقيم وثواب جزيل (أفلا تعقلون) - يامن أكلتم أموال الناس بالباطل وقلتم سيغفر الله لنا ذنوبنا - هذا الحكم الواضح ، الذى لايخفى على ذى عقل سليم ، لم تطمسه الشهوات ، ولم يستحوذ عليه الشيطان .

وفى هذا إشارة إلى أن الطمع فى متاع الحياة الدنيا هو الذى جعل بنى إسرائيل يقولون على الله غير الحق. ويتشبعون من المال الحرام بدون تعفف ويبيعون دينهم بثمن بخس .

قال الإمام الآلوسى : (والمراد من الآية توبيخ أولئك الورثة على بتهم القول بالمغفرة مع إصرارهم على الذنوب وجاء البت من السين فإنها للتأكيد كما نص عليه المحققون، وعن ابن عباس - رضى الله عنهما - إنهم وبخوا على إيجابهم على الله - تعالى - غفران ذنوبهم التى لايزالون يعودون إليها ثم لايتوبون منها .

وقد أطبق أهل السنة على ذم المتمنى على الله ، ورووا عن شداد بن أوس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى) ومن هنا قيل : إن القوم ذموا بأكلهم أموال الناس بالباطل وباتباعهم أنفسهم هواها وتمنيهم على الله - سبحانه - الأمانى ، ووبخوا على افترائهم على الله فى الأحكام التى غيروها ، وأخذوا عرض هذا الأدنى على تغييرها ، وقالوا على الله ماليس بحق من القول[1]) .

ثم أثنى الله - تعالى - على من تمسك بكتابه ، فأحل حلاله وحرم

---

(١) تفسير الآلوسى ج ٩ ص ٩٧ بتصرف وتلخيص .

حزامه ، ولم يتقول على الله الكذب فقال تعالى : (والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع اجر المصلحين) .

والمراد بالكتاب التوراة أو القرآن أو جنس الكتب السماوية عموما .

والمعنى : والذين يستمسكون بأوامر الكتاب الذى أنزله الله ويعتصمون بحبله فى جميع شئونهم إنا لا نضيع أجرهم لأنهم قد أصلحوا دينهم ودنياهم والله لا يضيع أجر من أحسن عملا .

وخص الصلاة بالذكر مع دخولها فيما قبلها إظهارا لمزيتها لكونها عماد الدين وناهية عن الفحشاء والمنكر .

وبذلك تكون الآيتان الكريمتان قد وبختا اليهود لافترائهم على الله الكذب وردتا عليهم فى دعواهم أن ذنوبهم مغفورة لهم مع تعمدهم أكل أموال الناس بالباطل ، وبينتا لهم طريق الفلاح لكى يسيروا عليها ، إن كانوا ممن ينتفع بالذكر ، ويعتبر بالمثلات .

ثم ختمت السورة الكريمة حديثها الطويل عن بنى إسرائيل بتذكيرهم بالعهد الذى أخذه الله عليهم ، وبأمرهم بالإيمان والعمل الصالح فقالت :

« وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ ، خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٧١) » .

والآية الكريمة معطوفة على ماسبق من أحوال بنى إسرائيل بتقدير : اذكر .

ونتقناه : من النتق وهو الزعزعة والرفع والجذب بشدة ، يقال : نتق الشىء ينتقه وينتقه ، جذبه واقتلعه .

والمراد بالجبل جبل الطور الذى سمع موسى عليه الكلام من ربه .

قيل : « إن موسى لما أتى بنى إسرائيل بالتوراة وقرأها عليهم وسمعوا

ما فيها من التغليظ كبر ذلك عليهم ، وأبوا أن يقبلوا ذلك ، فأمر الله الجبل فانقطع من أصله حتى قام على رءوسهم مقدار عسكرهم ، فلما نظروا إليه فوق رءوسهم خروا ساجدين، فسجدوا كل واحد منهم على خده وحاجبه الأيسر ، وجعل ينظر بعينه اليمنى إلى الجبل خوفا من أن يسقط فوقهم [١] » .

أى : وأذكر يا محمد وذكر بنى إسرائيل المعاصرين لك وقت أن رفعنا الجبل فوق آبائهم الذين كانوا فى عهد موسى حتى صار كأنه غمامة أو سقيفة فوق رءوسهم لنريهم آية من الآيات التى تدل على قدرتنا وعلى صدق نبينا موسى — عليه السلام — .

قال بعض العلماء : « ورفع الجبل فوقهم لإرشادهم آية من آيات الله تقوى إيمانهم بأن التوراة منزلة من عند الله ، وقوة الإيمان من شأنها أن تدفع إلى العمل بما فى الكتاب المنزل بجد واجتهاد [٢] » .

وقوله « وظنوا أنه واقع بهم » أى : ووقع فى نفوسهم أن الجبل ساقط عليهم إذا لم يستجيبوا لما أمرهم به نبيهم — عليه السلام — .

قال الجمل : وقوله « وظنوا . . . » فيه أوجه : أحدها أنه فى محل جر نسقا على نتقنا المخفوض بالظرف تقديرا والثانى : أنه حال وقد مقدره عنده بعضهم ، وصاحب الحال الجبل .

أى . كأنه ظلة فى حال كونه ظنونا وقوعه بهم . والثالث : أنه مستأنف فلا محل له . والظن هنا على بابه ، وقيل بمعنى اليقين » .

وقوله « خذوا ما آتيناكم بقوة » مقول لقول محذوف دل عليه المعنى .

والتقدير : وقلنا لهم خذوا ما آتيناكم بقوة ، أى تمسكوا به وأعملوا بما فيه بجد ونشاط ، وتقبلوه بحسن إستعداد وبدون تقصير أو تردد .

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين جـ ٢ ص ٣٠٦

(٢) تفسير القرآن الكريم لفضيلة الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين . مجلة لواء الإسلام : السنة الثانية : العدد السابع ص ٥ .

والمراد بقوله : « بما آتيناكم » التوراة التى أنزلها الله على موسى لتكون هدى ونوراً لهم .

وقوله « واذكروا مافيه » أى : احفظوه وتدبروه وتدارسوه واعملوا به بلا تعطيل لشيء منه .

قال القرطبي : وهذا هو المقصود من الكتب : العمل بمقتضاها لا تلاوتها باللسان فحسب ، فقد روى النسائي عن أبى سعيد الخدرى أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « إن من شر الناس رجلا فاسقا يقرأ القرآن لا يرعوى إلى شيء منه[1] » .

ولعل فى قوله « لعلكم تتقون » إما للتعليل فيكون المعنى : خذوا الكتاب بجد وعزم ، واعملوا بما فيه بصدق وطاعة لتتقوا الهلاك فى دنياكم وآخرتكم . وإما للترجى ، وهو منصرف إلى المخاطبين فيكون المعنى : خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا مافيه ولا تنسوه وأنتم ترجون أن تكونوا من طائفة المتقين .

ولكن بنى إسرائيل لم يذكروا ولم يتدبروا بل نقضوا العهد ، ولجوا فى المعصية ، فاستحقوا لعنة الله وغضبه ، وماربك بظلام للعبيد .

وبذلك تكون سورة الأعراف قد حدثتنا – من بين ماحدثتنا – من مطلعها إلى هنا عن هداية القرآن الكريم ، وعن يوم القيامة ومافيه من ثواب وعقاب ، وجنة ونار ، وعن النداءات التى وجهها الله – تعالى – لبنى آدم تذكيراً وتوجيهاً وتعليماً حتى يسعدوا فى دينهم ودنياهم ، وعن أحوال السعداء والأشقياء فى الآخرة ومايدور بينهم من مناقشات ومحاورات ، وعن قصة آدم وإبليس وعن قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب مع أقوامهم ، ثم أفاضت السورة الكريمة فى حديثها عن قصة موسى مع فرعون ومع بنى إسرائيل ...

---

(١) تفسير القرطبي جـ ١ ص ٤٢٧ .

والهدف الأول الذى قصدته السورة مما عرضته من قصص وتوجيهات وإرشادات هو إثبات وحدانية الله ، وإخلاص العبادة له ، وحمل الناس على السير فى الطريق المستقيم ، وقد استعملت السورة فى عرضها لتلك الحقائق أساليب الترغيب والترهيب ، والتذكير بالنعم والتحذير من النقم ، وإقامة الحجج ودفع الشبه .

ثم بدأت السورة بعد أن انتهت من حديثها عن بنى إسرائيل وحتى نهايتها تحدثنا عن قضية التوحيد من زاوية جديدة عميقة، زاوية الفطرة التى فطر الله عليها البشر ، ولنتصاحب سويا - أيها القارىء الكريم - متأملين فيما ساقته لنا السورة الكريمة فى الربعين الأخيرين منها من آيات تزخر بالأدلة العقلية والمنطقية التى تثبت وحدانية الله وتبطل الشرك والشركاء ، مستعينة فى ذلك بما تهدى إليه الفطرة البشرية والطبيعة الانسانية .

تدبر معى قوله - تعالى - :

« وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِى آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هٰذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ (١٧٣) وَكَذَلِكَ نُصَرِّفُ الآيَاتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (١٧٤) » .

قال صاحب المنار : هذه الآيات بدء سياق جديد فى شئون البشر العامة المتعلقة بهداية الله لهم بما أودع فى فطرتهم وركب فى عقولهم من الاستعداد للايمان به وتمجيده وشكره ، فى إثر بيان هدايته لهم بإرسال الرسل وإنزال الكتب فى قصة بنى إسرائيل . فالمناسبة بين هذا وماقبله ظاهرة ، ولذلك عطف عليه عطف جملة على جملة أو سياق على سياق (١) .

---

(١) تفسير المنار جـ ٩ ص ٣٨٦

قوله « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم » الظهور : جمع ظهر وهو العمود الفقرى لهيكل الإنسان الذى هو قوام بنيته .

والذرية : سلالة الإنسان من الذكور والإناث .

وقوله « من ظهورهم » بدل بعض من قوله « من بنى آدم » و « ذريتهم » مفعول أخذ .

والمعنى : واذكر أيها الرسول وذكر كل عاقل وقت أن استخرج الله — تعالى — من أصلاب بنى آدم ذريتهم ، وذلك الإخراج أنهم كانوا نطفة فأخرجها — سبحانه — فى أرحام الأمهات ، وجعلها علقة ثم مضغة ، ثم جعلها بشراً سويا ، وخلقا كاملا مكلفاً .

قال الآلوسى : وإيثار الأخذ على الإخراج للإيذان بشأن المأخوذ إذ ذاك لما فيه من الإنباء عن الإجتباء والاصطفاء وهو السبب فى إسناده إلى اسم الرب بطريق الالتفات مع ما فيه من التمهيد للاستفهام الآتى . وقيل إن إيثار الأخذ على الإخراج لمناسبة ما تضمنته الآية من الميثاق ، فإن الذى يناسبه هو الأخذ دون الإخراج .

والتعبير بالرب لما أن ذلك الأخذ باعتبار ما يتبعه من آثار الربوبية .

وقوله : « وأشهدهم على أنفسهم » أى : أشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من دلائل وحدانيته ، وعجائب خلقه ، وغرائب صنعته ، وبما أودع فى قلوبهم من غريزة الإيمان ، وفى عقولهم من مدارك تهديهم إلى معرفة ربهم وخالقهم .

وقوله : « ألست بربكم » مقول لقول محذوف : أى : قائلا لهم — بعد أن أشهدهم على أنفسهم بما ركب فيهم من دلائل الوحدانية — ألست بربكم ، ومالك أمركم ، ومربيكم على الإطلاق ، من غير أن يكون لأحد مدخل فى شأن من شئونكم . « قالوا بلى شهدنا » أى : قالوا بلى شهدنا على أنفسنا عن

عن عقيدة وإقناع بأنك أنت ربنا وخالقنا ولا رب لنا سواك ، فإن آثار رحمتك وعجائب خلقك ، ومظاهر قدرتك تجعلنا لانتردد فى هذه الشهادة .

و «بلى» حرف جواب ، وتختص بالنفى فلا تقع إلا جوابه فتفيد إبطاله سواء أكان مجردا أم مقرونا بالاستفهام ولذلك قال ابن عباس وغيره ، لو قالوا نعم لكفروا . لأن نعم حرف تصديق للمخبر بنفى أو إيجاب .

قال صاحب الكشاف : وقوله : « ألست بربكم قالوا بلى » من باب التمثيل ومعنى ذلك أنه نصب لهم الأدلة على ربوبيته ووحدانيته ، وشهدت بها عقولهم وبصائرهم التى ركبها فيهم وجعلها مميزة بين الضلالة والهدى ، فكأنه أشهدهم على أنفسهم وقررهم وقال لهم : ألست بربكم ؟ وكأنهم قالوا : بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك ، وباب التمثيل واسع فى كلام الله - تعالى - وفى كلام رسوله - صلى الله عليه وسلم - وفى كلام العرب . ونظيره قوله - تعالى - « إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » وقوله « فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها ، قالتا أتينا طائعين » . ومعلوم أنه لاقول ثم وإنما تمثيل وتصوير للمعنى » (١) .

والمقصود من الآية الكريمة الاحتجاج على المشركين بمعرفتهم ربوبيته - تعالى - معرفة فطرية لازمة لهم لزوم الاقرار منهم والشهادة . قال - تعالى - : « فأقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله » .

والفطرة هى معرفة ربوبيته - سبحانه - :

وقد وردت أحاديث كثيرة تشهد بأن الناس قد فطرهم الله - تعالى - على معرفته ، ومن ذلك ما جاء فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : ما من مولود الا يولد على الفطرة ، فأبواه يهودانه

---

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٧٧ .

أو ينصرانه أو يمجسانه ، كما تنتج البهيمة جمعاء — أى سالمة الإذن — هل تحسون فيها من جدعاء — أى مقطوعة الأذن .

وفى صحيح مسلم عن عياض بن حمار قال : قال رسول الله — صلى الله عليه وسلم — : يقول الله — تعالى — إنى خلقت عبادى حنفاء، فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم — أى صرفتهم عن دينهم — وحرمت عليهم ما أحللت لهم » .

وروى الطبرى عن الحسن الأسود بن سريع قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل نسمة تولد على الفطرة حتى يعرب عنها لسانها فأبواها يهودانها أو ينصرانهـــا » . وبذلك يتبين لنا أن المعنى الإجمالى للآية الكريمة أن الله — تعالى — نصب للناس فى كل شىء من مخلوقاته — ومنها أنفسهم — دلائل توحيده وربوبيته . وركز فيهم عقولا وبصائر يتمكنون بها تمكنا تاما من معرفته والاستدلال بها على التوحيد والربوبية حتى صاروا بمنزلة من إذا دعى إلى الايمان بها سارع اليه بدون شك أو تردد .

فالكلام على سبيل المجاز التمثيلى لكون الناس قد فطرهم الله — تعالى — على معرفته والايمان به، وجعلهم مستعدين جميعا للنظر المؤدى إلى الاعتراف بوحدانيته ، ولا إخراج للذرية ولا قول ولا إشهاد بالفعل .

وعلى هذا الرأى سار المحققون من مفسرى السلف والخلف :

ويرى بعض المفسرين ، أن معنى الآية الكريمة : أن الله — تعالى — مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته كالذر، وأحياهم وجعل لهم العقل والنطق، وألهمهم ذلك الاقرار ، ثم أعادهم إلى ظهر أبيهم آدم ، واستشهدوا لذلك بأحاديث وآثار ليست صحيحة الاسناد ، وما حسن إسناده منها فقد أوله العلماء بما يتفق مع منطوق الآية الكريمة .

وقد رد أصحاب الرأى الأول على هذا البعض بردود منها : أن الله — تعالى قال : « وإذ أخـــذ ربك من بنى آدم » ولم يقل من آدم ، وقال « من ظهورهم »

ولم يقل من ظهره ، وقال « ذريتهم » ولم يقل ذريته . قال « إنما أشرك آباؤنا » ولم يكن لهم يومئذ أب مشرك ، لأن آدم حاشاه من الشرك بالله ـ تعالى :

قال الامام ابن كثير بعد أن ساق عدداً كبيراً من الأحاديث فى هذا المعنى : ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهذا الاشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد كما تقدم فى حديث أبى هريرة وعياض والأسود بن سريع وقد فسر الحسن الآية بذلك » (١)

ثم بين ـ سبحانه ـ سبب الاشهاد وعلله فقال : « أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » أى : فعلنا ما فعلنا كراهة أن تقولوا ، أو منعا من أن تقولوا يوم القيامة معتذرين عن شرككم : إنا كنا عن هذا الأمر وهو إفراد الله ـ تعالى ـ بالربوبية غافلين لم ننبه اليه ، لأنهم ما داموا قد خلقوا على الفطرة ، ونصب الله لهم فى كل شىء من مخلوقاته ما يدل على وحدانيته ، وجاءتهم الرسل فبشرتهم وأنذرتهم . فقد بطل عذرهم ، وسقطت حجتهم .

ثم بين ـ سبحانه ـ سببا آخر لهذا الاشهاد فقال : « أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم .

أى . وفعلنا ذلك ـ أيضا منعا لكم من أن تقولوا يوم الحساب : إن آباءنا هم الذين سنوا هذا الاشراك وساروا عليه فنحن قد اتبعناهم فى ذلك بمقتضى أننا أبناؤهم . ونتبع نهجهم من بعدهم ، فإن قولكم هذا غير مقبول بعد أن هيأ الله لكم من الأسباب ما يفتح قلوبكم لنور الحق لو كنتم مستعدين لقبوله .

والاستفهام فى قوله « أفتهلكنا بما فعل المبطلون » للإنكار . أى : أنت يا ربنا حكيم وعادل فهل تؤاخذنا بما فعل آباؤنا من الشرك وأسسوا من الباطل أو بفعل آبائنا الذين أبطلوا تأثير العقول وأقوال الرسل؟ إنك يا ربنا قد وعدت

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٦٤

أنك لا تأخذ الأبناء بفعل الآباء ونحن قد سلكنا طريقهم والحجة عليهم بما شرعوا لنا من الباطل فكيف تؤاخذنا ؟

والجواب على ذلك أن الإقرار بالربوبية والتوحيد هو فى أصل فطرتكم فلم لم ترجعوا اليه عند ما دعاكم رسولنا الكريم إلى وحدانية الله ونبذ الشركاء إن انقيادكم للآباء بعد أن وهبكم الله العقول المفكرة ، وأرسل اليكم الرسل مبشرين ومنذرين لن يعفيكم من المسئوليه ، ولن ينقذكم من العذاب .

ثم قال — تعالى — وكذلك نفصل الآيات ولعلهم يرجعون » أى : ومثل هذا التفصيل البليغ نفصل لبنى آدم الآيات والدلائل ليستعملوا عقولهم ، ولعلهم يرجعون إلى فطرتهم وما استكن فيها من ميثاق ، وإلى خلقتهم وما كمن فيها من ناموس . فالرجوع إلى الفطرة القويمة كفيل بغرس عقيدة التوحيد فى القلوب ، وردها إلى بارئها الواحد القهار الذى فطرها على الحق ، وصرفها عن الجهل والتقليد .

هذا ، وقد أخذ العلماء من هذه الآيات أمورا من أهمها :

١ — فساد التقليد فى الدين ، وأنه — تعالى — قد أزاح العذر ، وأزال العلل بحيث أصبح لا يعذر احد بكفره أو شركه .

٢ — أن معرفته — تعالى — فطرية ضرورية . قال — تعالى — « ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله » .

وروى الترمذى عن عمران بن الحصين قال : قال النبى — صلى الله عليه وسلم — لأبى : يا حصين كم إلها تعبد اليوم . قال أبى : سبعة ستا فى الأرض وواحدا فى السماء قال . فأيهم تعد لرغبتك ورهبتك . قال : الذى فى السماء .

فالله — تعالى — فطر الخلق كلهم على معرفة فطرة التوحيد ، حتى من خلق مجنونا لا يفهم شيئا ما يحلف إلا به . ولا يلهج لسانه بأكثر من اسمه المقدس (١)

ثم ضرب — سبحانه — مثلا لمن لا يعمل بعلمه فقال — تعالى — :

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٧ ص ٢٩٠٢ :

« وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ (١٧٥) وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا ، وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الْأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ ، فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ ، أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَثْ ، ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا ، فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) سَاءَ مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَأَنْفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ (١٧٧) » .

قال صاحب المنار : هذا مثل ضربه الله - تعالى للمكذبين بآيات الله المنزلة على رسوله محمد - صلى الله عليه وسلم - وهو مثل من آتاه الله آياته فكان عالما بها حافظا لقواعدها وأحكامها قادرا على بيانها والجدل بها، ولكنه لم يؤت العمل مع العلم ، بل كان عمله مخالفا تمام المخالفة لعلمه فسلب هذه الآيات. لأن العلم الذى لا يعمل به لا يلبث أن يزول فأشبه الحية التى تنسلخ من جلدها وتخرج منه وتتركه على الأرض ، أو كان فى التباين بين علمه وعمله كالمنسلخ من العلم التارك له ، كالثوب الخلق يلقيه صاحبه، والثعبان يتجرد من جلده حتى لا تبقى له به صلة على حد قول الشاعر :

خلقوا ، وما خلقوا لمكرمة   فكأنهم خلقوا وما خلقوا
رزقوا ، وما رزقوا سماح يد   فكأنهم رزقوا وما رزقوا

فحاصل معنى المثل: أن المكذبين بآيات الله المنزلة على رسوله مع إيضاحها بالحجج والدلائل كالعالم الذى حرم ثمرة الانتفاع من علمه، لأن كلا منهما لم ينظر فى الآيات نظر تأمل واعتبار وإخلاص . (١)

وقوله - تعالى - « واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها » أى : أقرأ على قومك يا محمد ليعتبروا ويتعظوا خبر ذلك الانسان الذى آتيناه آياتنا

(١) تفسير المنار جـ ٩ ص ٤٠٥

بأن علمناه إياها ، وفهمناه مراميها ، فانسلخ من تلك الآيات إنسلاخ الجلد من الشاة ، أو الحية من جلدها .

والمراد أنه خرج منها بالكلية بأن كفر بها ، ونبذها وراء ظهره ، ولم ينتفع بما اشتملت عليه من عظات وإرشادات .

وحقيقة السلخ كشط الجلد وإزالته بالكلية عن المسلوخ عنه ، ويقال لكل شيء فارق شيئا على أتم وجه انسلخ منه . وفى التعبير به مالا يخفى من المبالغة وقوله : « فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين » أى : فلحقه الشيطان وأدركه فصار هذا الإنسان بسبب ذلك من زمرة الضالين الراسخين فى الغواية ، مع أنه قبل ذلك كان من المهتدين :

وفى التعبير بقوله « فأتبعه الشيطان » مبالغة فى ذم هذا الإنسان وتحقيره ، جعل كأنه إمام للشيطان والشيطان يتبعه ، فهو على حد قول الشاعر :

وكان فتى من جند إبليس فارتقى ... به الحال حتى صار إبليس من جنده

قال الجمل : أتبعه فيه وجهان : أحدهما : أنه متعد لواحد بمعنى أدركه ولحقه ، وهو مبالغة فى حقه حيث جعل إماما للشيطان . وثانيهما أن يكون متعديا لاثنين لأنه منقول بالهمزة من تبع ، والمفعول الثانى محذوف تقديره : فأتبعه الشيطان خطواته ، أى جعله تابعا لها : ومن تعديته لاثنين قوله - تعالى - « اتبعناهم ذرياتهم بإيمان »[1] .

وقوله « ولو شئنا لرفعناه بها » كلام مستأنف مسوق لبيان ما ذكر من الإنسلاخ وما يتبعه .

والضمير فى قوله « لرفعناه » يعود إلى الشخص المعبر عنه بالاسم الموصول « الذى » ، والضمير فى قوله « بها » يعود إلى الآيات . ومفعول المشيئة محذوف أى : ولو شئنا رفعه بسبب تلك الآيات إلى درجات الكمال والعرفان لرفعناه ، لأننا لا يستعصى على قدرتنا شيء ، ولكننا لم نفعل ذلك لأن سنتنا

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢١١ .

جرت أن نرفع من عنده الاستعداد لذلك أما الذين استحبوا العمى على الهدى فنذرهم فى ضلالهم يعمهون .

وقد بين القرآن هـذا المعنى فى قوله : « ولـكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، أخلد إلى الأرض : أى ركن إليها . وأصل الإخلاد اللزوم للمـكان من الخلود .

أى : ولو شئنا لرفعنا هذا الإنسان إلى منازل الأبرار بسبب تلك الآيات ولـكنه هو الذى ركن إلى الدنيا ، واطمأن بها ، واستحوذت بشهواتها على نفسه ، واختار لنفسـه طريق التسفل المنافى للرفعة ، واتبع هواه فى ذلك فلم ينتفع بشىء من الآيات التى آتيناه إياها .

أى : أن مقتضى هذه الآيات أن ترفع صاحبها إلى أعلى عليين ، ولـكن هذا المقتضى عارضه مانع وهو إخلاد من أوتى هذه الآيات إلى الأرض واتباعه للهوى ، فتغلب المانع على المقتضى ، فهو كما قال القائل :

قالوا فلان عالم فاضـــل ... فأكرموه مثلما يقتضى

فقلت : لما لم يكن عاملا ... تعارض المانع والمقتضى

قال الآلوسى : وما ألطف نسبة إتيان الآيات والرفع إليه - تعالى - ونسبة الانسلاخ والإخلاد إلى العبد ، مع أن الكل من الله - تعالى - ، إذ فيه من تعليم العباد حسن الأدب مافيه . ومن هنا قال - صلى الله عليه وسلم -: اللهم إن الخير بيديك والشر ليس إليك[1] » .

وقوله « فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث » .

اللهث : إدلاع اللسان بالنفس الشديد . يقال : لهث الكلب يلهث - كسمع ومنع - لهثا ولهاثا ، إذا أخرج لسانه فى التنفس .

والمعنى : فمثل هذا الإنسان الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها وأصبح إيتاء الآيات وعدمها بالنسبة له سواء ، مثله كمثل الكلب إن شـددت عليه وأتبعته

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١١٤ .

لهث ، وإن تركته على حاله لهث — أيضا — ، فهو دائم اللهث فى الحالين . لأن اللهث طبيعة فيه ، وكذلك حال الحريص على الدنيا ، المعرض عن الآيات بعد إيتائها ، إن وعظته فهو لإيثاره الدنيا على الآخرة لا يقبل الوعظ ، وإن تركت وعظه فهو حريص — أيضا — على الدنيا وشهواتها .

والإشارة فى قوله « ذلك مثل القوم » إلى وصف الكلب أو إلى المنسلخ من الآيات ، أى : ذلك المثل البعيد الشأن فى الغرابة مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا من الجاحدين المستكبرين المنسلخين عن الهدى بعد أن كان فى حوزتهم .

وقوله « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » أى : إذا ثبت ذلك ، فاقصص على قومك أيها الرسول الكريم المقصوص عليك من جهتنا لعلهم يتفكرون فينزجرون عما هم عليه من الكفر والضلال .

والفاء فى قوله « فاقصص » لترتيب ما بعدها على ما قبلها . والقصص مصدر بمعنى اسم المفعول ، واللام فيه للعهد ، وجملة الترجى فى محل نصب على أنها حال من ضمير المخاطب أو فى موضع المفعول له . أى فاقصص القصص راجيا لتفكرهم ، أو رجاء لتفكرهم .

وقوله : « ساء مثلا القوم الذين كذبوا بآياتنا » إستئناف مسوق لبيان كمال قبحهم بعد البيان السابق . و « ساء » بمعنى بئس وفاعلها مضمر ، و « مثلا » تمييز مفسر له ، والمخصوص بالذم قوله — تعالى — « القوم الذين كذبوا بآياتنا » .

أى : ساء مثلا مثل أولئك القوم الذين كذبوا بآياتنا حيث شبهوا بالكلاب إما فى استواء الحالتين فى النقصان وأنهم ضالون وعظوا أم لم يوعظوا ، وإما فى الخسة ، فإن الكلاب لا همة لها إلا فى تحصيل أكلة أو شهوة ، فمن خرج عن خير الهدى والعلم وأقبل على هواه صار شبيها بالكلب ، وبئس المثل مثله ولهذا ثبت فى الصحيحين عن ابن عباس أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « ليس لنا مثل السوء . العائد فى هبته كالكلب يعود فى قيئه » .

وقوله « وأنفسهم كانوا يظلمون » معطوف على « كذبوا » داخل معه في حكم الصلة بمعنى أنهم جمعوا بين أمرين قبيحين : التكذيب وظلمهم أنفسهم أو منقطع عنه بمعنى وما ظلموا إلا أنفسهم وحدها بارتكابهم تلك الموبقات والخطيئات . فإن العقوبة لا تقع إلا عليهم لا على غيرهم .

هذا . والذي ذهب إليه المحققون من العلماء أن هذه الآيات الكريمة المثل فيها مضروب لكل إنسان أوتي علما ببعض آيات الله ، ولكنه لم يعمل بمقتضى علمه ، بل كفر بها ونبذها وراء ظهره وصار هو والجاهل سواء .

وقيل : إن الآيات الكريمة واردة في شخص معين ، واختلفوا في هذا المعين .

فبعضهم قال إنها في أمية بن أبي الصلت ، فإنه كان قد قرأ الكتب ، وعلم أن الله مرسل رسولا وتمنى أن يكون هو هذا الرسول ، فلما أرسل الله ـ تعالى ـ نبيه محمداً ـ صلى الله عليه وسلم ـ حسده ومات كافراً .

وبعضهم قال : نزلت في أبي عامر الراهب الذي سماه النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ « الفاسق » كان يترهب في الجاهلية فلما جاء الإسلام خرج إلى الشام ، وأمر المنافقين باتخاذ مسجد الضرار والشقاق .

وبعضهم قال : إنها في منافقي أهل الكتاب ، كانوا يعرفون صفة النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ ومخرجه ، فلما بعثه الله ـ تعالى ـ كفروا به .

وبعضهم قال : إنها نزلت لتحكي قصة رجل من علماء اليهود اسمه بلعم ابن باعوراء أوتي علم بعض كتب الله ثم انسلخ منها بأن كفر بها ونبذها بعد أن رشاه اليهود .

والذي نراه أن الرأي الأول الذي عليه المحققون من المفسرين هو الراجح ، وأن هؤلاء الذين ذكروا يندرجون تحته ، لأنه لم يرد نص صحيح يعين

اسم الذى وردت الآيات فى حقه ، فوجب أن نحملها على أنها واردة فى شأن كل من علم الحق فأعرض عنه واتبع هواه .

ثم يعقب القرآن على هذا المثل ببيان أن الهداية والضلال من الله ، وأن هناك أقواماً من الجن والإنس قد خلقوا لجهنم بسبب إيثارهم طريق الشر على طريق الخير قال — تعالى — :

« مَنْ يَهْدِ اللهُ فهوَ المُهْتَدِى ، وَمَنْ يُضْلِلْ فأُولئِكَ هُمُ الْخاسِرُونَ (١٧٨) وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهاَ ، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِها ، وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بهاَ ، أُولئِكَ كالأنعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولئِكَ هُمُ الغَافِلُونَ (١٧٩) » .

قوله « من يهد الله فهو المهتدى » أى : من يوفقه الله - تعالى - إلى سلوك طريق الهدى باستعمال عقله وحواسه بمقتضى سنة الفطرة فهو المهتدى حقاً ، الواصل إلى رضوان الله صدقاً .

« ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون » أى : ومن يخذله - سبحانه - بالحرمان من هذا التوفيق بسبب إيثاره السير فى طريق الهوى والشيطان على طريق الهدى والإيمان ، فأولئك هم الخاسرون لدنياهم وآخرتهم .

وأفرد - سبحانه - المهتدى فى الجملة الأولى مراعاة للفظ « من » ، وجمع الخاسرين فى الثانية مراعاة لمعناها فإنها من صيغ العموم .

وحكمة إفراد المهتدى للإشارة إلى أن الحق واحد لايتعدد ولا يتنوع ، وحكمة جمع الثانى وهو قوله « الخاسرون » للإشارة إلى تعدد أنواع الضلال، وتنوع وسائله وأساليبه .

وقوله « ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن » كلام مستأنف مقرر لمضمون ما قبله ومفصل له .

و « الذرأ » الخلق . يقال : ذرأ الله خلقه يذرأهم ذرءاً ، أى : خلقهم . واللام فى « لجهنم » للعاقبة والصيرورة .

أى : ولقد خلقنا لدخول جهنم والتعذيب بها كثيراً من الجن والانس وهم الكفار المعرضون عن الآيات وتدبرها ، الذين علم الله منهم أزلا إختيارهم الكفر فشاءه منهم وخلقه فيهم وجعل مصيرهم النار لذلك .

ثم بين - سبحانه - صفاتهم التى أدت بهم إلى هذا المصير السيء فقال . « لهم قلوب لا يفقهون بها » أى : لا يفقهون بها الآيات الهادية إلى الكمالات مع أن دلائل الايمان مبثوثة فى ثنايا الكون تدركها القلوب المتفتحة ، والبصائر المستنيرة .

وجملة « لهم قلوب » فى محل نصب صفة أخرى لقوله « كثيراً » وجملة « لا يفقهون بها » فى محل رفع صفة لقلوب .

وقوله « ولهم أعين لا يبصرون بها » أى : لهم أعين لا يبصرون بها ما فى هذا الكون من براهين تشهد بوحدانية الله ، مع أنها معروضة للأبصار مكشوفة للأنظار ، فهم كما قال - تعالى - ، « وكأين من آية فى السموات والأرض يمرون عليها وهم عنها معرضون » فهم لهم أعين ترى وتبصر ولكن بدون تأمل أو إعتبار ، فكأن وجودها وعدمه سواء .

وقوله « ولهم آذان لا يسمعون بها » أى : لا يسمعون بها الآيات والمواعظ سماع تدبر وإتعاظ ، أى أنهم لا ينتفعون بشيء من هذه الجوارح التى جعلها الله سببا للهداية .

قال صاحب الكشاف : « هم المطبوع على قلوبهم الذين علم الله أنه لا لطف لهم : وجعلهم فى أنهم لا يلقون أذهانهم إلى معرفة الحق ، ولا ينظرون بأعينهم إلى ما خلق الله نظر اعتبار ، ولا يسمعون ما يتلى عليهم من آيات سماع تدبر كأنهم عدموا فهم القلوب ، وإبصار العيون واستماع الآذان ، وجعلهم لإعراقهم

فى الكفر وشدة شكائمهم فيه ، وأنه لا يأتى منهم إلا أفعال أهل النار مخلوقين للنار ، دلالة على توغلهم فى الموبقات ، وتوغلهم فيما يؤهلهم لدخول النار »[1].

وقوله « أولئك كالأنعام » أى : أولئك الموصوفون بتلك الصفات المذكورة كالأنعام السارحة التى لا تنتفع بشىء من هذه الجوارح التى جعلها الله سبباً للهداية .

وقوله « بل هم أضل » تنقيص لهم عن رتبة الأنعام ، أى : بل هم أسوأ حالا من الأنعام ، إذ أن الأنعام ليس لها سوى الاستعدادات الفطرية التى تهديها أما الإنسان فقد زود إلى جانب الفطرة بالقلب الواعى ، والعقل المدرك ، والعين المبصرة ، وزود بالقدرة على اتباع الهدى أو اتباع الضلال ، فإذا لم يفتح بصره وقلبه وسمعه على الحق فإنه يكون أضل من الأنعام الموكولة إلى استعداداتها الفطرية .

وقوله « أولئك هم الغافلون » أى أولئك المنعوتون بما ذكرهم الكاملون فى الغفلة عما فيه صلاحهم وخيرهم وسعادتهم ، بسبب إستحواذ الهوى والشيطان عليهم ولا يظلم ربك أحدا .

وبعد أن بين – سبحانه – حال المخلوقين لجهنم بسبب غفلتهم وإهمالهم لعقولهم وحواسهم ، أعقبه ببيان العلاج الذى يشفى من ذلك ، وبالنهى عن اتباع المائلين عن الحق فقال – تعالى – :

« وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا ، وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِى أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٨٠) » .

قال القرطبى : قوله – تعالى – « ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها » أمر بإخلاص العبادة لله – تعالى – ومجانبة الملحدين والمشركين . قال مقاتل وغيره

---

(١) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٧٩

من المفسرين : نزلت الآية فى رجل من المسلمين كان يقول فى صلاته : يارحمن يا رحيم . فقال رجل من مشركى مكة : أليس يزعم محمد وأصحابه أنهم يعبدون ربا واحداً فما بال هذا يدعو ربين اثنين ؟ فنزلت »(١) .

والأسماء : جمع اسم ، وهو اللفظ الدال على الذات فقط أو على الذات مع صفة من صفاتها سواء كان مشتقا كالرحمن ، والرحيم ، أو مصدراً كالرب والسلام .

والحسنى : تأنيث الأحسن أفعل تفضيل ، ومعنى ذلك أنها أحسن الأسماء وأجلها ، لأنبائها عن أحسن المعانى وأشرفها .

والمعنى : ولله ـ تعالى ـ وحده جميع الأسماء الدالة على أحسن المعانى وأكمل الصفات فادعوه أى سموه واذكروه ونادوه بها .

روى الشيخان عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : إن لله تسعة وتسعين اسماً من حفظها دخل الجنة والله وتر يحب الوتر » .

قال الآلوسى : والذى أراه أنه لا حصر لأسمائه ـ عزت أسماؤه ـ فى التسعة والتسعين ، ويدل على ذلك ما أخرجه البيهقى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « من أصابه هم أو حزن فليقل : اللهم إنى عبدك وابن عبدك وابن أمتك ، ناصيتى فى يدك ماض فى حكمك ، عدل فى قضائك ، أسألك بكل اسم هو لك سميت به نفسك ، أو أنزلته فى كتابك ، أو علمته أحداً من خلقك أو استأثرت به فى علم الغيب عندك ، أن تجعل القرآن ربيع قلبى ونور صدرى وذهاب همى وجلاء حزنى ... الخ » فهذا الحديث صريح فى عدم الحصر .

---

(١) تفسير القرطبي ج ٧ ص ٣٢٥

وحكى النووى إتفاق العلماء على ذلك وأن المقصود من الحديث الإخبار بأن هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة ، وهو لا يتنافى أن له -تعالى- أسماء غيرها ، (١)

ثم قال - تعالى - « وذروا الذين يلحدون فى أسمائه سيجزون ما كانوا يعملون » .

ذروا : فعل أمر لم يرد فى اللغة إستعمال ماضيه ولا مصدره ، وهو بمعنى الترك والإهمال .

ويلحدون من الإلحاد وهو الميل والانحراف ، يقال : ألحد إلحادا إذا مال عن القصد والاستقامة ، وألحد فى دين الله : حاد عنه ، ومنه لحد القبر لأنه يمال بحفره إلى جانبه بخلاف الضريح فإنه يحفر فى وسطه .

والمعنى : ولله - تعالى - أشرف الأسماء وأجلها فسموه بها أيها المؤمنون، واتركوا جميع الذين يلحدون فى أسمائه - سبحانه - بالميل بألفاظها أو معانيها عن الحق من تحريف أو تأويل أو تشبيه أو تعطيل أو ما ينافى وصفها بالحسنى اتركوا هؤلاء جميعا فإنهم سيلقون جزاء عملهم من الله رب العالمين .

ومن مظاهر إلحاد الملحدين فى أسمائه - تعالى - تسمية أصنامهم بأسماء مشتقة منها ، كاللات : من الله - تعالى - ، والعزى : من العزيز ، ومناة : من المنان وتسميته - تعالى - بما يوهم معنى فاسدا ، كقولهم له - سبحانه - : يا أبيض الوجه كذلك من مظاهر الإلحاد فى أسمائه - تعالى - ، تسميته بما لم يسم به نفسه فى كتابه ، أو فيما صح من حديث رسوله ، إلى غير ذلك مما يفعله الجاهلون والضالون .

ثم تمضى السورة الكريمة فى هديها وتوجيهها فتفصل صنوف الخلق ، وتمدح من يستحق المدح وتذم من يستحق الذم فتقول :

(١) تفسير الآلوسى ج ٩ ص ١٢٣ .

« وَمِمَّنْ خَلَقْنَا أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وبِهِ يَعْدِلُونَ (١٨١) وَالَّذِينَ كَذَّبوا بِآياتِنا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ (١٨٢) وَأُمْلِي لَهُمْ إنَّ كَيْدِي مَتِينٌ (١٨٣) أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا، ما بِصَاحِبِهِمْ مِنْ جِنَّةٍ إنْ هُوَ إلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (١٨٤) أَوَ لَمْ يَنْظُروا فى مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالأرْضِ ومَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وأَنْ عَسَى أنْ يَكُونَ قد اقْتَرَبَ أجَلُهُم فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤمِنُونَ (١٨٥) مَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلاَ هَادِيَ لَهُ ، ويَذَرُهُمْ فى طُغْيَانِهِم يَعْمَهُونَ (١٨٦) » .

وقوله « وممن خلقنا أمـــة يهدون بالحق وبه يعدلون» معطوف على قوله « ولقد ذرأنا .. » قبل ذلك ، لأن كلتيهما تفصيل لإجمال قوله - تعالى - « من يهد الله فهو المهتدى . . . »

أى : وممن خلقنا للجنة ، لأنه فى مقابلة « ولقد ذرأنا لجهنم » أمة يهدون بالحق ، أى : يدعون إليه ويسيرون عليه ، وبه يعـــدلون أى : به يقضون وينصفون الناس .

وقد وردت آثار تفيد أن المراد بهذه الأمة: الأمة المحمدية ففى الصحيحين عن معاوية بن أبى سفيان قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - «لا تزال طائفة من أمتى على الحق ظاهرين لا يضرهم من خالفهم حتى تقوم الساعة ،وفى رواية : « حتى يأمر الله وهم على ذلك » :

وقال قتادة : بلغنا أن النبى - صلى الله عليه وسلم - كان إذا قرأ هذا الآية يقول : هذه لكم ، وقد أعطى القوم بين أيديكم مثلها .

وعن الربيع بن أنس - فى هذه الآية - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إن من أمتى قوما على الحق حتى ينزل عيسى بن مريم متى ما نزل » .

وقد استدل بعض العلماء بهذه الآية على أن الإجماع حجة فى كل عصر، وعلى أنه لا يخلو عصر من مجتهد إلى قيام الساعة.

ثم ذكر - سبحانه - حال المكذبين فقال. «والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجهم من حيث لا يعلمون».

الاستدراج: - كما قال القرطبى - هو الأخذ بالتدريج منزلة بعد منزلة. والدرج لف الشىء، يقال: أدرجته ودرجته. ومنه أدرج الميت فى أكفانه. وقيل: هو من الدرجة، فالاستدراج أن يحط درجة بعد درجة إلى المقصود. قال الضحاك: كلما جددوا لنا معصية جددنا لهم نعمة»[1].

وقال صاحب الكشاف: الاستدراج: استفعال من الدرجة بمعنى الاستصعاد أو الاستنزال درجة بعد درجة، ومنه: درج الصبى إذا قارب بين خطوه، وأدرج الكتاب. طواه شيئا بعد شىء، ودرج القوم: مات بعضهم فى أثر بعض. ومعنى «سنستدرجهم» سنستدنيهم قليلا قليلا إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم. «من حيث لا يعلمون» ما يراد بهم. وذلك أن يواتر الله نعمه عليهم مع انهماكهم فى الغى، فكلما جدد عليهم نعمة، ازدادوا بطرا وجددوا معصية، فيتدرجون فى المعاصى بسبب ترادف النعم، ظانين أن مواترة النعم محبة من الله وتقريب. وإنما هى خذلان منه وتبعيد، فهو استدراج من الله - تعالى - نعوذ بالله منه»[2].

وقد قيل: إذا رأيت الله - تعالى - أنعم على عبد وهو مقيم على معصيته فاعلم أنه مستدرج.

وقوله: «وأملى لهم إن كيدى متين» الإملاء: الإمداد فى الزمن والإمهال

---

(١) تفسير القرطبى ج ٧ ص ٣٢٩.
(٢) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٨٢.

والتأخير ، مشتق من الملاوة والملوة ، وهى الطائفة الطويلة من الزمن .
والملوان : الليل والنهار .

ويقال : أملى له إذا أمهله طويلا ، وأملى للبعير : إذ أرخى له فى الزمام ووسع له فى القيد ليتسع المرعى ،

والكيد كالمكر ، وهو التدبير الذى يقصد به غير ظاهره بحيث ينخدع المكيد له بمظهره فلا يفطن له حتى ينتهى إلى ما يسوءه من مخبره وغايته .
وإضافته إلى الله - تعالى — يحمل على المعنى اللائق به ، كإبطال مكر أعدائه أو إمدادهم بالنعم ثم أخذهم بالعذاب .

ومتين : من المتانة بمعنى الشدة والقوة . ومنه المتن للظهر أو للحم الغليظ

والمعنى . والذين كذبوا بآياتنا سنستدنيهم قليلا قليلا إلى ما يهلكهم ويضاعف عقابهم بكثرة النعم بين أيديهم ، حتى يفاجئهم الهلاك من حيث لا يعلمون أن صنعنا هذا معهم هو لون من الإستدراج ، وأمهل لهؤلاء المكذبين المستدرجين فى العمر ، وأمد لهم فى أسباب الحياة الرغدة ، إن كيدى شديد متين لايدافع بقوة ولا بحيلة . وفى الحديث الشريف الذى رواه الشيخان عن أبى موسى أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » .

وقوله « وأملى لهم » جوز بعضهم أن يكون خبرا لمبتدأ محذوف أى : وأنا أملى لهم . وقيل هو معطوف على قوله « سنستدرجهم » ، وقيل هو مستأنف

ثم أمر — سبحانه — هؤلاء الظالمين بالتفكر والتدبر فقال : « أولم يتفكروا ، ما بصاحبهم من جنة ، إن هو إلا نذير مبين »

الهمزة للانكار والتوبيخ ، وهى داخلة على فعل حذف للعلم به من سياق القول ، والواو للعطف على مقدر يستدعيه المقام .

والجنة : مصدر كالجلسة بمعنى الجنون . وأصل الجن الستر عن الحاسة .

والمعنى: أكذب هؤلاء الظالمون رسولهم - صلى الله عليه وسلم - ولم يتفكروا فى أنه ليس به أى شىء من الجنون، بل هو أكمل الناس عقلا، وأسدهم رأيا، وأنقاهم نفساً.

والتعبير « بصاحبهم » للايذان بأن طول مصاحبتهم له مما يطلعهم على نزاهته عما إتهموه به، فهو - صلى الله عليه وسلم - قد لبث فيهم قبل الرسالة أربعين سنة كانوا يلقبونه فيها بالصادق الأمين، ويعرفون عنه أسمى ألوان الإدراك السليم والتفكير المستقيم.

قال الجمل: وجملة « مابصاحبهم من جنة » فى محل نصب معمولة ليتفكروا فهو عامل فيها محلا لا لفظا لوجود المعلق له عن العمل وهو ما النافية.

ويجوز أن يكون الكلام قد تم عند قوله « أو لم يتفكروا » ثم إبتداء كلاما آخر إما استفهام إنكار وإما نفياً. ويجوز أن تكون « ما » استفهامية فى محل الرفع بالإبتداء والخبر بصاحبهم. والتقدير: أى شىء استقر بصاحبهم من الجنون » [1].

وقوله « إن هو الا نذير مبين » بيان لوظيفته - صلى الله عليه وسلم - أى: ليس بمجنون كما زعمتم أيها المشركون وإنما هو مبالغ فى الإنذار، مظهر له غاية الإظهار. فهو لا يقصر فى تخويفكم من سوء عاقبة التكذيب، ولا يتهاون فى نصيحتكم وإرشادكم الى ما يصلح من شأنكم.

ثم دعاهم القرآن الى النظر والاستدلال العقلى فقال: « أو لم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ».

الملكوت: هو الملك العظيم زيدت فيه اللام والتاء للمبالغه كما فى جبروت والجملة الكريمة مسوقة لتوبيخهم على اخلالهم بالتأمل فى الآيات التكوينية اثر تقريعهم على عدم تفكرهم فى أمر نبيهم - صلى الله عليه وسلم -،

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢١٥

أى : أكذبوا ولم يتفكروا فى شأن رسولهم - صلى الله عليه وسلم - وما هو عليه من كمال العقل ، ولم ينظروا نظر تأمل وإعتبار وإستدلال فى ملكوت السموات من الشمس والقمر والنجوم وغيرها ، وفى ملكوت الأرض من البحار والجبال والدواب وغيرها ، ولم ينظروا كذلك فيما خلق الله مما يقع عليه إسم الشيء من أجناس لا يحصرها العدد ولا يحيط بها الوصف مما يشهد بأن لهذا الكون خالقا قادرا هو المستحق وحده للعبادة والخضوع .

وقوله « من شيء » بيان « لما » وفى ذلك تنبيه على أن الدلالة على التوحيد غير مقصورة على السموات والأرض ، بل كل ذرة من ذرات العالم دليل على توحيده .

وقوله : « وأن عسى أن يكون قد إقترب أجلهم » فى محل جر معطوف على ما قبله ، و « أن » مخففة من الثقيلة واسمها ضمير الشأن ، وخبرها عسى مع فاعلها الذى هو « أن يكون » .

والمعنى : أو لم ينظروا - أيضا - فى إقتراب آجالهم ، وتوقع حلولها فيسارعوا إلى طلب الحق والتوجه إلى ما ينجيهم قبل مفاجأة الموت لهم ونزول العذاب بهم وهم أتعس حال .

إنهم لو تفكروا فى أمر رسولهم - صلى الله عليه وسلم - ولو نظروا فيما خلق الله من مخلوقات بعين التدبر والاتعاظ ، لآمنوا وهدوا إلى صراط العزيز الحميد .

وقوله : « فبأى حديث بعده يؤمنون » أى : إذا لم يؤمنوا بالقرآن وهو أكمل كتب الله بيانا ، وأقواها برهانا ، فبأى كلام بعده يؤمنون ؟

والجملة الكريمة مسوقة للتعجب من أحوالهم . والقطع أى أمل فى إيمانهم لأنهم ما داموا لم يؤمنوا بهذا الرسول المؤيد بالمعجزات ، وبهذا الكلام المعجز الجامع لكل ما يفيد الهداية ، فأحرى بهم ألا يؤمنوا بغير ذلك .

ثم عقب القرآن على هذا التوبيخ والتهديد للمشركين بقوله : « من يضلل الله فلا هادى له ، ويذرهم فى طغيانهم يعمهون » .

أى : من يرد الله إضلاله بسبب اختياره للضلالة ، وصممه عن الاستماع للحق فلا قدرة لأحد على هدايته ، وهو - سبحانه - يترك هؤلاء الضالين فى فى طغيانهم متحيرين مترددين .

ثم بينت السورة الكريمة أن أمر الساعة مرده إلى الله - تعالى - ، وأن السائلين عن وقتها من الأحسن لهم أن يستعدوا لها بدل أن يكثروا من السؤال عن زمن مجيئها فقالت :

« يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلاَّ هُوَ ثَقُلَتْ فِى السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ لا تَأْتِيكُمْ إِلاَّ بَغْتَةً ، يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ، قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللّٰهِ وَلٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (١٧٨) قُلْ لا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلا ضَرًّا إِلاَّ مَا شَاءَ اللّٰهُ ، وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ إِنْ أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١٨) » .

قال الآلوسى : عن ابن عباس أن قوماً من اليهود قالوا : يامحمد ، أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً ، فإنا نعلم متى هى ، وكان ذلك امتحانا منهم ، مع علمهم أن الله - تعالى - قد استأثر بعلمها . وأخرج ابن جرير عن قتادة أن جماعه من قريش قالوا : يامحمد أسر إلينا متى الساعة لما بيننا وبينك من القرابة فنزلت »[1] .

---

(١) تفسير الآلوسى جـ ٩ ص ١٣٢ .

وقوله : « يسألونك عن الساعة أيان مرساها » استئناف مسوق لبيان بعض أنواع ضلالهم وطغيانهم ،

والساعة فى الأصل اسم لمدار قليل من الزمان غير معين ، وتطلق فى عرف الشرع على يوم القيامة وهو المراد بالسؤال هنا .

وأطلق على يوم القيامة ساعة إما لوقوعه بغتة ، أو لسرعة مافيه من الحساب ، أو لأنه على طوله قدر يسير عند الله - تعالى - ،

و « أيان » ظرف زمان متضمن معنى متى . و « مرساها » مصدر ميمى من أرساه إذا اثبته وأقره ، ولا يكاد يستعمل الإرساء إلا فى الشيء الثقيل كما فى قوله - تعالى - « والجبال أرساها » ونسبته هنا إلى الساعة باعتبار تشبيه المعانى بالأجسام . و « أيان » خبر مقدم و « مرساها » مبتدأ مؤخر .

والمعنى : يسألك يامحمد هؤلاء القوم عن الساعة قائلين أيان مرساها ؟ أى متى إرساؤها واستقرارها ، أو متى زمن مجيئها وحصولها ؟

وقوله « قل إنما علمها عند ربى » جواب عن سؤالهم : أى : قل أيها الرسول الكريم : علم الساعة أو علم قيامها عند ربى وحده ليس عندى ولا عند غيرى من الخلق شيء منه .

والتعبير بإنما المفيد للحصر للاشعار بأنه - سبحانه - هو الذى استأثر بعلم ذلك ولم يخبر أحدا به من ملك مقرب أو نبى مرسل .

وقوله « لايجليها لوقتها إلا هو » بيان لاستمرار إخفائها إلى حين قيامها وإقناط كلى عن إظهار أمرها بطريق الإخبار .

والتجلية : الكشف والإظهار . يقال : جلى لى الأمر وانجلى وجلاه تجلية بمعنى : كشفه وأظهره أتم الاظهار .

والمعنى : لا يكشف الحجاب عن خفائها ، ولا يظهرها للناس فى الوقت الذى يختاره إلا الله وحده .

قال بعضهم : والسبب فى إخفاء الساعة عن العباد لكى يكونوا دائما على حذر ، فيكون ذلك أدعى للطاعة وأزجر عن المعصية ، فإنه متى علمها المكلف ربما تقاصر عن التوبة وأخرها .

ثم عظم - سبحانه - أمر الساعة فقال « ثقلت فى السموات والأرض » أى: كبرت أو شقت على أهلهما لخوفهم من شدائدها وأهوالها وما فيها من محاسبة ومجازاة ، وعن السدى : أن من خفى عليه علم شىء كان ثقيلا عليه .
أو المعنى : ثقلت عند الوقوع على نفس السموات حتى إنشقت وانتثرت نجومها وكورت شمسها ، وعلى نفس الأرض حتى سيرت جبالها ، وسجرت بحارها ، وقوله : « لا تأتيكم إلا بغتة » أى : لا تأتيكم إلا فجأة وعلى حين غفلة من غير توقع ولا إنتظار .
وقد وردت أحاديث متعدده تؤيد وقوع الساعة فجأة ، ومنها ما رواه الشيخان عن أبى هريرة أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: « لتقومن الساعة وقد نشر الرجلان ثوبهما بينهما فلا يتبايعانه ولا يطويانه . ولتقومن الساعة وقد انصرف الرجل بلبن لقحته - أى ناقته ذات اللبن - فلا يطعمه ولتقومن الساعة وهو يليط حوضه - أى يطليه بالجص أو الطين - فلا يسقى فيه . ولتقومن الساعة وقد رفع أحدكم أكلته إلى فمه فلا يطعمها » .

ثم قال - تعالى - « يسألونك كأنك حفى عنها قل إنما علمها عند الله ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .
أى : يسألونك يا محمد هذا السؤال كأنك حفى عنها أى : كأنك عالم بها . من حفى عن الشىء اذا بحث عن تعرف حاله بتتبع واستقصاء ومن بحث عن شىء وسأل عنه استحكم علمه به ، وعدى « حفى » بعن اعتباراً لأصل معناه ، وهو السؤال والبحث .

قال صاحب الكشاف : «كأنك حفى عنها عالم بها . وحقيقته كأنك بليغ فى السؤال عنها ، لأن من بالغ فى المسألة عن الشىء والتنقير عنه . استحكم علمه فيه ورصن - أى ثبت وتمكن - ، وهذا التركيب معناه المبالغة ومنه احفاء الشارب ، واحتفاء البقل ، استئصاله ، وأحفى فى المسألةاذاألحف - اى ألح وتشدد - وحفى بفلان وتحفى به : بالغ فى البر به .. وقيل : أن قريشا قالت له ان بيننا وبينك قرابة فقل لنا متى الساعة؟ فقيل يسألونك عنها كأنك حفى تتحفى بهم فتختصهم بتعليم وقتها لأجل القرابة وتزوى علمها عن غيرهم ، ولو أخبرت بوقتها لمصلحة عرفها الله فى اخبارك به ، لكنت مبلغه القريب والبعيد من غير تخصيص ، كسائر ما أوحى اليك .

ثم قال : فإن قلت : لم كرر يسألونك وانما علمها عند الله ؟ قلت : للتأكيد ولما جاء به من زيادة قوله «كأنك حفى عنها» ، وعلى هذا تكرير العلماء والحذاق »(١) .

وقال صاحب الانتصاف : وفى هذا النوع من التكرير نكتة لا تلقى الا فى الكتاب العزيز ، وهو أجل من أن يشارك فيها . وذاك أن المعهود فى أمثال هذا التكرار أن الكلام اذا بنى على مقصد واعترض فى أثنائه عارض فأريد الرجوع لتتميم المقصد الأول وقد بعد عهده ، طرى بذكر المقصد الأول لتتصل نهايته ببدايته ، وقد تقدم لذلك فى الكتاب العزيز أمثال ، وسيأتى ، وهذا منها فإنه لما ابتدأ الكلام . بقوله «يسألونك عن الساعة أيان مرساها» ، ثم اعترض ذكر الجواب المضمن فى قوله «قل انما علمها عند ربى» الى قوله «بغتة» ، أريد تتميم سؤالهم عنها بوجه من الإنكار عليهم ، وهو المضمن فى قوله «كأنك حفى عنها» وهو شديد التعليق بالسؤال وقد بعد عهده ، فطرى ذكره تطرية عامة ، ولا نراه أبداً يطرى إلا بنوع من الإجمال

(١) تفسير الكشاف ج ٢ ص ١٨٥

كالتذكرة للأول مستغنى عن تفصيله بما تقدم . فمن ثم قيل « يسألونك » ، ولم يذكر المسئول عنه وهو « الساعة » اكتفاء بما تقدم ، فلما كرر السؤال لهذه الفائدة كرر الجواب أيضا مجملا فقال : « قل إنما علمها عند الله » ، ويلاحظ هذا فى تلخيص الكلام بعد بسطه »(١) .

هذا ، وإذا كان علم الساعة مرده إلى الله وحده ، فإن هناك نصوصاً من الكتاب والسنة تحدثت عن أماراتها وعلاماتها ، ومن ذلك قوله - تعالى - :

« فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة فقد جاء أشراطها . فأنى لهم إذا جاءتهم ذكراهم » .

والأشراط : جمع شرط - بفتح الشين والراء - وهى العلامات الدالة على قربها ، وأعظم هذه العلامات بعثة النبى - صلى الله عليه وسلم - إذ بها كمل الدين وما بعد الكمال إلا الزوال .

وقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كان يقول : « بعثت أنا والساعة كهاتين » ويفرج بين أصبعيه الوسطى والسبابة .

وفى حديث جبريل المشهور أنه سأل النبى - صلى الله عليه وسلم - عن الساعة ، فقال له ما المسئول عنها بأعلم من السائل ، وسأخبرك عن أشراطها :

« إذا ولدت الأمة ربها - أى سيدها - ، وإذا تطاول رعاه الإبل فى البنيان » .

ومن علامات الساعة - كما صرحت بذلك الأحاديث - قبض العلم ، ففى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ، ولكن يقبض العلم بقبض

(١) الانتصاف على الكشاف ج ٢ ص ١٨٤ لابن المنير .

علماء ، حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤساء جهلاء فسئلوا فأفتوا بغير علم ضلوا وأضلوا » ومنها ـ أى من علامات الساعة ـ كثرة الزلازل ، وتقارب زمان ـ أى قلة البركة فى الوقت بحيث يمر الشهر كأنه أسبوع ـ ، وظهور الفتن كثرة الهرج ـ أى القتل إلى غير ذلك من العلامات التى وردت فى الأحاديث نبوية ، وقد ساق بعض المفسرين وعلى رأسهم ابن كثير جملة منها[1] .

ثم أمر الله ـ تعالى ـ رسوله صلى الله عليه وسلم ـ أن يبين للناس أن كل لأمور بيد الله ـ تعالى ـ ، وأن علم الغيب كله مرجعه إليه ـ سبحانه ـ فقال:

« قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضراً » أى : لا أملك لأجل نفسى جلب نفع ا ولا دفع ضرر ما .

وقوله « لنفسى » متعلق بأملك . أو بمحذوف وقع حالا من « نفعا » المراد : لا أملك ذلك فى وقت من الأوقات .

وقوله « إلا ما شاء الله » إستثناء متصل . أى لا أملك لنفسى نفعا لا ضراً فى وقت من الأوقات إلا فى وقت مشيئة الله بأن يمكننى من ذلك ، فى حينئذ أملكه بمشيئته .

وقيل الاستثناء منقطع ، أى لكن ماشاء الله من ذلك كائن .

وقوله « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء » : لكانت حالى ـ كما قال الزمخشرى ـ على خلاف ما هى عليه من استكثار خير ، واستغزار المنافع واجتناب السوء والمضار حتى لا يمسنى شىء منها أكن غالبا مرة ومغلوبا أخرى فى الحروب ، ورابحا وخاسرا فى التجارات مصيبا ومخطئا فى التدابير »[2] .

قال الجمل : فان قلت : قد أخبر ـ صلى الله عليه وسلم ـ عن المغيبات وقد جاءت أحاديث

(١) راجع تفسير ابن كثير حـ ٢ ص ٢٧١ .
(٢) تفسير الكشاف جـ ٢ ص ١٨٥

فى الصحيح بذلك وهو من أعظم معجزاته فكيف بينه وبين قوله - تعالى - « ولو كنت أعلم الغيب . . . الخ » ؟ قلت : يحتمل أنه قاله على سبيل التواضع والأدب ، والمعنى : لا أعلم الغيب إلا أن يطلعنى الله عليه ويقدره لى .

ويحتمل أن يكون قال ذلك قبل أن يطلعه الله على علم الغيب . فلما أطلعه الله أخبر به كما قال « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول » أو يكون خرج هذا الكلام مخرج الجواب عن سؤالهم ، ثم بعد ذلك أظهره - سبحانه - على أشياء من المغيبات فأخبر عنها ليكون ذلك معجزة له ودلالة على صحة نبوته[1] .

ثم بين القرآن وظيفة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى قوله « إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » أى : ما أنا إلا عبد أرسلنى الله نذيراً وبشيراً ، وليس من مهمتى أو وظيفتى معرفة علم الغيب .

وقوله « لقوم يؤمنون » يجوز أن يتعلق بقوله « نذير وبشير » جميعا لأن المؤمنين هم الذين ينتفعون بالإنذار والتبشير ، ويجوز أن يتعلق بقوله « بشير » وحده ، وعليه يكون متعلق النذير محذوف أى : للكافرين . وحذف للعلم به .

وبهذا الإعلان من جانب الرسول - صلى الله عليه وسلم - للناس عن وظيفته ، تتم لعقيدة التوحيد الإسلامية كل خصائص التجريد المطلق من الشرك فى أية صورة من صوره ، وتنفرد الذات الإلهية بخصائص لا يشاركها فيها بشر ولو كان هذا البشر محمداً - صلى الله عليه وسلم - فعند عتبة الغيب تقف الطاقة البشرية ، ويقف العلم البشرى ، وتقف القدرة البشرية ، إذ علم الغيب إنما هو لله الذى لا يخفى عليه شىء فى الأرض ولا فى السماء .

ثم تحدثت السورة بعد ذلك عن مظاهر قدرة الله وأدلة وحدانيته ، فذكرت

---

(١) حاشية الجمل على الجلالين ج ٢ ص ٢١٨

س بمبدأ نشأتهم، وكيف أن بعضهم قد انحرف عن طريق التوحيد إلى طريق رك، وساقت ذلك فى صورة القصة لضرب المثل من واقع الحياة فقالت :

« هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا سْكُنَ إِلَيْهَا ، فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ ، ا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحًا لَنَكُونَنَّ مِنَ ـا كِرِينَ (١٨٩) فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلاَ لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا الَى اللَّهُ عَمَّ يُشْرِكُونَ (١٩٠) » .

قوله — تعالى — « هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها كن إليها » إستئناف مسوق لبيان ما يقتضى التوحيد الذى هو المقصد الأعظم.

أى . إن الذى يستحق العبادة والخضوع ، والذى عنده مفاتح الغيب هو الذى خلقكم من نفس واحدة هى نفس أبيكم آدم ، وجعل من نوع هذه فس وجنسها زوجها حـــواء ، ثم انتشر الناس منهما بعد ذلك كما قال تعالى — « يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة وخلق ا زوجها وبث منهما رجالا كثيراً ونساء » .

وقوله « ليسكن إليها » أى : ليطمئن إليها ويميل ولا ينفر ، لأن الجنس الجنس أميل وبه آنس . وإذا كانت بعضا منه كان السكون والمحبة أبلغ ، يسكن الإنسان إلى ولده ويحبه محبة نفسه لكونه بضعة منه .

فالأصل فى الحياة الزوجية هو السكن والاطمئنان والأنس والاستقرار ذه نظرة الاسلام إلى تلك الحيــاة قال — تعالى — « ومن آياته أن خلق كم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة » .

والضمير المستكن فى « يسكن » يعود إلى النفس ، وكان الظاهر تأنيثه لأن فس من المؤنثات السماعية ولذا أنثت صفتها وهى قوله « واحدة » إلا أنه

جاء مذكرا هنا باعتبار أن المراد من النفس هنا - آدم عليه السلام - ولو أنث على حسب الظاهر لتوهم نسبة السكون إلى الأنثى ، فكان التذكير كما يقول الزمخشري - أحسن طباقا للمعنى .

وقوله « فلما تغشاها حملت حملا خفيفا فمرت به » .

الغشاء : غطاء الشيء الذي يستره من فوقه . والغاشية : الظلة التي تظل الإنسان من سحابة أو غيرها . والتغشي كناية عن الجماع . أي فلما تغشى الزوج الذي هو الذكر الزوجة التي هي الأنثى وتدثرها لقضاء شهوتهما ، حملت حملا خفيفا . أي : حملت منه محمولا خفيفا وهو الجنين في أول حمله لا تجد المرأة له ثقلا لأنه يكون نطفة ثم مضغة ، ولا ثقل له يذكر في تلك الأحوال . فمرت به ، أي : فمضت به إلى وقت ميلاده من غير نقصان ولا إسقاط . أو المعنى فاستمرت به كما كانت من قبل حيث قامت وقعدت وأخذت وتركت من غير مشقة وتلك هي المرحلة الأولى من مراحل الحمل .

وتأمل معي - أيها القارئ الكريم - مرة أخرى قوله - تعالى : « فلما تغشاها حملت حملا خفيفا ... » لترى سمو القرآن في تعبيره ، وأدبه في عرض الحقائق . إن أسلوبه يلطف ويدق عند تصوير العلاقة بين الزوجين فهو يسوقها عن طريق كناية بديعة تتناسب مع جو السكن والمودة بين الزوجين وتتسق مع جو الستر الذي تدعو إليه الشريعة الإسلامية عند المباشرة بين الرجل والمرأة ، ولا نجد كلمة تؤدي هذه المعاني أفضل من كلمة « تغشاها » .

ثم تأتي المرحلة الثانية من مراحل الحمل فيعبر عنها القرآن بقوله : « فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين » .

أي : فحين صارت ذات ثقل بسبب نمو الحمل في بطنها ، فالهمزة للصيرورة كقولهم : أتمر فلان وألبن أي : صار ذا تمر ولبن .

أي : وحين صارت الأم كذلك وتبين الحمل ، وتعلق به قلب الزوجين ، توجه

لى ربهما يدعوانه بضراعه وطمع بقولهما : « لئن آتيناصالحا»أى لئن أعطيتنا
سلا سويا تام الخلقة ، يصلح للأعمال الإنسانية النافعة لنكونن من الشاكرين»
ث على نعمائك التى من أجلها هذه النعمة واستجاب الله المزوجين دعاءهما ،
ـزقهما الولد الصالح فماذا كانت النتيجة ؟ .

لقد كانت النتيجة عدم الوفاء لله فيما عاهداه عليه ، ويحكى القرآن ذلك
قول : فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء فيما آتاهما ، أى : فحين أعطاهما
سبحانه - الولد الصالح الذى كانا يتمنيانه ، جعلا لله - تعالى - شركاء
، هذا العطاء ، وأخلا بالشكر فى مقابلة هذه النعمة أسوأ إخلال ، حيث
سبوا هذا العطاء إلى الأصنام والأوثان ، أو إلى الطبيعة كما يزعم الطبيعيون
. إلى غير ذلك مما يتنافى مع إفراد الله - تعالى - بالعبادة والشكر .

وقوله « فتعالى الله عما يشركون ، تنزيه فيه معنى التعجب من أحوالهم .
، : تنزه - سبحانه - وتقـــدس عن شرك هؤلاء الأغبياء الجاحدين الذين
ابلون نعم الله بالإشراك والكفران .

والضمير فى « يشركون » يعود على أولئك الآباء الذين جعلوا لله شركاء
ا ، والمحققون من العلماء يرون أن هاتين الآيتين قد سيقتا توبيخا للمشركين
يث أن الله - تعالى - أنعم عليهم بخلقهم من نفس واحدة ، وجعل أزواجهم
، أنفسهم ليأنسوا بهن ، وأعطاهم الذرية ، وأخذ عليهم العهود بشكره على
ه النعم ، ولكنهم جحدوا نعمه وأشركوا معه فى العبادة والشكر آلهة
رى « فتعالى الله عما يشركون » .

ويرى بعض المفسرين أن المراد بهذا السياق آدم وحواء ، واستدلوا على
ك بما رواه الإمام أحمد - بسنده - عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « لما
ف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد فقال لها سميه عبد الحارث فإنه يعيش
مته عبد الحارث فعاش ، وكان ذلك من وحى الشيطان وأمره » .

وقد أثبت ابن كثير في تفسيره ضعف هـذا الحديث من عدة وجوه ، ثم قال : قال الحسن : عنى الله - تعالى - بهذه الآية ذرية آدم ومن أشرك منهم بعده ، وقال قتادة : كان الحسن يقول : هم اليهود والنصارى رزقهم الله أولاداً فهودوا ونصروا . قال ابن كثير : وهو من أحسن التفاسير وأولى ما حملت عليه الآية ، ونحن على مذهب الحسن البصري في هذا ، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته ، ولهذا قال « فتعالى الله عما يشركون[1] » .

وقال صاحب الانتصاف : والأسلم والأقرب أن يكون المراد - والله أعلم - جنسي الذكر والأنثى لا يقصد فيه إلى معين. وكأن المعنى خلقكم جنساً واحداً، وجعل أزواجكم منكم أيضاً لتسكنوا إليهن ، فلما تغشى الجنس الذي هو الذكر ، الجنس الآخر الذي هو الأنثى جرى من هذين الجنسين كيت وكيت . وإنما نسب هذه المقالة إلى الجنس وإن كان فيهم الموحدون على حد قولهم « بنو فلان قتلوا قتيلا » يعني من نسبة البعض إلى الكل[1] .

والذي نراه أن الآيتين واردتان في توبيخ المشركين على شركهم ونقضهم لعهودهم مع الله - تعالى - لأن الأحاديث والآثار التي وردت في أنهما وردتا في شأن آدم وحواء لتسميتهما ابنهما بعبد الحارث اتباعاً لوسوسة الشيطان لهما ليست صحيحة ، كما أثبت ذلك علماء الحديث .

ثم أخذت السورة بعد ذلك في توبيخ المشركين ، وفي إبطال شركهم بأسلوب منطق حكيم فقالت :

« أَيُشْرِكُونَ مَالاَ يَخلقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ (١٩١) ولا يَسْتَطِيعُونَ

---

(١) راجع تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٢٧٤ .

(٢) الانتصاف على الكشاف جـ ٢ ص ١٨٦ لابن المنير - بتصرف يسير -

لَهُمْ نَصْراً ولاَ أَنفُسَهم يَنْصُرُونَ (١٩٢) وإنْ تَدْعُوهمُ إلى الهُدَى لاَ يَتَّبِعوكمْ سَــــواءٌ عَلَيْكم أَدَعَوتمُوهمُ أَمْ أَنْتُمْ صَامِتُونَ (١٩٣) إنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُـكُمْ فَادْعُوهمُ فَلْيَسْتَجِيبُو لـكُم إنْ كُنْتُم صَادِقِينَ (١٩٤) أَلَهُمْ أَرْجُـلٌ يَمْشُونَ بِها ، أَمْ لَهُ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِها ، أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِها ، أَمْ لَهمْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِها ، قُلْ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونَ فلا تُنْظِرُونَ (١٩٥) إنَّ وَلِيِّ اللهُ الَّذِي نَزَّلَ الـكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ (١٩٦) وَالَّذِينَ تَدْعُـونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ ولا أَنْفُسَهُم يَنْصُرُونَ (١٩٧) وإنْ تَدْعُوهمُ إلَى الهُدَى لا يَسْمَعُوا وتَرَاهمُ يَنْظُرُو إلَيْكَ وَهمُ لا يُبْصِرُونَ (١٩٨) » .

قوله - تعالى - « أيشركون مالا يخلق شيئاً وهم يخلقون » أى أيشركون به - تعالى - وهو الخالق لهم ولكل شىء ، مالا يخلق شيئاً م الأشياء مهما يكن حقيراً ، بل إن هذه الأصنام التى تعبد من دون الله مخلو ومصنوعة ، فكيف يليق بسليم العقل أن يجعـــل المخلوق العاجز شري للخالق القادر .

والاستفهام للإنكار والتجهيل . والمراد بما فى قوله « مالا يخلق شيئاً أصنامهم ، ورجع الضمير إليها مفرداً لرعاية لفظها ، كما أن إرجاع ضمير الجم إليها فى قوله « وهم يخلقون » لرعاية معناها .

وجاء بضمير العقلاء فى « يخلقون » مسايرة لهم فى اعتقادهم أنها تضر وتنف

ثم قال - تعالى - : « ولا يستطيعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون أى : أن هذه الأصنام فضلا عن كونها مخلوقة ، فانها لا تستطيع أن تجلب

لعابديها نصراً على أعدائهم ، بل إنها لا تستطيع أن تدفع عن نفسها شرا ، ومن هذه صفته كيف يعبد من دون الله ؟ قال - تعالى - «إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له، وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب .

ثم بين - سبحانه - عجز الأصنام عما هو أدنى من النصر المنفي عنهم وأيسر وهو مجرد الدلالة على المطلوب من غير تحصيله للطالب فقال : « وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم » أى : وإن تدعوا أيها المشركون هذه الأصنام إلى الهدى والرشاد لا يتبعوكم ، أى أنهم لا ينفعوكم بشيء ولا ينتفعون منكم بشيء .

وقوله « سواء عليكم أدعوتموهم أم أنتم صامتون » استئناف مقرر لمضمون ما قبله .

أى : مستو عندكم دعاؤكم إياهم وبقاؤكم على صمتكم ، فإنه لا يتغير حالكم فى الحالين ، كما لا يتغير حالهم بحكم أنهم جماد .

ثم مضى القرآن فى دعوته إياهم إلى التدبر والتعقل فقال : « إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم » .

أى : أن هذه الأصناف التى تعبدونها من دون الله ، أو تنادونها لدفع الضر أو جلب النفع « عباد أمثالكم » أى : مماثلة لكم فى كونها مملوكة لله مسخرة مذللة لقدرته كما أنكم أنتم كذلك فكيف تعبدونها أو تنادونها ؟

وأطلق عليها لفظ « عباد » مع أنها جماد وفق اعتقادهم فيها تبكيتا لهم وتوبيخا .

وقوله « فادعوهم فليستجيبوا لكم » تحقيق لمضمون ما قبله بتعجيزهم وتبكيتهم أى : فادعوهم فى رفع ما يصيبكم من ضر ، أو فى جلب ما أنتم فى حاجة إليه من نفع « إن كنتم صادقين » فى زعمكم أن هذه الأصنام قادرة على ذلك .

ثم تابع القرآن تقريعه لهذه الأصنام وعابديها فقال : « ألهم أرجل يمشون بها ، أم لهم أيد يبطشون بها ، أم لهم أعين يبصرون بها ، أم لهم آذان يسمعون بها » .

الاستفهام للإنكار , والمعنى : أن هذه الأصنام التى تزعمون انها تقربكم إلى الله زلفى هى أقل منكم مستوى لفقدها الحواس التى هى مناط الكسب إنها ليس لها أرجل تسعى بها إلى دفع ضر أو جلب نفع،وليس لها أيد تبطش بها أى تأخذ بها ما نريد أخذه ، وليس لها أعين تبصر بها شئونكم وأحوالكم وليس لها آذان تسمع بها أقوالكم ، وتعرف بواسطتها مطالبكم ، فأنتم أيها الناس تفضلون هذه الأصنام بما منحكم الله - تعالى - من حواس السمع والبصر وغيرها فكيف يعبد الفاضل المفضول , وكيف ينقاد الأقوى للأضعف ؟

ثم أمر الله - تعالى رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يناصبهم المحاجة وأن يكرر عليهم التوبيخ فقال : « قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون » أى : قل أيها الرسول الكريم لهؤلاء الذين هبطوا بعقولهم إلى أحط المستويات نادوا شركاءكم الذين زعمتموهم أولياء ثم تعاونوا أنتم وهم على كيدى وإلحاق الضرر بى من غير انتظار أو إمهال ، فإنى أنا معتز بالله ، وملتجىء إلى حماه ومن كان كذلك فلن يخش شيئا من المخلوقين جميعا .

وهذا نهاية التحدى من جانب الرسول - صلى الله عليه وسلم - لهم والحط من شأنهم وشأن آلهتهم .

ثم بين لهم الأسباب التى دعته إلى تحديهم وتبكيتهم فقال « إن وليي الله الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين » .

أى : قل يا محمد لهؤلاء الضالين إنى ما تحديتكم وطلبت كيدكم وكيد أصنامكم - إن كنتم أنتم وهم تقدرون على ذلك على سبيل الفرض - إلا

لأنى معتز بالله وحده ، فهو ناصرى ومتولى أمرى، وهو الذى نزل هذا القرآن لأخرجكم به من الظلمات إلى النور ، وقد جرت سنته - سبحانه - أن يتولى الصالحين وأن يجعل العاقبة لهم .

قال الحسن البصرى : إن المشركين كانوا يخوفون الرسول - صلى الله عليه وسلم - بآلهتهم فقال - تعالى - « قل ادعوا شركاءكم ... » الآية - ليظهر لكم أنه لاقدرة لها على إيصال المضار إلى بوجه من الوجوه . وهذا كما قال هود - عليه السلام - لقومه رداً على قولهم . « إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء - قال : إنى أشهد الله وأشهدوا أنى برىء مما تشركون . من دونه فكيدون جميعاً ثم لاتنظرون ... » .

ثم قال - تعالى - « والذين تدعون من دون الله لايستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون » أى : والذين تعبدونهم من دون الله أو تنادونهم لدفع الضر أو جلب النفع لايستطيعون نصركم فى أى أمر من الأمور ، وفضلا من ذلك فهم لايستطيعون رفع الأذى عن أنفسهم إذا مااعتدى عليهم معتد .

ثم قال - تعالى - « وإن تدعوهم إلى الهدى » أى : إلى أن يرشدوكم إلى ماتحصلون به مقاصدكم من النصر على الأعداء أو غير ذلك « لايسمعوا » أى : لايسمعوا شيئاً مما تطلبونه منهم ، ولو سمعوا - على سبيل الفرض - مااستجابوا لكم لعجزهم عن فعل أى شىء .

وقوله « وتراهم ينظرون إليك وهم لايبصرون » بيان لعجزهم عن الإبصار بعد بيان عجزهم عن السمع ، أى : وترى هذه الأصنام كأنها تنظر إليك بواسطة تلك العيون الصناعية التى ركبت فيها ولكنها فى الواقع لاتبصر لخلوها من الحياة .

وبذلك تكون هذه الآيات الكريمة قد وبخت المشركين وآلهتهم أعظم توبيخ ، وأثبتت بالأدلة المنطقية الحكيمة، وبوسائل الحس والمشاهدة أن هذه

الأصنام لا تملك لنفسها نفعاً ولا ضراً ، وأن الذين قالوا فى شأنها « ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى » هم قوم غافلون جاهلون ، قد هبطوا بعقولهم إلى أحط الدركات ، لأنهم يتقربون إلى الله زلفى عن طريق ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنهم شيئا ، بل لا يستطيع أن يدفع الأذى عن نفسه .

وفى الوقت نفسه فالآيات دعوة قوية لكل عاقل إلى أن يجعل عبادته وخضوعه لله الواحد القهار .

ثم تتجه السورة الكريمة بعد ذلك إلى شخص الرسول - صلى الله عليه وسلم - فترسم له ولكل عاقل طريق معاملته للخلق على وجه يقيه شر الحرج والضيق فتقول .

« خُذِ العَفْوَ وَأْمُرْ بِالعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ (١٩٩) » .

العفو : يطلق فى اللغة على خالص الشىء وجيده ، وعلى الفضل الزائد فيه ، وعلى السهل الذى لا كلفة فيه .

أى : خذ ما عفا وسهل وتيسر من أخلاق الناس ، وأرض منهم بما تيسر من أعمالهم وتسهل من غير كلفة . ولا تطلب منهم ما يشق عليهم ويرهقهم حتى لا ينفروا ، وكن لينا رفيقاً فى معاملة أتباعك ، فإنك « لو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك » « وأمر بالعرف » أى : مر غيرك بالمعروف المستحسن من الأفعال ، وهو كل ما عرف حسنه فى الشرع ، فإن ذلك أجدر بالقبول من غير نكير ، فإن النفوس حين تتعود الخير الواضح الذى لا يحتاج إلى مناقشة وجدال ، يسلس قيادها ، ويسهل توجيها .

« وأعرض عن الجاهلين » الذين لا يدركون قيم الأشياء والأشخاص والمكلمات فيما يبدر منهم من أنواع السفاهة والإيذاء لأن الرد على أمثال هؤلاء ومناقشتهم لا تؤدى إلى خير ، ولا تنتهى إلى نتيجة . والسكوت عنهم احترام للنفس ، واحترام للقول ، وقد يؤدى الإعراض عنهم إلى تذليل نفوسهم وترويضها .

وهذه الآية على قصرها تشتمل - كما قال العلماء - على مكارم الأخلاق فيما يتعلق بمعاملة الإنسان لأخيه الإنسان ، وهى طريق قويم لكل ماتطلبه الإنسانية الفاضلة لأبنائها الأبرار ، وقد جاءت فى أعقاب حديث طويل عن أدلة وحدانية الله - تعالى - وإبطال الشرك والشركاء ، لكى تبين للناس فى كل زمان ومكان أن التحلى بمكارم الأخلاق إنما هو نتيجة لإخلاص العبادة لله الواحد الأحد ، الفرد الصمد .

قال القرطبي : هذه الآية من ثلاث كلمات ، تضمنت قواعد الشريعة فى المأمورات والمنهيات .

فقوله « خذ العفو » دخل فيه صلة القاطعين والعفو عن المذنبين ، والرفق بالمؤمنين ، وغير ذلك من أخلاق المطيعين . ودخل فى قوله « وأمر بالعرف » صلة الأرحام ، وتقوى الله فى الحلال والحرام ، وغض الأبصار ، والاستعداد لدار القرار .

وفى قوله « وأعرض عن الجاهلين » الحض على التعلق بالعلم ، والإعراض عن أهل الظلم ، والتنزه عن منازعة السفهاء ، ومساواة الجهلة الأغبياء ، وغير ذلك من الأخلاق المجيدة والأفعال الرشيدة »[1] .

ثم يرشد القرآن المسلمين فى شخص الرسول الكريم - صلى الله عليه وسلم - إلى مايهدىء غضبهم ويطفىء ثورتهم فيقول :

« وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٠٠) إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ (٢٠١) وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى الْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ (٢٠٢) » .

النزغ والنخس والغرز بمعنى واحد ، وهو إدخال الإبرة أو طرف العصا ونحوها فى الجلد .

(١) تفسير القرطبي جـ ٧ ص ٣٤٤

أى : وإن تعرض لك من الشيطان وسوسة تثير غضبك ، وتحملك على خلاف ما أمرت به من أخذ العفو والأمر بالمعروف والإعراض عن الجاهلين، فالتجىء إلى الله ، واستعذ بجاه ، فإنه ـ سبحانه ـ سميع لدعائك ، عليم بكل أحوالك . وهو وحده الكفيل بصرف وسوسة الشياطين عنك ، وصيانتك من همزاتهم ونزغاتهم .

ثم بين ـ سبحانه ـ حالة المتقين فقال « إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا » .

طائف من الطواف والطواف بالشىء أى : الاستدارة به أو حـــوله . يقال : طاف بالشىء إذا دار حوله. والمراد به هنا وسوسة الشيطان وهمزاته.

أى : إن الذين اتقوا الله ـ تعالى ـ وصانوا أنفسهم عن كل ما يغضبه إذا مسهم شىء من وسوسة الشيطان ونزغاته التى تلهيهم عن طاعة الله ومراقبته « تذكروا » أى : تذكروا أن المس إنما هو من عدوهم الشيطان فعادوا سريعا إلى طاعة الله ، وإلى خوف مقامه ونهى أنفسهم عن اتباع همزات الشياطين .

والجملة الكريمة مستأنفة مقررة لما قبلها من الأمر ببيان أن الاستعاذة سنة مسلوكة للمتقين ، وأن الإخلال بها من طبيعة الضالين .

وفى قوله « إذا مسهم طائف » إشعار بعلو منزلتهم ، وقوة إيمانهم ، وسلامة يقينهم لأنهم بمجرد أن تطوف بهم وساس الشيطان أو بمجرد أن أن يمسهم شىء منه فإنهم يتذكرون عداوته ، فيرجعون سريعا إلى حمى ربهم يستجيرون به ويتوبون إليه .

وفى التعبير عن الوسوسة بالطائف إشعار بأنها وإن مست هؤلاء المتقين فإنها لاتؤثر فيهم ، لأنها كأنها طافت حولهم دون أن تصل إليهم .

وقوله « فإذا هم مبصرون » أى : فإذا هم مبصرون مواقع الخطأ ، وخطوات الشيطان ، فينتهون عنها .

وفى هذه الآية الكريمة مايهدى العقول ، ويطب النفوس ، إذ هى تبين لنا أن مس الشيطان قد يغلق بصيرة الإنسان عن كل خير ، ولكن التقوى هى التى تفتح هذه البصيرة ، وهى التى تجعل الإنسان دائماً يقظاً متذكراً لما أمره الله به أو نهاه عنه ، فينتصر بذلك على وساوس الشيطان وهمزاته ، وتبقى لهم بصيرتهم على أحسن ماتكون صفاء ونقاء وكشفاً .

أما الذين لم يتقوا الله ، ولم يلجأوا إلى حماه ، ولم يخالفوا الشيطان فقد عبر عنهم القرآن بقوله : « وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون » .

يمدونهم من المد ، وهو الزيادة يقال : مده يمده أى : زاده . والغى : الضلال ، مصدر غوى يغوى غيا وغواية .

أى : وإخوان الشياطين من المشركين والغافلين تزيدهم الشياطين من الضلال عن طريق الوسوسة والإغراء بارتكاب المعاصى والموبقات ، ثم لا يقصرون ، أى : ثم لا يكف هؤلاء الشياطين عن إمداد أو ليائهم من الإنس بألوان الشرور والآثام حتى يهلكوهم . ويجوز أن يعود الضمير لإخوانهم : أى ثم لا يكف هؤلاء الناس عن الغى والضلال مهما وعظهم الواعظون وأرشدهم المرشدون .

و « يقصرون » من أقصر عن الشىء إذا كف عنه ونزع مع القدرة عليه .

ثم بين - سبحانه - لونا من ألوان غوايتهم وضلالهم فقال :

« وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِمْ بِآيَةٍ قَالُوا لَوْلَا اجْتَبَيْتَهَا ، قُلْ إِنَّمَا أَتَّبِعُ ما يُوحَى إِلَيَّ مِنْ رَبِّي ، هَٰذَا بَصَائِرُ مِنْ رَبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (٢٠٣) » .

الاجتباء : افتعال من الجباية بمعنى الجمع ، يقال : جبيت الماء فى الحوض أى جمعته ، ومنه قيل للحوض جابية [illegible] :

والمعنى : وإذا لم تأت أيها الرسول هؤلاء المشركين بآية من القرآن وتراخى الوحى بنزولها ، أو بآية مما اقترحوه عليك من الآيات الكونية ، إذا لم تفعل ذلك قالوا لك بجهالة وسفاهة « لولا اجتبيتها » أى : هلا جمعتها من عند نفسك واخترعتها اختراعا بعقلك ، أو هلا ألححت فى الطلب على ربك ليعطيك إياها ويجمعها لك .

قل لهم يا محمد على سبيل التبكيت رداً على تهكمهم بك ، إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى ، أى إنما أنا متبع لا مبتدع فما يوحيه الله إلى من الآيات أما أبلغه إليكم بدون تغيير أو تبديل .

ثم أرشدهم - سبحانه - إلى أن هذا القرآن هو اعظم المعجزات ، وأبين الدلالات وأصدق الحجج والبينات فقال : « هذا بصائر من ربكم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون » .

أى : هذا القرآن بمنزلة البصائر للقلوب ، به تبصر الحق . وتدرك الصواب وهو هداية لكم من الضلالة ، ورحمة من العذاب لقوم يؤمنون به ، ويعملون بإرشاداته ووصاياه .

وكما افتتحت السورة بالثناء على القرآن « كتاب أنزل إليك فلا يكن فى صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين » ، فقد اتجهت فى أواخرها إلى أمر الناس بحسن الاستماع إلى هذا القرآن ، وإلى تدبره والعمل به فقالت :

« وإذَا قُرِئَ القرآنُ فاسْتَمِعُوا لهُ وأنصِتُوا لعلكُم تُرحمون (٢٠٤) » .

أى وإذا قرىء القرآن الذى ذكرت خصائصه ومزاياه عليكم فاستمعوا له بتدبر وخشوع ، وأصغوا إليه بأسماعكم وكل جوارحكم لتفهموا معانيه ، وتفقهوا توجيهاته ، وأنصتوا لقراءته حتى تنقضى تعظيما له ، وإكبارا لشأنه ، لكى تفوزوا برحمة الله ورضاه .

وبعض العلماء يحمل القراءة فى الآية على القراءة خلف الإمام فى الصلاة، أى أن على المؤتم أن يستمع إلى قراءة الإمام بتدبر وخشوع، واستدلوا على ذلك بأحاديث فى هذا المعنى. وبعضهم يحمل الآية عامة فى وجوب الاستماع إلى قراءة القرآن بتدبر وإنصات وخشوع فى الصلاة وفى غير الصلاة وحملوا الأحاديث التى أوردها أصحاب الرأى الأول على العموم أيضاً.

والذى نراه أن الآية تأمر بوجوب الاستماع والإنصات عند قراءة القرآن فى الصلاة وفى غير الصلاة، لأن تعاليم الإسلام وآدابه تقتضى منا أن نستمع إلى القرآن بتدبر وإنصات وخشوع، ليؤثر تأثيره الشافى فى القلوب، وليقودها إلى الطاعة والتقوى، فتنال المغفرة والرحمة.

ثم اختتمت السورة الكريمة بالحديث عن ذكر الله الذى هو طب القلوب ودواؤها وعافية الأبدان وشفاؤها فقالت:

« وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِى نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وخِيفَةً ودُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ والآصَالِ ولاَ تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ (٢٠٥) إِنَّ الذينَ عِنْدَ رَبِّكَ لا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ ويُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ (٢٠٦) ».

أى: استحضر عظمة ربك - جل جلاله - فى قلبك. واذكره بما يقربك إليه عن طريق قراءة القرآن والدعاء والتسبيح والتحميد والتهليل وغير ذلك.

وقوله « تضرعا وخيفة » فى موضع الحال بتأويل اسم الفاعل أى اذكره متضرعا متذللا له وخائفا منه - سبحانه -:

وقوله « ودون الجهر من القول » معطوف على قوله « فى نفسك » أى: اذكر ربك ذكراً فى نفسك، وذكرا بلسانك دون الجهر.

والمراد بالجهر: رفع الصوت بإفراط، وبما دونه ما هو أقل منه، وهو الوسط بين الجهر والمخافتة، قال ابن عباس: هو أن يسمع نفسه.

وقوله « بالغدو والآصال » متعلق باذكر . والغدو جمع غدوة وهو مابين طلوع الفجر وطلوع الشمس .

والآصال جمع أصيل وهو من العصر إلى الغروب .

أى : اذكر ربك مستحضرا عظمته ، فى كل وقت ، وراقبه فى كل حال ، لا سيما فى هذين الوقتين لأنهما طرفا النهار ومن افتتح نهاره بذكر الله واختتمه به كان جديرا برعاية ربه .

قيل : وخص هذان الوقتان بالذكر لأنهما وقت سكون ودعة وتعبد واجتهاد ، وما بينهما من أوقات الغالب فيها الانقطاع لأمر المعاش .

ثم نهى ـ سبحانه ـ عن الغفلة عن ذكره فقال : « ولا تكن من الغافلين » الذين شغلتهم الدنيا عن ذكر الله .

وفيه إشعار بطلب دوام ذكره ـ تعالى ـ واستحضار عظمته وجلاله وكبريائه بقدر الطاقة البشرية .

قال بعض العلماء : ويؤخذ من هذه الآية الكريمة أن للذكر آدابا من أهمها :

١ ـ أن يكون فى النفس لإن الإخفاء أدخل فى الإخلاص ، وأقرب إلى الإجابة ، وأبعد من الرياء .

٢ ـ أن يكون على سبيل التضرع وهو التذلل والخضوع والاعتراف بالتقصير .

٣ ـ أن يكون على وجه الخيفة أى الخوف والخشية من سلطان الربوبية وعظمة الألوهية من المؤاخذة على التقصير فى العمل لتخشع النفس ويخضع القلب .

٤ ـ أن يكون دون الجهر لأنه أقرب إلى حسن التفكر . وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى قال : رفع الناس أصواتهم بالدعاء فى بعض الأسفار،

فقال لهم النبى - صلى الله عليه وسلم - يأيها الناس : أربعوا على أنفسكم - أى هونوا على أنفسكم - فإنكم لاتدعون أصم ولا غائباً . إن الذين تدعونه سميع قريب ، أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته » .

٥ - أن يكون باللسان لا بالقلب وحده ، وهو مستفاد من قوله «ودون الجهر ، لأن معناه ومتكلما كلاماً دون الجهر ، فيكون صفة لمعمول حال محذوفة ، معطوفاً على « تضرعاً » ، أو هو معطوف على « فى نفسك » ، أى : اذكره ذكراً فى نفسك وذكراً بلسانك دون الجهر[1] .

ثم ذكر - سبحانه - مايقوى دواعى الذكر ، وينهض بالهمم إليه ، بمدحه للملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون فقال : «إن الذين عند ربك» وهم ملائكة الملأ الأعلى . والمراد بالعندية القرب من الله - تعالى - بالزلفى والرضا لا المكانية لتنزهه - سبحانه - عن ذلك .

« لا يستكبرون عن عبادته » بل يؤدونها حسبما أمروا به بخضوع وطاعة

« ويسبحونه » أى : ينزهونه عن كل مالا يليق بجلاله على ابلغ وجه .

« وله يسجدون » أى : يخصونه وحده بغاية العبوديه والتذلل والخضوع، ولا يشركون معه أحداً فى عبادة من عباداتهم .

أما بعد : فهذه هى سورة الأعراف التى سبحت بنا سبحاً طويلا وهى تحدثنا عن أدلة وحدانية الله ، وعن هداية القرآن الكريم ، وعن مظاهر نعم الله على خلقه ، وعن اليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب ، وعن بعض الأنبياء وما جرى لهم مع أقوامهم ، وكيف كانت عاقبة هؤلاء الأقوام، وعن سنن الله - تعالى - فى إسعاد الأمم وإشقائها ، وغير ذلك من أصول التشريع وآداب الإجتماع ، وشئون البشر ...

وقد استعملت السورة فى أوامرها ونواهيها وتوجيهاتها أساليب التذكير

---

(١) تفسير القاسمى جـ ٧ ص ٢٩٣٦ .

بالنعم ، والتخويف من النقم ، وإيراد الحجج المقنعة ، ودفـــع الشبهات الفاسدة ...

وهذا تفسير لها تناولنا فيه بالشرح والتحليل ما اشتملت عليه من توجيهات سامية ، وآداب عالية ، ومقاصد جليلة ، وحجج باهرة ، ومواعظ مؤثرة .

والله نسأل أن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكـــريم ، ونافعا لنا يوم الدين .

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات . وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم .

فهرس

إجمالى لتفسير سورة الأعراف

رقم الإيداع ٥٦٩١ / ١٩٧٦

